صدر الخطط

بسم الله الرحمن الرحيم

عونك اللهم يا لطيف

نشرت عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) في مجلة المقتطف تسعة فصول في « عمران دمشق » صادفت استحسان بعض من قرأوها من خاصة الباحثين، وجمهور المطالعين ، فوقع في النفس يومئذ أن أتوسع في هـذا البحث ، وأدرس عمران الشام كله ، لأن صورة العاصمة وحدها لا تكفي للدلالة على حالة القطر ، ومن الإشراف على الأطراف ، قد تعرف صحة الجسم عامة والقلب خاصة ، ومن اهتم بالجزء كان حرياً أن يضاعف العناية بالكل .

فشرعت من ثـم أتصفح كل ما ظفرت به من المخطوطات والمطبوعات باللغات العربية والتركية والفرنسية ، وقصدت دور الكتب الخاصة والعامة في الشام ومصر والمدينة المنورة والاستانة ورومية وباريز ولندرا وإكسفورد وكمبريدج وليدن وبرلين ومونيخ ومجريط والاسكوريال . وكنت كلـما استكثرت من المطالعة ، تتجلى أمامي صعوبة العمل ، هذا مع ما قام في سبيل نشر هـذا المجموع من العقبات ، منذ وطدت العزم على وضعه ، وما نالني من الكوارث في العهد الماضي . ولكن الشقاء قد يأتي بسعادة، ورب ضرّ أعقب خيراً . فإن التضييق عليّ نشأ منه اضطراري الى الارتحال غير مرة ، فأخذت أستقري المعالم والمجاهل في هذا القطر ، ونزلت على

أمم كثيرة في بلاد الغرب ، فاستفدت من تنقلي بعض ما عندهم من أسفارنا وآثارنا ، وقابلت عن أمم بين عمراننا وعمرانهم ، وجمودنا اليوم وحركتهم .

رحلت الى اوروبا ثلاث رحلات ، أبحث في دور كتبها عن المخطوطات التي يرجى أن يكون أصحابها قد تعرضوا لحوادث هذا القطر ، وزرت أصقاع الشام لأقابل بين حاضره وغابره ، ولما نسجت بأخرَة ما جمعت ، قدمت له مقدمة في بيان ما تشترك فيه بلاد الشام عامة من المظاهر والأوضاع ، وسميته « خطط الشام » وأعني بالشام الأصقاع التي تتناول ما اصطلح العرب على تسميته بهذا الاسم ، وهو القطر الممتد من سقي النيل الى سقي الفرات ، ومن سفوح طوروس الى أقصى البادية ، أي سورية وفلسطين في عرف المتأخرين . ويراد بالخطط كل ما يتناول العمران ، والبحث في تخطيط بلد بحث في تاريخه [1] وحضارته .

أول من صنف في الخطط واستقصى فيها على ما علمنا الحسن بن زولاق المصري (المتوفى سنة ٣٨٧) وقال المقريزي (المتوفى في سنة ٨٤٣) إن أول من صنف فيها أبو عمر بن يوسف الكندي ، ثم القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (٤٥٤) والذي انتهى الينا كتاب خطط مصر للمقريزي المنوه بـه ، وهو أجمل مثال في باب الإجادة في التأليف . ولم نعلم أن أحداً من المتقدمين كتب على الشام وخططه ، وكتب بعض المتأخرين في موضوع خاص وبلد معين . وما خطط الشام في الحقيقة إلا زبدة الوقائع والكوائن ، وأخبار الصعود والتدلي ، والمظاهر الغريبة التي ظهرت بها هذه الديار ، في غابر الأعصار ، مقتبساً ذلك مما أبقته

---

(١) قال العلامة البيروني : التاريخ هي مدة معلومة من لدن اول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان ، أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن ، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب ، أو زلزلة أو خسف مبيد ، أو وباء مهلك ، أو قحط مستأصل ، أو انتقال دولة ، او تبدل ملة ، أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية ، والعلامات المشهورة الأرضية ، التي لا تحدث الا في دهور متطاولة ، وأزمنة متراخية ، تعرف بها الأوقات المحددة ، فلا غنى عنه في جميع الأحوال الدنيوية والدينية .

الأيام مكتوبـاً أو مطبوعاً على ورق ، أو مزبوراً على حجر وآجر وَبرْديّ ورقّ .

لا جرم أن موضوع الخطط موضوع جليل ، تتعين الإحاطة به على كل من يحب أن يعرف أرضه ليخدمها ، ويستفيد منها ، وأحق الناس بمعرفة بلد أهله وجيرانه . ومن لم يرزق حظاً من الاطلاع على ما حوى موطنه من الخيرات ، وما أتاه أجداده من الأعمال ، لا ينهض بما يجب عليه ليؤثر الأثر النافع في الحال والمآل ، ومَن أجدر من الأبناء والأحفاد، بالرجوع الى سجلات الآباء والأجداد ، وكيف يحب المرء بلداً لا يعرفه، ويحرص على سعادته ليسعد هو فيه ، وهو لا علم عنده بما تعاقب عليه حتى صار الى ما صار اليه ، وهل يُفهم الحاضر بغير الغابر ، وهل تنشأُ في الأمة روح وطنية إذا لم تدرس تاريخها حق الدراسة .

* * *

كتب الغربيون في آثار هذا القطر وعمرانه وتاريخه واقتصادياته وعادياته أحمالاً من الكتب بلغاتهم ، وقلما نشرت كتب جامعة لأحد أبنائنا بلغتنا وعلى نهجنا . واستنفض الغربيون كل بقعة من بقاعنا ، ومدينة من مدننا، وباديـة من بوادينا ، ومنهم من أجاد وأفاد ، مما يسجل ويا للأسف علمهم بنا ، وجهلنا حتى بأرضنا ، ويكفي أن يقال إن علماء الغرب وسياحهم صنفوا بين سنتي ١٨٠٥ — ١٩٠٣ م خمسة وتسعين كتاباً فقط في آثار سلع أو البتراء (وادي موسى) على حين قلّ جداً في الشاميين أنفسهم من زاروا هذه الخرائب المهمة ، ومنهم من لم يسمع باسمها .

أخذت مما ظفرت به من الكتب الافرنجية ، وعُنيت أشد العنايـة بالرجوع الى ما كتبه الأسلاف في هذا الشأن ، على تفرقه ، واعتمدت على مؤلفي العرب خاصة لأن كل أُمة أعرف على الغالب بحالتها من غيرها، فإن بحث علماء الافرنج في تاريخ هذا القطر قبل الإسلام ، ونبشوا عادياته ومصانعه ، وحلوا لغاتـه ولهجاته ، فتاريخه بعد هذا العهد أقرب الى أن يكون علماؤنا مرجعاً فيه ، فقد قيل « قتل أرضاً عالمها » .

جاء الكلام ناقصاً في بعض الأدوار المتأخرة ، وعُمي علـيّ بعض

مواضع مهمة ذات صلة بمدنية الشام ، والسبب فيه أن المتأخرين زهدوا في التاريخ حتى كادوا لا يفرقون بينه وبين أقاصيص العجائز ،وموضوعات المخرفين والوضاعين،وعنيت بتجريد هذا الكتاب ما أمكن من المبالغات ، ونخل لباب الوقائع المهمة الثابتة وحذف ما فيه شية شبهة ، أو شائبة غلو ، وإن كان منها ما يروق بعضهم ويتفكهون بسماعه ، ويطربون لترداده . فخاطبت ما استطعت العقل أكثر من العاطفة،وعُنيت في قسم التاريخ السياسي أن أبين علل الحوادث ، وتسلسل الكوائن ، ودواعي الأحوال القريبة أو البعيدة ، واستخراج النتائج واستنباط القواعد . والتاريخ ربيب الحرية لا يتصرف على هوى من يكتبه ويقرأوه ولا على أذواق أهل العصر وأهوائهم . وما دام موضوعه الاعتبار بالخالي لمعرفة الحالي والآتي فهو جدير بأن يتحرى فيه الحق ولا يدون سواه . قال أحد العلماء: عندما نريد أن نصل الى الحقائق التاريخية ، يجب أن تصح همتنا على إزالة الأوهام ، ونزع الزوان من الأساطير التي تعلق بالوقائع الثابتة القليلة التي وصلت الينا .

* * *

كان المؤرخون بعد القرون الوسطى بين عاملين قويين ، إما أن يكذبوا فيغضبوا الحق ، أو يصدقوا فيغضبوا الخلق ، والعمال والأعيان منهم خاصة . فقد ألف مثلاً ابن زوجة أبي عذيبة المقدسي المتوفى سنة ٨٥٦ تاريخين مطولاً ومختصراً ، ولما توفي اطلع بعضهم على الكبير منه ، فوجد فيه أشياء توهمها في ثلب أعراض الناس فأتلفه ، وصنف عبد الله البصروي من أهل القرن الثاني عشر تاريخاً لهذه الديار ، فبلغ أعيان دمشق خبره ، ولما هلك دخلوا داره وآلوا أن لا يأذنوا بدفنه أو يأخذوا التاريخ الذي وضعه ، فضبطوه وأحرقوه على أعين القوم، مخافة أن تنكشف سيئات بعضهم . والذي ضاع من مدونات المتقدمين والمتأخرين يعد بالعشرات ، لكثرة الجوائح الأرضية والسماوية التي أصابتها . وإذا كتب البقاءُ لشيءٍ مما كتبه المتأخرون فيكون في الغالب الى الركاكة لا تسقط فيه على حقيقة . وكثيراً ما كان العقلاءُ يعلقون على حواشي

بعض الكتب تعاليق لحوادث جرت ، وأمور اهتم لهـا الناس وشغلت مجتمعهم ، ومن مثل تلك الأوراق ومن العهود والصكوك ضم هذا السفر جانبـاً .

بحثت جد البحث عما دُوّن في التاريخ العام أو الخاص بتاريخ بلد من أرض الشام ، فرأيت يد الضياع قد غالتها إلا قليلاً ، وقد أهمني منهـا الاطلاع على تاريخ صفد للعثماني وتاريخ البرزالي وتاريخ حلب الكبير لابن العديم وتاريخها لابن أبي طي وتاريخ حمص لابن عيسى ولعبد الصمد بن سعيد وأخبار قضاة دمشق للذهبي وتاريخ ابن أبي الدم الحموي وتاريخ قنسرين وتاريخ أنطاكية وتاريخ المعرة لابن المهذب وتواريخ كثيرة في سير مشاهير الفاتحين كتبها أمثال ياقوت الحموي وابن شداد وابن واصل وابن حبيب وابن الدايـة وابن عبد الظاهر وابن تيمية والجبريني والعسقلاني ، فلم أظفر بسوى ورقات من بعضها ، أو مختصرات ومنقولات لا تبـل غلة ، حُرّفت بالنقل فتشوهت محاسنها .

* * *

ولقد وددت لما تيسر وضع خطط الشام على هذه الصورة لو ساغ لي أن أصبر عليه زمناً آخر حتى يتم التحقيق فيه على ما يجب عملاً بالحكمة التي تمثل بها الثعالبي في اليتيمة قال : « وكلما أعرته على الأيام بصري ، وأعدت فيه نظري ، تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب ، أن أول مـا يبدو من ضعف ابن آدم ، أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة ، إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه ، هذا في ليلة فكيف في سنين عديدة » . ولكن رأيت بعد طول التأمل أن من الحزم الاكتفاء بما تهيأ في هذه السنين ، والتمحيص بحر لا ساحل له ، ولطالما ذكرت وأنا أغوص في الكتب المختلفة التي طالعتها قول المؤرخ فوستيل دي كولانج ليس التاريخ من العلوم السهلة فلأجل يوم واحد يصرف في التركيب ينبغي قضاء أعوام طويلة في التحليل . على أني لما راجعت مسودات ما صنفت ورأيتني قد تذوقتها فهضمتها ، أيقنت أنه لا يثقل على القراء في الجملة، فأبرزته خائفاً حوادث الأيام ، ونزول داعي الحمام ، وأنا موقن بأن فوق

ما طالعت وبحثت غايات ، لم يمكني الزمان والمكان من بلوغها ، وعسى أن يقوم غيري بعدي فيتم هذه الخطوط التي رسمتها من بنيان كتاب الخطط ، ويصلح بما يتوفر له من المواد ما ربما وقعت فيه من الغلط والشطط ، واذا حصلت الفائدة من عمل استغرق جلب مادته خمساً وعشرين سنة ، وكلّف تعباً ونشباً ، فهو غاية ما أتطالُ اليه ، وإلا فهو جهد المقلّ ، والكمال لله وحده .

وكتب في دمشق في اليوم الرابع من شعبان من شهور سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف بعد الهجرة بموافقة شباط من شهور سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد .

تقويم الشام

تعريف الشام للأقدمين :

الشأْم والشأم والشام والشآم هو اسم هذا القطر العزيز على مـــا عرفته العرب ، وهو يتناول عامة الأقاليم الداخلة اليوم في فلسطين وسورية بحسب الاصطلاح الحديث . وسورية اسم غلب إطلاقــه على القطر الشامي على عهد الإسكندر مقتضباً مع تخفيفه من اسم أشوري لغلبـــة الأشوريين عليه والسين والشين تتعاوران في اللغات السامية . قال البكري : سُورية «بضم أوله وكسر الراء المهملة وتخفيف الياء أخت الواو وفتحها » اسم للشام . وقيل: إن سبب تسميته بسورية نسبة لصور ثغر الشام القديم ومخرج الصاد والسين واحد . وقال آخرون: إن اليونان لمـــا فتحوا الشام رأوا الأشوريين يتولون أمره فسموه أشورية . قال المسعودي : سورية هي الشام والجزيرة وكان الروم يسمون الصقع الذي سكانه المسلمون في عهده (٣٤٥ هـ) من الشام والعراق سوريا ، والفرس كانوا يسمون العراق والجزيرة والشام سورستان إضافة الى السريانيين الذين هم الكلدانيون وتسميهم العرب النَّبَط .

ويقال إن فلسطين[1] سميت بفلسطين بن سام او بفلسطين بن كلثوم ، او بفليستين بن كسلوخيم من بني يـــافث بن نوح ثم عربت فليشين . وجـوزوا في اسم الشام التذكير والتــأنيث والمشهور التـذكير . وللغويين

(١) قد ننقل عبارة المؤلفين برمتها او نحذف منها جملا او الفاظاً بحسب ما يقتضيه تأليف الكلام وبسطه او اقتضابه ولا نعزو عبارات المؤرخين التي نقلها غير واحد منهم على الأغلب ويكون العزو لما تفرد به مؤرخ او كان له ابتكاراً دون غيره من معاصريه وسابقيه .

والجغرافيين في سبب تسميته شاماً آراء مختلفة فقيل: سمي لتشاؤم بني كنعان اليه وقيل: بل سمي بسام بن نوح لأنه نزل به واسمه بالسريانية شام بشين معجمة . وقال بعضهم: إن سام بن نوح لم يدخل الشام قط وقيل: لأن أرضه أي أرض الشام مختلفة الألوان بالحمرة والسواد والبياض فسمي شاماً لذلك ، كما يسمى الخال في بدن الإنسان شامة ، وقيل: سمي شاماً لأنه عن شمال الكعبة . والشام لغة في الشمال ، وقيل: سميت الشام شاماً لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات وجوزوا فيه وجهين أحدهما أن يكون من اليد الشؤمى وهي اليسرى والثاني أن يكون فعلاً من الشؤم .

معنى الشام وجمعه :

واختصرت العرب من شامين الشام وغلب على الصقع كله (ياقوت) وهذا مثل فلسطين وقنسرين ونصيبين وحُوّارين وهو كثير في نواحي الشام . وذكروا أن معنى الشام الطيب ، ويقال للشام اللمّاعة واللهاعة بالركبان تلمع بهم اي تدعوهم اليها وتطبيهم ، وقد تجمع الشام على شامات وتسمى الشام بذلك ، ومن الناس من لا يجعله الا شاماً واحداً ، ومنهم من يجعله شامات فيجعل بلاد فلسطين والأرض المقدسة الى حد الأردن شاماً ، ويقولون الشام الأعلى ويجعل دمشق وأرجاءها من الأردن الى الجبال المعروفة بالطوال شاماً ويجعل سورية وهي حمص وما ضمت الى رحبة مالك شاماً ، ويجعلون حماة وشيزر من مضافاتها ويجعل قنسرين من إقليمها وحلب مما يدخل في هذا الحد الى جبال الروم والعواصم والثغور . فأما عكا وطرابلس وكل ما هو على ساحل البحر وكل ما قابل شيءٌ منه شيئاً من الشامات فيحسب منه .

وإطلاق الشام على دمشق من باب إطلاق العام على الخاص والعرب (نالينو) كثيراً ما يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها فكانوا يقولون بلا فرق دمشق او الشام – الفسطاط او القاهرة او مصر – شبام او

حضرموت – صحار أو عُمَان – الأندلس بدلاً من قرطبة – صقليّة عبارة عن بلرم .

حدُّ الشام قديماً :

وحدُّ الشام من الغرب البحر المتوسط أو بحر الروم أو بحر الملح أو بحر الشام،ومن الشرق البادية من أيلة الى الفرات . وأيلة مدينة قديمة على البحر الأحمر أو القُلزم وهي على مقربة من العقبة اليوم . ثم يذهب الحد من الفرات الى حد الروم أو آسيا الصغرى وشمالاً الى الروم وجنوباً حد مصر وتيه بني إسرائيل . وأوصلوا الحد من الغرب الى طرسوس قرب أذنة الى رفح في أول الجفار بين مصر والشام . وأوسع من هذا التعريف أنه يحيط بالشام من جهة الجنوب حد يمتد من رفح الى تيه بني إسرائيل الى ما بين الشوبك وأيلة الى البلقاء،ويحيط به من جهة الشرق حد يمتد من البلقاء الى مشاريق صرخد آخذاً على أطراف الغوطة الى سَلَمية الى مشاريق حلب الى بالس . ويحيط بـه من جهة الشمال حد يمتد مـن بالس مع الفرات الى قلعـة نجم الى البيرة الى قلعـة الروم الى سميساط الى حصن منصور الى بهسنى الى مرعش الى سيس الى طرسوس . وهذا الحد للعرب قال به كاتب جلبي في القرن الحادي عشر .

حقيقة حد الشام :

وبموجب الاتفاق الفرنسي التركي الأخير جعلت الحدود في قرية قطمة على طريق السكة البغدادية على أربعين كيلومتراً مـن حلب . ودخلت كليس في حدود الروم وليس هـذا هو الحد الجغرافي الطبيعي للشام من الشمال . بل حد الشام ينتهي بسفوح جبـال طوروس المعروفة بالدروب عند العرب آخذاً الى ما وراء خليج الإسكندرونة لجهـة أرض الروم وكان جبل السَّياح (بفتح السين وتشديد الياء) حداً بين الشام والروم ولا نعرف هذا الجبل بهذا الاسم اليوم . ويقول الإدريسي : ومن السويدية الى جبل رأس الخنزير عشرون ميلاً وعلى هذا الجبل دير كبير وهـو أول بلاد

الأرمن وآخر بلاد الشام . فما كان من جهة الشام على ضفة الفرات فهو شام، وما كان على الضفة الأخرى من الشرق فهو عراق . فصفّين مثلاً في الشام وقلعة جعبر في الجزيرة الفراتية وبينهما مقدار فرسخ او أقل وتدخل بالس أي مسكنة بالشام لانها من غرب الفرات وتدخل البيرة (بيره جك) في الجزيرة لأنها على الشق الآخر من الفرات . وما كان من دير الزور على الفرات الى جهة الشام فهو من الشام ، وما كان على الشاطىء الآخر الى الشرق فهو من العراق. وكذلك يقال في الرّقة . وتدخل دومة الجندل المعروفة اليوم بالجوف في الجنوب في جملة هذا القطر . كما أن أيلة هي آخر الحجاز وأول الشام . فالعريش او رفح او الزعقة هي حد الشام الجنوبي الغربي. ومعان نصفها للشام ونصفها للحجاز، فيقال معان الشامية ومعان الحجازية .

حدوده مع مصر :

وقد اتفقت الحكومتان العثمانية والمصرية سنة (١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م) على تعيين الحد بين مصر والشام من رأس طابا على الساحل الغربي لخليج العقبة ممتداً الى قمة جبل فورت ماراً على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا ، ثم من قمة جبل فورت يتجه الى الخط الفاصل الى نقطة المفرق على قمة جبل فتحي حيث ملتقى طريق غزة الى العقبة بطريق نخل الى العقبة . ومن هذه النقطة الى التل الذي الى الشرق من مكان ماء يعرف بثميلة الردادي والمطلة على الثميلة ، بحيث تبقى الثميلة غربي الخط . ومن هناك الى قمة رأس الردادي ثم الى رأس جبل الصفرة، ومنه الى رأس القمة الشرقية بجبل قم قف ثم الى سويلة شمالي الثميلة ، ومنها الى غرب الشمال الغربي من سماوة ومنها الى قمة التل الواقع الى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة في الفرع الشمالي من وددي ماين ، ومنها الى غربي جبل المقراة فالى رأس العين الى نقطة على جبل أم حواويط الى منتصف المسافة بين عمودين قائمين في الجنوب الغربي من بئر رفح ، ومنها الى نقطة على التلال الرملية في اتجاه ٢٨ درجة اي ٨٠ درجة الى الغرب وعلى

مسافة ٤٢٠ متراً في خط مستقيم من العمودين المذكورين ثم يمتد الخط مستقيماً من هذه النقطة باتجاه ٣٣,٤ درجة من الشمال المغنطيسي أعني ٢٦ درجة الى الغرب الى شاطىء البحر المتوسط ماراً بتل خرائب على ساحل البحر الأحمر . وتقرر في ايلول ١٩٢٠ أن تكون حدود حلب شمالاً التخوم الشمالية للواء الإسكندرونة والتخوم الشمالية للمنطقة الغربية القديمة آخر نقطة منها تلتقي بالخط الحديدي شرقي محطة هملن ، ثم خط الحديد وهو داخل التخوم حتى تل أبيض ، ثم خط يجمع ين تل أبيض والخابور شرقاً ونهر الخابور حتى مصبه في الفرات ، ثم نهر الفرات حتى البوكمال جنوباً وهو الخط المعروف بخط البوكمال الى تدمر ثم الى الحدود الغربية الشمالية . وهذا الحد موضوع غير طبيعي . ولعل هذا القطر لن يعدم حده الطبيعي من الشمال فإن الصخور التي تفصل الشام من الشمال عن آسيا الصغرى ليس لها مثيل في التخوم الطبيعية كما قال نابوليون . وجعل الجغرافي اليزه ركلو حد الشام من جبال أمانوس (اللكام) الى طورسينا وقال : إن طورسينا وإن ضم سياسياً الى مصر فهو جزء من أجزاء الشام . وقال بوليه : إن حد سورية شمالاً آسيا الصغرى . وقال بورتر : إن سورية أي سورية الرومانيين يحدها شمالاً آسيا الصغرى . وقال بيدكر : إن حد الشام من طوروس الى مصر . وبذلك رأينا أن الشام يحيط به من الجنوب رمال من الجفار وتيه بني إسرائيل وجزء من البحر الأحمر فالبادية . ومن الشمال جبال شامخة صعبة المسالك وهي جبل أمانوس أحد سلاسل جبال طوروس. ومن الشرق الفرات ومن الغرب البحر . اي رمال وجبال ونهر وبحر .

مساحة الشام وصورته :

قدر القدماء طول الشام من العريش الى الفرات بمسيرة نحو شهر وعرضه من جبلي طي أجإ وسلمى من القبلة الى بحر الروم نحو عشرين يوماً،وجبلا اجإ وسلمى جنوب الشراة وراء البتراء المعروفة عند الرومان باسم (بروفنسيا أرابيا أو أرابيا بترا — Provincia Arabia Arabia Petraea). وقال شيخ الربوة : حد الشام طولاً من ملطية الى العريش ومسافته سبعة

وعشرون يوماً ، وعرضه الأعرض من منبج الى طرسوس . وعدّ ياقوت من الشام الثغور وهي المصيصة وطرسوس وأذنة وجميع العواصم من مرعش والحدث وغير ذلك .

وقال علماء الافرنج : إن معدل طول الشام نحو ألف كيلومتر وعرضه نحو مائة وخمسين كيلومتراً ومساحته ١٨٣ ألف كيلومتر مربع وقال بعضهم: إن مساحته السطحية نحو ٢٨٠ الف كيلومتر ،وأبلغه غيرهم الى ثلثمائة ألف وأنزله آخر الى مائة وتسعة وخمسين الف كيلومتر ،وبالغ في تصغيره بعضهم فقال: إن مساحته مائة ألف كيلومتر مربع فقط،ومنهم من قال مئة وخمسة عشر . وقال آخر : إن طوله ينيف على أربعمائـــة ميل وعرضه يختلف كثيراً ومعدله نحو مئة وعشرين ميلاً . ومساحة الشام خمسون ألف ميـــل مربع . وذكر آخر أن طـــول الشام المتوسط من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر وعرضه من الغرب الى الشرق نحو أربعمائة وخمسين كيلومتراً. وأكد بعضهم أن طوله من طوروس الى طورسينا لا يقل عن الف ومئة كيلومتر ، وقال غير واحد : إنه لا يقل عن ٨٠٠ الى ٩٠٠ هـــذا إذا تركت منه البادية ولم يحسب غير الأراضي القابلة للزرع . وقدرت الأرض القابلة للزراعة في الشام بمئة وخمسين ألف كيلومتر مربع . والاختلاف في حـد الشام ومساحته بين علماء الجغرافية المحدثين أكثر مما بين علماء تقويم البلدان من العرب الأقدمين . وقـــد شبّه بعضهم الشام في هيئته الطبيعة بشكل مستطيل طوله ثمانية أضعاف عرضه . وشبهه آخر بأنه شكل مربع الأضلاع مستطيل كثيراً .

مدخل الفاتحين الى الشام :

جاء الفاتحون الشام بحراً وبراً بل جاءوها من جهاتها الأربع فجاءهـــا الفراعنة من البحر والبر ، والبابليون والفرس من الشرق والشمال،والاسكندر والصليبيون والعثمانيون من الشمال ، وغازان وهولاكو وتيمورلنك مـــن الشرق ، والعرب الفاتحون من الشرق والجنوب ، ونابوليون من الجنوب ومن الغرب بحراً ، وإبراهيم باشا المصري براً وبحراً اي من الغرب والجنوب

الغربي ، وجيوش الحلفاء من الانكليز والفرنسيين والعرب من الجنوب والغرب . وكانت على اعتزالها وراء حدودها الطبيعية مطمح الطامحين ، وطعمة الطامعين ، لم تدفع عنها حصونها التي فصلتها عن الحجاز بصحار مقفرة ، وحرار معطشة ، وعن العراق بنهر عظيم وبادية قاحلة ، وعن آسيا الصغرى بجبال عالية ، وعن مصر وعن برّ إفريقية برمال محرقة . وداست تربتها الجميلة سنابك خيل الفاتحين ، وعبثت بجميل محياها سهام النوائب، وأوردتها موارد العذاب الهون،ولم تأمن عادية العادين،على ما فيها من الجبال الشم ، ومضايق تضل فيها العُصم .

مدن الشام وقراه :

في الشام مدن كثيرة منها ما دثر وانحط بعد أن كان له شأن مهم في الأزمان الغابرة ، مثل قيسارية والمعرة وأنطاكية وقنسرين وأفامية وجرش والبتراء وبصرى وصيدا وصور وتدمر وبعلبك وجبيل وسبسطية وأم قيس وصرخد والسويداء وشهبة وعرقا وعمّان وبانياس في الحولة وعسقلان،ومنها ما ثبت على صدمات الأيام والليالي وكان له من موقعه وملاءمة الطبيعة له ما أبقى عليه ، كأن يكون وسط ريف خصيب ، وماء دافق ، كدمشق وحمص وحماة وطرابلس . ودمشق أهم مدن الشام وعاصمته في الإسلام وعلى عهد السريان ، وكانت أنطاكية عاصمته على عهد الروم والرومان . وتجيء بالعظم بعد دمشق مدينة حلب ثم بيروت ثم القدس وسكان دمشق نحو أربعمائة الف ، ومثلهم سكان حلب ، وبيروت نحو ثلاثمائة الف ، والقدس أقل من ذلك . وفي الشام عدة مدن تزيد على خمسين الف نسمة ، مثل يافا وحيفا وحماة وحمص ودير الزور ، وفيها عدة مدن تختلف بين العشرين والأربعين الف نسمة ، مثل اللاذقية . غزة . صفد . زحلة . صيدا . إدلب . أنطاكية . وعشرات من القرى هي أشبه بمدن او مدن أشبه بقرى تكون نفوسها بين العشرة آلاف والعشرين الفاً مثل صيدا والخليل والرملة واللدّ والناصرة وطبرية والدامور وبعلبك وحاصبيا وراشيا والصلت ودومة وداريا وجوبر ويبرود ودير عطية وحارم وإدلب وسَلَمية والشويفات

وبشرّي وإهدن والبترون وغيرها . ولا تقل قرى الشام عن ثمانية آلاف قرية ومزرعة وبليدة ومدينة وسكانها نحو سبعة ملايين يدخل فيهم العرب الرحالة ويقدرون بخمسمائة الى ستمائة ألف .

طبيعة الشام :

قطر تأخذ فيه الفصول الأربعة حكمها ، وتتم في قيعانه وجباله أسباب النعيم ، معتدل الأهوية ، متهاطل الأمطار والثلوج ، ممرع التربة ، فيه الغابات والمعادن ، والحمامات المعدنية والأنهار الجارية ، والبحيرات النافعة، والأجواء البهجة ، والرباع المنبسطة ، والمناظر المدهشة ، فيه من الجبال الشراة والخليل وعامل وسنير وحرمون ولبنان وكسروان وحوران وجرش وعجلون وعكار واللكام والأقرع والكلبية والأكراد والقدموس وباير والمنيطرة وصنين والكنيسة والباروك ونيحا والريحان وطابور والجرمق والكرمل وبلودان والنبك والصلت ومؤاب وأنطاكية والقصير وريحا . ومن البحيرات العمق والغاب وأفامية والمطخ واليَمُّونة والعُتيبة والهيجانة وطبرية والحولة ولوط . ومن السهول سهل حوران والجولان والجيدور والغوطة والمرج والبقاع والبقيعة وحمص وأنطاكية واللاذقية وطرابلس والشويفات وصيدا وصور والطنطورة وبيسان وأريحا . ومن المروج مرج ابن عامر وشارون (سارون) والبلقاء. ومن الأنهار النهر الكبير والأردن واليرموك والعاصي والفرات وقويق والساجور وعفرين والأسود وبردى والبارد وابراهيم وقاديشا والليطاني والحاصباني والزرقا والعوجا والأعوج والأولي والزهراني والكلب والموجب والدامور والذهب وقنديل وصنوبر وقرشيش وبرغل والمضيق والسن أو الأبتر وحريصون او مرقبة والجوز والكابري ونعمين والمقطع والأزرق والأخضر وأبي زابورة . ومن المناظر البديعة صنين وظهر القضيب وإهدن والبياضة وإصطبل عنتر والصبر والنبي يوشع وقاسيون وحرمون والطور والهرمل والكرمل .

خيرات الشام :

وفيه تنبت الحبوب والبقول والأشجار على اختلاف أنواعها . ففي

جنوبيه وشرقيه النخيل . وفي سواحله الموز والبرتقال . وفي أواسطه السرو والأرز . ويجود فيه القطن والقنب والكتان والحرير والنيل والدخان وقصب السكر والعسل وشجر الأرز والفـوّة والسماق والسوس . وتصلح مراعيه لتربية ضروب الماشية . وفي أرضه ومياهه أنواع الطيور والأسماك وتعيش فيه الجمال كما تعيش البغال وتسمن فيه الجواميس كما ينمو الغنم والمعزى فيه زهاء مئة وثلاثين منجماً لم يستثمر منها إلا القير والفوسفات والحمر ، عـلى أن فيه الذهب والفضة والنكل والحديد والفحم الحجري والرصاص والمغرة والنحاس والكروم والزئبق والكبريت والسنباذج والجبس والنفط والإثمد والزاج والمرمر . ومن الحمامات المعدنية حمام طبرية وحمّة سمخ وحمة أبـي رباح وحمة ضمير وحمة معلولا وحمة أنطاكية والمرقب وزرقاء معين وعجلون ولها كلها من الخواص الصحية ما اشتهر أمره .

هواء الشام وماؤه :

صقع حوى غرائب الطبيعة تشهد فيه برداً قارساً بـل شتاءً مستوفى في قنن جباله وسفوحه في حين تشهد في أغواره كغور بيْسان وغور الصافي وطبرية وأريحـا ربيعاً تاماً بل صيفاً معتدلاً ، وبينا تذيب شمس الصفاة واللجاة رأس قاصدهما ، إذا به في ريح بليل عليل اذا قصد الجبال وما اليها . فهو مصطاف ومرتبع ومشتى في آن واحد . وفيه ما لا يكاد يوجد له مثيل في الأرض : بحيرة طبرية تحت سطح البحر على ١٣١٦ قدمـاً وفيها أسماك كثيرة ، وبحيرة لوط لا يعيش فيها حيوان فكأن نهر الأردن الذي يجري من بحيرة طبرية وينتهي ببحيرة لوط هو في أوله حياة وفي آخره موت ، وهذا لا نظير له في العالم .

ومن عجائب طبيعة الشام إن تنبجس في بعض أصقاعـه عيون طيبة ثرّة في بقعة ضيقة . ففي الجديدة على مقربة من الحولـة عشرات من العيون على هضبة سميت بها البلدة « مرج عيون » وفي جبل ريحـا من عمل حلب عيون لطيفة دارّة في الأعالي تكاد تخلو منها السهول المنخفضة المجاورة . ومياه الشام على الجملة طيبة لذيذة .

خصائص الشام :

قطر هذه مواهبه قامت فيه في الأزمان الغابرة النصرانيـــة واليهودية . وانبعث من أرجائه مجد الإسلام ، فكان مباءة أول دولة عربية إسلامية ، ثم آوى اليه الشيع الغريبة من النحل والمذاهب التي لا مثيل لها في غيره ، كالدرزيـة والإسماعيلية والنصيريـــة والسامرة بل معظم المذاهب الإسلامية والنصرانية والإسرائيلية وتبلغ سبعة عشر مذهباً وجملة من العناصر القوية ذات المدنية التي استحالت عرباً .

رأى الشام طلعة موسى وعيسى من النبيين ، والإسكندر وابن الخطاب وخالد بن الوليد وموسى بن نصير ونور الدين وصـــلاح الدين وسليم وابراهيم من الفـــاتحين . وعمر بن عبد العزيز والمأمون وابن تيميـة من المجددين . وبختنصر وهولاكو وجنكيز وغازان وتيمور مـــن المخربين ، وقلَّ في الممالك كما قال كورتيوس ما اندمج فيـــه كثير من التواريخ في بقعة ضيقة كهذه .

الشام مهوى أفئدة الشعوب النصرانية واليهودية ، ومجاز حجاج المسلمين الى الأماكن الطاهرة القدسية والحجازية، بل نقطة الاتصال القريبة بين آسيا وافريقيا وآسيا وأوربا ، بل بين القارات الثلاث القديمة آسيا وأوربا وإفريقية، وأجمل مصيف ومشتى للأقطار الحارة المجاورة كالحجاز والعراق ومصر . والشام في أواسط الأقطار التي يتكلم أهلها بالعربية هو بلد الخيال والشعر ، والهمم العلياء واستقلال الفكر ، وأرضه أبداً باسمة طربة كسمائه :

مصحـة أبدانٍ ونزهـــة أعينٍ ولهـو نفوسٍ دائمٌ وسرورهـــا
مقدسة جـــادَ الربيع بلادهـــاً ففي كل أرضٍ روضةٌ وغديرها

سكان الشام

الامو واللودانو :

من الصعب الحكم على أصول السكان في الشام قبل أن يُعرف التاريخ ، وتعيين أول من نزلهـا من القبائل قبل أن تبنى المدن والحواضر وتعرف المزارع والدساكر . وأقدم ما عرف منها قبائل كانت تعرف بالامو ورد ذكرها في الآثار المصرية ومعناها الشعب باللغة الساميــة اختلطت على ما يظهر بذرية لاوذ ، او بغيرها من القبائل التي كانت تسكن شمالي الشام، وسمي هذا القبيل بالروتانو او اللودانو ، ويقسمون الى روتان المغرب ويراد بهم سكان دمشق وأرض كنعان ، والى روتان المشرق او الأعلى وهؤلاء كانوا ينزلون في شمالي الشام وجزء من غربـي ما بين النهرين ولعل ذلك كان قبل الطوفان ، طوفان نوح او بعده بقليل . وقد حدث الطوفــان قبل المسيح بنحو الفين وخمسمائــة سنة ، ولم يعم الكرة الأرضية ولا براً من بُرورها المعروفة ، بل انحصر في بقعة صغيرة مــن آسيا على الأرجح أي إنه كان في الجزيرة على ما ذكره أهل الإدراك من المفسرين .

وظهرت بعد الطوفان أمم كثيرة سكنت الشام ، بعضها من أصل سامي وبعضها لم يعرف عنه شيء ، ومنها ما عرف أنه أتى من الأصقاع المجاورة ومنهـا من لم يثبت أصله . فقد ظهر بعد الطوفــان الآراميون في دمشق والجيدور والجولان والبقاع وحمص ولبنان ، وآرام هو الاسم الذي أطلقته

التوراة على الشام وبين النهرين ، وكان يسكنها أبناءُ آرام الابن الخامس لسام . وأقام الأموريون في الأرض الواقعة بين البحر والأردن ، والعمونيون في أرض جلعاد اي في شرقي الأردن ، والموآبيون في الجنوب الشرقي من بحيرة لوط ، والإسماعيليون من نسل إسماعيل جد العرب في سلع والبتراء وما جاورها . وانتشر الأدوميون من وادي العربة الى حدود العقبة عقبة أيلة والفينيقيون في صور وصيدا وجبيل ، وتفرعت من هذه القبائل فروع كثيرة في قرون مختلفة . ولا تعرف أصول أكثر هذه القبائل . وقد قال رولنسون: إن أصل الفينيقيين من سكان البحرين في الخليج الفارسي ظعنوا من هناك الى ساحل الشام منذ نحو خمسة آلاف سنة وأنهم عرب بأصولهم وأن هناك مدناً فينيقية أسماؤها أسماء فينيقية مثل صور وجبيل . وذكر مكالستر أنه سكنت فلسطين شعوب من غير الساميين وربما عنى بهم الحثيين والأموريين . والحثيون جنوبيون وشماليون وكان الجنوبيون في جهات فلسطين ونزل الشماليون أولاً جبل اللكام (امانوس) ثم انتشروا بكرور الأيام من الفرات الى حماة وحمص ومن دمشق وتدمر الى كبدوكيا ، ولم يكن لهم ملك واحد بل كان لكل فصيلة منهم ملك . ولم يعرف شيء عن الحثيين الشماليين قبل أن يمرّ الرحالة بروكهارت بحماة سنة ١٨١٢ ويرى على جدار أزقتها خطوطاً قديمة بالخط المسند المصري أي الهيروغليفي تختلف عن الآثار المصرية وعثر على كثير من مثل هذه الآثار في حماة وحمص وحلب ومرعش وكركميش وغيرها ، وقد علم من سحنات الحثيين الشماليين على ما رسموا في الآثار المصرية أنهم أقرب الي الرومان منهم الى سكان فلسطين ولون وجوههم أبيض ضارب الى الحمرة .

ومن أقدم شعوب الشام شعب كان ينزل منذ الزمن الأطول في السقي الأسفل من نهري الفرات وقزل ايرمق ويعتصم في مضايق جبال طوروس، عُرف عند اليونان باسم خيطايوس وعند العبران بخطي خطيم وعند الأشوريين بخاطي وعند المصريين بخايطي خاطي وعرفه المتأخرون بالحثيين ، وهو شعب غير سامي مجهول اللسان . وأصل العبرانيين او اليهود سبط من الساميين الذين نزلوا من جبال إرمينية الى سهول الفرات على عهد مملكة الكلدان

الأولى وضربوا نحو الغرب فجازوا الفرات فالبادية فالشام حتى انتهوا الى عبر الأردن وراء فينيقية . وتعرف هـذه الأسباط بالعبرانيين يعني أهل ما وراء النهر . قال هشام الكلبي : ما أخذ على غربي الفرات الى برية العرب يسمى العبر واليه ينسب العبريون من اليهود لأنهم لم يكونوا عبروا الفرات حينئذ . والعبرانيون كمعظم الساميين شعب من الرعاة الرحالة لم يحرثوا الأرض ، ولا سكنوا الدور والمنازل ، وقد دعيت ديارهم أرض الميعاد او أرض كنعان او فلسطين . ودعاهـا اليهود أرض إسرائيل ثم دعيت بعدُ اليهودية ودعاها أهل النصرانيـة الأرض المقدسة، وكان عدد الإسرائيليين أيام عزهم ٦٠١,٧٠٠ رجل يحمل السلاح منقسمين الى اثني عشر سبطاً .

الآراميون والعناصر الأخرى :

وبعد انقراض دولة الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد عَمَّ اسم آرام هذه الديار فأصبح القسم الأكبر من سورية يسمى آراماً وسكانها الآراميين وقد ورد اسم آرام في التوراة مضافاً عدة مرات مثل آرام رحوب وآرام معكة وآرام صوبا . وقيل إن إرَم الواردة في القرآن مضافـة أيضاً « إرم ذات العماد » هي دمشق بعينها . وللمفسرين في ذلك أقوال كثيرة ليس هذا محل إيرادها . وفي الشام عناصر منوعة من نسل حام بن نوح وسام بن نوح ويـافث بن نوح . أي إن فيهـا الدم الآري والقـافي (القافقاسي) والعربي والتركي وبعبارة أصرح فيها بقايا من الشعب الأشوري والبابلي والكلداني والكنعاني والفينيقي والعبراني والحثي والفارسي والروماني واليوناني والتتري والعربي . وكانت منـذ عهد بني إسرائيل موطن العصبيات وفيها على رأي ابن خلدون قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة واكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في العصبية ، ولذلك يتعذر ردُّ كل جنس الى جنسه اليوم بعد هذا التمازج الذي دام أكثر من

ستين قرناً في هذه البوتقة الجميلة مضافة الى الأصول التي كانت فيها من قبل ونعني بهذه البوتقة الديار الشامية .

العناصر القديمة والعرب :

كل أمة عظيمة عرفت في الشام طال عمرها بضعة قرون ثم فنيت في غيرها وأدغم الضعيف في القوي وتمثل المغلوب في الغالب مع توالي الأيام والليالي . وهكذا يقال في السريان والعبران واليونان والرومان . ويمكن أن يقال في الجملة إنه كان في الشام منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد شعوب كثيرة أهمهم الكنعانيون النازلون في الجنوب والوسط والشمال والآراميون ، وما وراء ذلك من الشمال يسكنه الحثيون . ولم تطل حياة عنصر في صحة بالشام كما طالت حياة العرب فإنهم فيها على أصح الأقوال منذ زهاء الفين وخمسمائة سنة وأوصله بعضهم الى نحو أربعة آلاف سنة ، وهم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لساناً ومنزعاً . ولذلك كان من المعقول أن يدلّ الشامي بعربيته أكثر من إدلاله بفينيقيته وروميته وسريانيته وعبرانيته . وفي تاريخ فلسطين أن العرب دخلوا فلسطين قبل الإسلام بقرون . والدليل أن نرحم سين ابن سرجون غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق.م. وصادف في سينا حكومة عربية ثم حارب قبيلة معان العربية وأسر أميرها ، وقد ظهر من آثار بابل ما يثبت ذلك . ومنها أن سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين اعتدوا على السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود ومَدْيَن ومساكنهم شرقي الأردن وحارب عباديد وأخذ منهم طائفة وأسكنها في السامرة . ولما جاء الإسكندر الى غزة وحاصرها كانت حاميتها عرباً فقاومته أشد مقاومة ، ومنها أن أحد تلامذة المسيح بشر بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد في أعمال الرسل ، ومنها أن الحارث حاكم دمشق كان عربياً لما دخلها بولس الرسول كما ورد في رسالته الى اهل مدينة كورنثوس ، ومنها أن تيطس لما جاء لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية ، ومنها أن هركانوس المكابي التجأ الى الحارث ملك العرب فأنجده وساعده على أخيه

ارستوبولس ، ومنها أن فيلبس الروماني الذي صار امبراطوراً في رومية سنة ٢٤٤ ب. م كان عربياً من بُصرى في حوران .

والغـالب أن في العرب خاصية التمثيل إذا جاوروا شعباً قربوه من مناحيهم وأدخلوا عليه لغتهم ، وهم المادة العظمى التي ما زالت تفيض على الشام . وأهل الوبر والمدر أو البادية والحضر منهم ، من أصبر الأمم على الحروب والأسفار الطويلة والاكتفاء بميسور العيش ، لكنهم لا يصبرون على الضيم والأذى . ولطالما غزوا من جزيرتهم العراق وفارس والجزيرة والشام ، ولم يسمع أن حكمتهم أمة وقد تمكنوا كما قال جويدي من غزو الأعداء ، ولهم المفازة التي بينهم وبين العراق والشام اي باديـة الشام والنفود، ومن هجم عليهم في ديارهم لم تدم سلطنته عليهم كملوك الأثوريين او رجع بالخيبة والافتضاح كغالوس .

دول العرب الأقدمين :

كانت العرب تختلف الى الشام قبل الإسلام بقرون طويلة ، قامت لهم فيها وفي جوارها دول عظيمة خلفت من آثارها ما دلّ على عظمتها، فمنها دولة النبط ويغلب في أسماء ملوك النبطيين اسم الحارث وعبادة ومالك وهم عرب من بقايا العمالقة ، والعمالقة قوم من عاد وهم القـوم الجبارون في الشام . ولم تخلف البتراء غير تدمر وأصل ملوكها من سلالة عربية أيضاً. وقد أبقت هاتان الدولتان من أصولها وحاميتها جنداً كثيراً أصبحوا بعدُ من جملة سكان الشام والمادة الأولى للعربية فيه . قال نالينو : النبط أو النبيط في اصطلاح العرب في القرون الأولى للهجرة اسم أهل الحضر المتكلمين باللغات الآرامية الساكنين في الشام وخصوصاً في الصقع الواقع مـا بين النهرين، وليسوا النبط أو الأنباط الذين اتسعت مملكتهم في أرض الحجاز الشمالية الى حدود فلسطين ونواحي دمشق .

سليح وغسان والضجاعم :

وقد ذكر المؤرخون أن نزول العرب في ديار الشام أقـدم من ذلك

بقرون فإن تكلت فلاسر أحد ملوك أشور غزا الشام مراراً من سنة ٧٤٣ الى ٧٣٢ ق. م. وأخضع في خـــلال ذلك السامرة ودمشق وصور وحماة وعرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت عليهم يومئذ ملكة اسمها حبيبة . وقيل: إن أول من دخل الشام من العرب سليح وهو من غسان — وغسان ماء نزل عليه قوم من الأزد بين رِمَع وزبيد في اليمن فنسبوا اليه — ويقال من قضاعة فدانت بالنصرانية وملّك عليها ملك الروم رجلاً منهم يقال له النعمان بن عمرو بن مالك فلما خرج عمرو بن عامر مزيقيا من اليمن في ولده وقرابته ومن تبعه من الأزد أتوا أرض عك في اليمن ثم أرض الحجاز وصار منهم قـوم الى الشام، منهم آل جفنة ملوك الشام فكتب سليح الى قيصر يستأذنه في إنزالهم فأذن لهم على شروط شرطها عليهم .

وبنو غسان في الحقيقة حي من الأزد على رواية المسعودي من القحطانية قال أبو عبيد: وهم بنو جفنة والحارث وهو ثعلبة والعنقاء وحارثة ومالك وكعب وخارجة وعون بن عمرو بن مزيقيا . وذكر الحمداني أن في البلقاء طائفة منهم وباليرموك الجم الغفير وبحمص منهم جماعة . وحـــكم ملوك غسان حوران والبلقاء والغوطة وحمص ودمشق . قال المسعودي : وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما بين غوطة دمشق وأعمالها ، ومنهم من نزل الأردن وقـــد أخرجت غسان من الشام سليحاً وصاروا ملوكها ، وأول من ملك جفنة بن عمرو فقتل ملوك قضاعـــة من سَليح الذين كانوا يدعون الضجاعمة أو الضجاعم ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وجميع ملوك جفنة من آل غسان اثنان وثلثون ملكاً لبثوا في ملكهم ستمائة وست عشرة سنة وقيل أربعمائة سنة .

التنوخيون :

هذا في الجنوب أما في الشمال فقد نزل التنوخيون قبل الإسلام بقرون، وسموا تنوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام ، والتتنخ والتنوخ المقام ، كانوا قبائل تتاخم منازلها مملكة الروم، فلما غزا ملك الفرس الروم، وأذرع فيهم القتل والسبي وخرب العمائر ، أنفذ ملك الروم الى تنوخ يستنجدهم

عـلى ملك الفرس فأنجدوه ، وقاتلوا معه قتالاً شديداً ، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم لتظهر له طاعتهم وغناؤهم فأجابهم الى ذلك فقاتلوا الفرس وظفروا بهم ، فأُعجب بهم ملك الروم وفرق فيهم الدنانير والثياب وقرّبهم وأدناهم وأقطعهم سورية ومـا جاورها من الأصقاع الى الجزيرة . وسورية مدينة بقرب الأحصّ عـلى جانب البرية . قال ابن العديم: هذا منتهى أمرهم في الجاهلية .

ولم يعرف الزمن الذي كان فيه التنوخيون ، وبعضهم يقول: إنهم كانوا في أواخر القرن الثالث للمسيح ويقول المسعودي: إن قضاعة بن مالك بن حمير أول مـن نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم فملّكوهم ، بعد أن دخلوا في دين النصرانية ، على من حوى الشام من العرب ، فكان أول ملوك تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك ، ثم ملك بعـده عمرو بن النعمان ابن عمرو ، ثم ملك بعده الحواري بن النعمان ولم يملك من تنوخ غيرهم. ثم وردت سليح الشام فتغلبت على تنوخ وتنصرت فملّكتها الروم على العرب الذين بالشام . قال: وغلبت غسان على من بالشام من العرب فملكها الروم على العرب وإن من ملكته الروم من اليمن بالشام تنوخ والضجاعم مـن سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وغسان استكفاءً بهـم من يليهم من بادية العرب .

المهاجرات والايطوريون :

والغالب أن معظم مهاجرات العرب الى الشام كانت تقع عقيب حوادث طبيعية في أرضهم من جفاف وطوفان وجدب وموتان ، فيستهويهم بخصبه، وينتجعون هناءة العيش في أرجائه . وفي الأغاني لما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب قام رائدهم فقال : من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والأمر والتأمير ، والديباج والحرير ، فليلحق ببصرى والحفير ، وهي من أرض الشام فكان الذين سكنوه غسان .

ومن الدول العربية التي اشتهرت زمن دخول الرومان الى سورية دولة الإيطوريين ومعنى الإيطوريين بالعبرية الجبليون ، وهم شعب عربـي جاءوا

مـــن ايتورة اي الجيدور شمالي حوران واشتهروا برمي النشاب فاستولوا بمضائهم الحربي على جبل الشيخ (حرمون) والبقاع الى فينيقية، وبعض أسماء الجنود الجيدوريين التي جاءت في الكتابات اللاتينية باللغة الآرامية وبعضها باللغة العربية . قال دوسو : لم تكن هجرة العرب الى سورية مما ينسب لإدارة الرومان كما يظن بعضهم بل إن الأحوال قد سهلت طرقها في ذاك العصر وضمنت لهـــم رسوخ قدمها في ظل السلام . فقد كانت مدينة حمص في يد حكومة عربية قبل وصول القائد بونبيوس الى سوريـة وأن الأقيال الذين تولوا أمر تلك الديار لتطلق عليهم ألقاب عربية صرفة، كما يفهم من آثار الصفا . ولما جاء الإسكندر الى الشام كان العرب يحتلون لبنان .

سليح وعاملة وقضاعة :

وممن يجب عدهم في المهاجرة الأُول من العرب الى الشام سليح الذين أشرنا اليهم آنفـاً فقد قال البكري : سارت سليح بن عمرو بن الحاف ابن قضاعة يقودها الحدْرجان بن سلمة حتى نزلوا ناحية فلسطين على بني أذينة بن السَّمَيْدَع من عاملة وانتشر سائر قبائل قضاعة في القطر ، يطلبون المتسع في المعاش ويؤمون الأرياف والعمران ، فوجدوا بلاداً واسعة خالية في أطراف الشام قد خرب أكثرها ، واندفنت آبارها ، وغارت مياهها، لإخراب بُختنَصّر لها ، فافترقت قضاعة فرقاً أربعاً ينضم الى الفرقـــة طوائف من غيرها يتبع الرجلَ أصهاره وأخواله فسار ضجعم ابن حماطة ولبيد بن الحدْرجـان السليحي في جماعة من سليح وقبائل من قضاعـة الى أطراف الشام ومشارفهـا وملك العرب يومئذ ظرب بن حسان بن أذينة ابن السَّمَيْدَع بن هزبر العمليقي فانضموا اليه وصاروا معه فأنزلهم مناظر الشام بين البلقاء الى حوارين الى الزيتون (جبال فلسطين) فـلم يزل ملوك العماليق يغزون معهم المغازي ويصيبون المغانم حتى صـاروا مع الزباء بنت عمرو بن الظرب اللخمي واستولوا على الملك بعدها وظلوا ملوكـاً حتى غلبتهم غسان على الملك، قال بعض آل سعد بن ملكيكرب يذكر منازل

من خرج من اليمن وقد ذكر غسان وقضاعة وكلباً :

وغسان حيٌّ عزهم في سيوفهم كرام المساعي قد حووا أرض قيصر
وقد نزلت منا قضاعة منزلاً بعيداً فأمست في بلاد الصنوبر
وكلب لها ما بين رملة عالج الى الحَرَّة الرجلاء من أرض تدمر

وعالج رمال معروفة في البادية ، والحرة الرّجلاء في ديار بني القين في أطراف الشام بين حوران وتيماء ، والشاعر يقول إنها من أرض تدمر. وفي تاريخ الأمم الاسلامية : « إن الضجاعمة ملوك اصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث وليكونوا عدة على الفرس وولوا منهم ملكاً ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة » .

لخم ، جذام ، عاملة ، ذبيان ، كلب :

ذكر الهمداني مساكن من تشاءم من العرب أي دخل الشام فقال أما مساكن لخم فهي متفرقة وأكثرها بين الرملة ومصر في الجفار ومنها في الجولان ومنها في حوران والبَثَنيّة ، ومدينة نوَى ، وبها خلف بن جبلة القصيري وابن عُزير اللخمي مسكنه طرف جبال الشَّراة،وأما جذام فهي بين مَدْيَن الى تبوك فالى أذْرُح ومنها فخذ مما يلي طبرية من أرض الأردن الى اللجون واليامون الى ناحية عكا،وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية الى نحو البحر،وأما ذبيان فهي من حد البياض بياض قرقرة — والقرقرة الأرض الملساء — وهو غائط — والغائط كالغوطة المطمئن من الأرض — بين تيماء وحوران لا يخالطهم إلا طيٌّ وحاضرهم السواد ومرو والحيانيات — والحيانية كورة بالسواد من أرض دمشق وهي كورة جبل جرش قرب الغَوْر — وأما كلب فساكنها السماوة — والسماوة الأرض المستوية لا حجر بها وهي البادية بين الكوفة والشام — ولا يخالط بطونها في السماوة أحد . ومن كلب بأرض الغوطة عامر بن الحصين بن عليم وابن رباب المعقلي ومن بني الحارث بن كعب بيت يسكنون بالفَلْجَة من أرض دمشق — والفلجات في شعر حسان بالشام كالمشارف والمزالف بالعراق، والمشارف جمع مشرف قرى قرب حوران منها بصرى .

جهينة ، القين ، بهراء ، تنوخ :

ثم للخم ومن يخالطها من كنانة ما حول الرملة الى نابلس ولهم ايضاً ماجاز تبوك الى زُغَر – قرية بمشارف الشام – ثم البحيرة الميتة . وللخم أيضاً الجولان وما يليها من الأرجاء نوى والبَثَنيّة وشقص من أرض حوران، ويخالطهم في هذه المواضع جهينة وذبيان ومن القين وعن أيسر جبال الشراة مدائن قوم لوط قال : وفي الحيانيات وما يليها ديار القين حيث كانت بقية من جديس إخوة طسم،فإذا جزت جبل عاملة تريد قصد دمشق وحمص وما يليها فهي ديار غسان من آل جفنة وغيرهم ، فإن تياسرت من حمص عن البحر الكبير وهو بحر الروم وقعت في أرض بهراء ، ثم من أيسرهم مما يصل البحر تنوخ وهي ديار الفُضَيْض سادة تنوخ ومعكودهم (المقيم الملازم)،ومنها اللاذقية على شاطىء البحر ثم تقع في نصارى وغير ذلك الى حد الفرات ، وما وقع في ديار كلب من القرى تَدمر وسَلَمْيَةَ والعاصمية وحمص وهي حميرية ، وخلفها مما يلي العراق حماة وشَيزَر وكفر طاب لكنانة من كلب .

إياد وطيء وكندة وحمير وعذرة وزبيد وهمدان ويحصب وقيس :

يؤخذ مما قاله اليعقوبي أن أهل حماة قوم من يمن والأغلب عليهم بهراء وتنوخ وَصورّان – كورة بحمص – وبها قوم من إياد ، وأهل حمص جميعاً يمن من طيء وكندة وحمير وكلب وهمدان وغيرهم من البطون ، وأهل التمة من أقاليم حمص كلب ، وأهل سَلَمْية من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي ومواليهم وأهل تدمر كلب ، وتلمنس مساكن إياد (وتل مَنّس حصن قرب المعرة)، ومعرة النعمان أهلها تنوخ وأهل البارة بهراء وفامية عذرة وبهراء،وأهل مدينة شيزر قوم من كندة ومدينة كفر طاب والأطميم ، وهي مدينة قديمة وأهلها قوم من يمن ، من سائر البطون وأكثرهم كندة وأهل اللاذقيــة قوم من يمن من سليح وزُبيد وهَمْدان ويحصب وغيرهم ، وأهل مدينة جَبَلة هَمْدان ، وبها قوم

من قيس ومن إياد، ومدينة بانياس وأهلها أخلاط، وأهل مدينة انطرطوس قوم من كندة .

قال: وكانت دمشق منازل ملوك غسان والأغلب على أهلها أهل اليمن وبها قوم من قيس ، وأهل الغوطة غسان وبطون من قيس وبها جماعة من قريش ، وجبال ومدينتها عرنَدَل – قريـة من أرض الشَّراة – وأهلها قوم من غسان ومن بَلقين وغيرهم ومآب وزُغَر وأهلها أخلاط من الناس ، والشَّراة ومدينتها أذْرُح وأهلها موالي بني هاشم ، وبها الحُمَيْمَة منازل علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وولده . والجولان ومدينتها بانياس وأهلها قوم من قيس أكثرهم بنو مرة، وبها نفر من أهل اليمن، وجبل سنير – اي لبنان الشرقي ويدخل فيه جبل قلمون ووادي التيم – وأهلها بنو ضبّة وبها قوم من كلب .

واختلف الباحثون في الغسانيين إذا كانوا حكموا دمشق أم لم يحكموها وكون منازلهم كانت بجلق صحيح نقله ثقات العرب وورد في شعر حسان وقال نولدكه : إن بني غسان لم يتولوا الحكم إلا على قبائل حوران وشرقي الأردن . وقد قال الأخنس بن شهاب من شعراء الجاهلية :

وغسّان حيّ عزهم في سواهم يُجالد منهم مقنب وكتائب
وبهراء حيّ قد علمنا مكانهم لهم شَرَكٌ حول الرُّصافة لاحب

معناه هم ملوك ولم يكونوا كثيراً، وكانت الروم توليهم وتقاتل عنهم فعزّهم في غيرهم، وكانوا نزولاً على قوم من العرب . (والمقنب الجماعة والشرك اللاحب الطرق المدمثة) .

الفرس والزط :

وبعلبك وأهلها قوم من الفرس، وفي أطرافها قوم من اليمن، وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة ولبنان وصيدا وبها قوم من قريش ومن اليمن ، وكورة عرقة – شرقي طرابلس – ولها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة وبها قوم من ربيعة من بني حنيفة ، ومدينة طرابلس وأهلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيان، كما نقل منهم الى جبيل

وصيدا وبيروت . وقد نقل معاوية قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الأردن وصور وعكا سنة ٤٢ ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى أنطاكية جماعة . والغالب أن الفرس عند دخول العرب المسلمين الى الشام كانوا أصحاب مكانة حتى جرى ذكرهم بالتنصيص في العهد الذي أعطاه أبو عبيدة الى أهل بعلبك «رومها وفرسها وعربها».

وقال البلاذري : نقل معاوية في سنة ٤٩ أو سنة خمسين الى السواحل قومـاً من زُطّ البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية،وكان الوليد بن عبد الملك نقل الى أنطاكية قوماً من الزط السند. وكثرت هجرة الناس على اختلاف عناصرهم الى هـذا القطر لأن قصبته أصبحت عاصمة الدولة الإسلامية الكبرى .

الأخلاط والسامرة وجذام وعذرة ونهد وجرم والأزد :

وأهل مدينة طبرية قوم من الأشعريين هم الغالبون عليهـا ، وأهل صور وعكا وقَدَس وبَيْسان وفِحل وجَرَش والسواد أخلاط من العرب والعجم. وأهل الرملة أخلاط من العرب والعجم ، وذمتها سامرة ، وأهل مدينة نابلس أخلاط من العرب والعجم والسامرة ، وأهل كورة جبرين قوم من جذام، وأهل جند فلسطين أخلاط من العرب من لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة . وذكر القلقشندي أن بني كلب كانوا ينزلون في الجاهلية دومة الجندل (الجوف) كما نزلوا تبوك وشيزر وحلب وبلادها ، وفي تدمر والمناظر أقوام منهم، ومن بني عذرة أقوام بالشام ، وكذلك من بني نهد وفي غزة.جرم طيء وللأزد بقايا في زُرَع وبُصْرَى ، ولغسان بقايا بالبلقاء واليرموك وحمص وهذا في القرن الثامن للهجرة،وكان غسان وجذام وكلب ولخم وغيرهم من القبائل يعدون من المستعربة،كما قال ابن البطريق،استجلبهم هرقل لما سمع أن المسلمين فتحوا فلسطين والأردن وصاروا الى البثنية . ولما وصل أبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام الى حاضر حلب وهو قريب منها جمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم،وكانوا أرسلوا الى خالد بن الوليد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا مع الروم ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم .

قيس ويمن وإحصاء السكان :

رأينا في ما تقدم من النقول أن كل إقليم بل كل بلد ناله حظ من نزول العرب في أرجائه وذلك قبل الإسلام وبعده :

بهـــا غرر القبـائل من مَعَدٍّ وقحطان ومن سَرَوَات فِهرِ

ومجموع أصولهم يرجع الى قيس ويمن،وهم الذين كان يطلق عليهم اسم العشران . وكثيراً ما كانت تقع بينهم حروب أهلية تسيل فيها الدماء وينادى فيها باللثارات . انتشروا من الجنوب الى الشمال ودام ذلك الى العهد الأخير ، وكانت بقايا هذه النغمة في لبنان الى القرن الماضي فدثرت. وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التي وقعت في قرية خربثة بفلسطين والحرب التي نشبت في قريـة عين دارة في جبل لبنـــان سنة ١٧١٠ م. ويتعذر الآن الحكم على أجيال العرب التي نزلت الشام لما طرأ على القطر من ضروب البلاء كالوباء والجدب والزلزال والظلم والجلاء . وقد ذكر لامنس أن العرب المسلمين لما انتهوا من أمر الجابية وعَمَوَاس ودابق اي لما فتحوا الشام برمته أنشأوا ينزلون المدن والقرى وقد دخل منهم قبائل برمتها قدرها من مئة الى مائتي ألف ونظن هذا التقدير أقل من الحقيقة لأن المسجلين بديوان العطـاء في دمشق فقط كانوا في الصدر الأول خمسة وأربعين ألفاً فما بالك بسائر من كان يجرى عليه العطاء في البلدان الأخرى وغيرهم من التجار وأصحاب الزرع والضرع؟ قال:فلو فرضنا أن نصفهم قتلوا في الحروب فيبقى النصف الآخر أمام السكان الأصليين وكانوا من أربعـــة الى خمسة ملايين ، وكان في الشام على عهد الرومـــان نحو سبعة ملايين . وقال بعض الباحثين من الافرنج : إن الشام على عهد الإسكندر أي قبل المسيح بثلاثة قرون كان يسكنها عشرون مليونـاً من البشر ، ولما جاءت العرب في القرن السابع كان سكانهـا قـد نقصوا حتى بلغوا عشرة ملايين وفي عهدنا بلغ عددهم نحو سبعة ملايين .

المردة والجراجمة والأرمن والروم والموارنة :

لقب أهل لبنان بالمردة أي العصاة لعصيانهم أمر ملك الروم في عدم

التعرض للعرب . والمردة هم المعروفون في كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جُرْجومة كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي عند معدن الزاج فيما بين بيّاس وبوقة قرب أنطاكية وقد صالح الجراجمة المسلمين على أن يكونوا أعواناً لهم وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، ودخل معهم من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط من أهل القرى ومن معهم في هذا الصلح فسموا الرواديف لأنهم تلوهم وليسوا منهم . وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم يمالئونهم على المسلمين.

أخذ يوستنيانوس ملك الروم اثني عشر الف مقاتل من المردة أو الجراجمة على رواية الدويهي إرضاءً للخليفة عبد الملك الأموي. وأسكن أبو جعفر المنصور بعض العشائر في الأرض الخالية المجاورة منازل المردة في لبنان . وكان المردة يعتدون على أبناء السبيل بين دمشق وبيروت . ولما جاء المنصور الى دمشق قدم عليه الأمير أرسلان بن مالك من المعرة ومعه جماعة فشكوا اليه توالي القحط عليهم فأقطعهم جبال بيروت الخالية وعهد اليهم بحفظ الطريق فنزلوا في عشائرهم بحصن أبي الحبيش ثم نزلوا جبل المغيشة (ظهر البيدر) ومنها امتدوا الى سن الفيل،وصارت بينهم وبين المردة وقائع . وفي أوائل حكم العباسيين أخرج صالح بن علي قوماً من الأرمن واللان ممن كانت الروم تسيرهم من إرمينية مع جاثليقهم وأسكنهم الشام، ومن هذا اليوم امتنع ملوك الروم أن يسكنوا في سلطانهم أحداً من الأرمن ولا سيما في المواضع القريبة من الثغور أي ثغور الشام أو بلاد قيليقية . وفي سنة ١٨٩ أرسل هرون الرشيد منشوراً الى ثابت بن نصر الخزاعي أمير الثغور الشامية ومناشير أُخرى الى باقي عمال الشام أن يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل الى لبنان لتشتد قوة أمرائه . ومثل ذلك وقع منذ خمسة قرون،فهاجرت مئات من الأسر المسيحية في القرن الرابع عشر وبعده من حوران وما إليها الى لبنان،واعتصمت في معاقله ولا سيما بعد الفتح العثماني، وذلك تفادياً من قوة الشيعة في تلك الديار،كما أن الموارنة انتقلوا من أرجاء حمص وجبل سنير وظلوا ينتشرون في شمالي لبنان حتى وصلوا الى كسروان والمتن والشوف وأقصى لبنان في جزين ، كما انتقل الدروز في

الأعصر الثلاثة الأخيرة من الشوف ووادي التيم وغيرهما الى جبل حوران الذي كان يسمى جبل الريان وجبل بني هــلال أو امالدانوس وأصبحوا فيه الأكثرية المطلقة . وكما هاجر النصارى الشرقيون الى القدس من أرض البلقاء وعمان وعرفوا بالمشرقيين ومحلتهم بالمشارقة . وبهذا رأينا أن الهجرة من صقع الى صقع من أصقاع هذا القطر والهجرة من القاصيـة والهجرة الى القاصيـة لم تنقطع في الإسلام كما أنهــا كانت كذلك منذ جلاء بني إسرائيل الى بابل بل قبلها مما لم تبلغنا بالتفصيل أخباره .

التركمان والأتراك والأكراد والشركس وغيرهم :

نزل التركمان على عهد دولة بني مرداس العربية في شمالي حلب ، وسير الأتابك زنكي طائفـة من التركمان الإيوانية مع الأمير اليــارُق الى الشام وأسكنهم في ولاية حلب وأمرهم بجهاد الافرنج وملكهم كل ما استنقذوه منهم جعله ملكاً لهم . ولم يزل جميع مـا فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائــة . وأسكن صلاح الدين كثيراً من التركمان والأكراد في لبنــان وساحلــه . والتركمان والأكراد كثروا جداً في الشام عـلى عهد الدولتين النورية والصلاحية ، وكان قسم عظيم من جند المسلمين إذ ذاك منهم ، فتديروا الأقاليم واستعربوا . ولم تجيء دولة المماليك حتى كثر الشراكسة في هذه الديار واستعربوا هم وحكومتهم مع الزمن . وفي عهد العثمانيين نزل قبائل من التركمان في بغراس (بيلان) ومـا اليها وعادت هذه فتعربت بمن كان نزلها من الإسماعيلية العرب الذين أخضعوا لسلطانهم تلك الجبال، جبال اللكام وما اليها .

جاء القرن الحادي عشر وفي الشام كما قال كاتب جلبي أنواع الألسنة كالعربية والتركية والكردية والفارسية والهندية والأفغانية والسليمانية وهذا كله في دمشق قال : وهناك مغاربة وسريان وعرب،وفي الإسكندرونة وطرابلس وصيدا والقدس اليونان واللاتين والطليان والفرنسيون والاسبان والإنكليز والنمساويون والبولونيون والروس والموسكوف والقبط والحبش والأرمن وجميع طوائف النصارى اهـ.

ومن أعظم شعوب أوروبا عراقة في هذه الديار البنادقة والبيزان والجنويون والطوسقانيون من أهل ايطاليا وكانت أهم تجارة البحر المتوسط في أيديهم من القرن الخامس الى القرن التاسع للهجرة ومنهم من توالد في ديارنا وملك الدور والتجارات الواسعة .

المهاجرون والمحدثون اليهود والأرمن :

وفي أواخر القرن الماضي جاء الشام قبائل كثيرة وجاليات مهمة من الطاغستان والبشناق والششن والشركس والمغاربة فنزلوا بعض القرى في فلسطين مثل قيسارية، وبعض بلاد الجنوب مثل عمان وعين صويلح وناعور ووادي السير، وبعض القرى في إقليم الجولان ومنها القنيطرة وما اليها من القرى، وبعض قرى حمص وحلب، فلم يأت عليهم بطن حتى استعربوا محتفظين بلغاتهم الأصلية، كما استعرب من قبل التراكمة والأكراد . وهناك بقايا من موظفي الترك سكنوا بعض مدن الشام على عهد العثمانيين وامتزجوا بأهلها وتعربوا .

ومن أهم المهاجرين المتأخرين مهاجرو الصهيونيين من الإسرائيليين الى فلسطين، وأكثرهم ممن اضطهدوا في روسيا وبولونيا ورومانيا، ومنهم من كانوا من العنصر الجرماني وهؤلاء يتعاصون على التعرب وقد جعلوا من لغاتهم الأصلية واللغة العبرية ألسنهم المدنية والدينية، ويقدرون الإسرائيليين عامة في فلسطين بنحو مليون ونصف مليون كان الألمان كثرتهم الغامرة، وقلّ عدد العرب فيها بعد أن طردهم اليهود من أرضهم وقدر عدد النازحين من المسلمين والنصارى بتسعمائة ألف تشردوا في الأقطار المجاورة، وما ندري هل يعلّم أبناء إسرائيل العرب لسانهم أم يخضع العبرانيون بحكم الطبيعة الى التعرب بعد جيلين أو ثلاثة كما جرى في كل مكان وطئتها أقدام العرب . وكذلك يقال في مهاجرة الأرمن والروم في الشام، فقد قذفت الحوادث الأخيرة في قيليقية وأزمير نيفاً ومائة وثمانين الف نسمة أكثرهم من الأرمن، نزلوا حلب ودمشق وبيروت وغيرها من البلدان الصغرى . وقد عاد قسم عظيم منهم فجلا عن الديار الشامية، فقصد بعضهم الى أمريكا

والآخر الى مملكتهم الجديدة . وما يدرينا أيضاً إذا كان من نزلوا الشام يستعربون كما تترّك أجدادهم في آسيا الصغرى . وأصبح الأرمني والرومي لا يعرف غير التركية يتكلم بهـا في داره ويفهم بها صلواته، أم يؤلفون كتلة جديدة في وسط هذا المجموع العربـي الكبير .

عوامل النمو :

ولولا أن مضى على الشام الى قبيل الحرب العامة الأولى خمسون سنة وهـو يرسل من أبنائه كل سنة الى اليمن زهاء عشرة آلاف مجند يهلك أكثرهم كما أكد لي الثقة لقلنا ما زالت جزيرة العرب الى اليوم ترسل الى الشام من أبنائها أناساً يسكنونها ويمتزجون بأهلها كأن هذه الجزيرة العظيمة بعض ولايـات الشام تعطيها أكثر مما تأخذ منها كما تعطي المدن الصغيرة للعواصم وقلما تعطي هـذه لغيرها من أعمالها . ولولا اعتدال المناخ والرضا بالدون من العيش وتعدد الزوجات في الطبقة النازلة من الشعب والاعتقاد بالقدر وترك الأبوين المجال للتوالد لظهر عجز كبير في عدد السكان خصوصاً بعد أن مُنيت الشام بالهجرة على مقياس واسع وغفل عن العناية بالأسباب الصحية. والأمم يكثر سوادها على قول سكريتان بأربعة عوامل وهي الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات وبنقيضها تقفر الأرض ويقل ساكنوها . وقد كان أبناء الشام منذ عهد الدولة الرومانية في كل مكان كما تراهم الآن وكان منهم في جيش جرمانيكوس القائد الروماني عدة كتائب عندما حمل حملته عـلى الرين . والبشر في فطرتهم التنقل وللسلطان الأرضي والسلطان الطبيعي آثار في ذلك مسطورة مشهورة .

العرب في الشام والاختلاط :

وما زالت الى اليوم سَحَنَات بعض سكان الأصقاع الشامية كحوران والبلقاء تنم عن أُصول عربية صرفة على مـا نرى ذلك ماثلاً في الطوائف التي

احتفظت بأنسابها العربية ولم يدخلها دم جديد كسكان الشوف ووادي التيم وجبل حوران وجبال الكلبية . وما طول القامات واتساع الصدور ومتانة العضلات والجملة العصبية والأدمغة في الأفراد إلا أدلة ناصعة على ما ورثه الشاميون من الدم العربي . وفي الشام جميع الأمزجة يكثر الدمويون مثلاً في داخل القطر كالقدس ونابلس وصفد ودمشق وحمص وحماة وحلب وأنطاكية ، كما يكثر الصفراويون العصبيون في يافا وحيفا وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية والإسكندرونة من مدن الساحل . وإن ما في تركيب أدمغة السوريين من أشكال الرؤوس كالشكل البيضوي المستطيل المعروف عند الافرنج بـ (دوليكوسفال — Dolichocéphale) الشكل المدور المنبسط المعروف بـ (براكيسفال Brachycéphale) ليدل كل الدلالة على مبلغ الشاميين من الذكاء والمضاء فقد قال فوليه : إن اتساع الجبهة يشعر باستعداد الحواس العقلية، وامتداد القذال ينم عن استعداد للشهوات الجسمية. وفي وجوه السوريين تقرأ بعض أصولهم القديمة وما امتزجت به من الدم الحديث فسود الشعور والعيون والبشرة إجمالاً هم من أصل عربي ، وشقر الشعور وزرق العيون وبيض البشرة فيهم الدم القافقاسي . وفي تراكيبهم دم العبيد والزنوج كما فيهم دم العرق الأبيض. قال جلابرت : إذا فحصت الصور المكتشفة في صيدا تحققت أنه كان يدخل في خدمة السلوقيين رجال من كل فج وصوب، منهم يونان كأهل لقديمونة واقريطش، ومنهم أسياويون كأهل قارية وبيسيدية وليقية وليدية ، وإن العقل ليحار باختلاط كل هذه الجنسيات في جيوش السلوقيين.

وسكان الحولة وأريحا والغور ويقال لهم الموارنة لا يشبهون بالطبع سكان اللبنانين الغربي والشرقي وجبال اللكام لمكان الهواء واختلاف البعد والقرب عن سطح البحر . وابن ضفاف العاصي وبردى ليس في طبيعته كالنازل على ضفاف الأردن والفرات . والاختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار مشهود في كل أمة، ومع هذا تساوى سكان هذا القطر من حيث الجملة كما قال الجاحظ في العرب : « في التربة وفي اللغة والشمائل ، وفي الأنفة والحمية ،

وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا إفراغاً واحداً ، وكان القالب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط حتى صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق والمباينة من بعض الأرحام . » وبعد فإن من نراهم من أبناء الشام على اختلاف أرجائه وهوائه هم سلالة أولئك الجدود ظهروا على الزمن بمظهر آخر فكانوا كأبدع الفسيفساء في الرقعة الجميلة .

لغات الشام

اللغة الآرامية والسريانية والعبرانية والفينيقية والعربية :

اللغات التي انتشرت في الشام قبل الإسلام كثيرة أهمها اللغات السامية أخوات اللغة العربية وهي السريانية والعبرانية والفينيقية . وقد قسم جويدي[1] أهل اللغات السامية الى قسمين أكبرين شرقي وهم أهل أثور أي أهل بابل وأشور ، وغربي وهو إما شمالي وإما جنوبي ، فأما الشمالي منهما فينقسم قسمين كبيرين أحدهما الكنعاني ويشمل العبراني والفينيقي وغيرهما والآخر آرامي . وأما الجنوبي فهو نوعان النوع الأول العربية المعهودة أي لغة القبائل التي سكنت النواحي الشمالية من جزيرة العرب ، والنوع الثاني عربية القبائل الجنوبية كسبإ وحمير ويشبه هذا النوع لغة الحبش القديمة . وقد يسمى النوع الأول لسان العرب المستعربة ويسمى النوع الثاني لسان العرب العاربة . فالعبرانية من لغات كنعان ومن اللغات الكنعانية لغة موآب ومن لغات الكنعانيين لغة الفينيقيين وقال : إن اللسان الآرامي هو النوع الثاني من القسم الشمالي في اللغات السامية،وفي هذا اللسان قسمان أحدهما غربي وهو لسان اليهود المتخلفين في فلسطين وفي مصر وهو لسان عدة أمم كالسامرة

(١) قال جويدي : وأول ما بلغنا مما سطره البابليون هو في غاية القدم اي من القرن الأربعين قبل الميلاد والكتابات الكنعانية في مكاتيب تل العمارنة هي من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ثم الكتابات السبئية في جنوب جزيرة العرب قيل إنها من القرن الثاني عشر والكتابات الفينقية والآرامية من القرن الثامن او السابع ق. م. وكتابات الحبش القديمة سطرت في منتصف القرن الرابع بعد الميلاد.

والنبط وأهل تدمر ، والقسم الثاني شرقي وهو لسان اليهود في بابل ولسان السريان وغيرهم .

قال : ومن اللغات الآرامية الغربية لغة الكتابات النبطية وكان الأنباط أمة عربية الأصل ولغتهم المأنوسة العربية في التكلم والمحاورة بين الناس . والأحرف الهجائية لم تكن معروفة عند العرب .

البابلية والكنعانية والكلدانية :

كان أهل الشام منذ الزمن الأطول قبائل سامية من البابليين ولم يزل يهاجر إليها أجيال من الناس سموا الكنعانيين فغلب الكنعانيون البابليين ، وباللغة البابلية كتبت رسائل تل العمارنة التي وجدت في مصر سنة ١٨٨٨م وهي رسائل صدرت عن عمال الشام الى ملوك مصر قبل موسى وهارون فاستدل علماء الإفرنج أن اللغة البابلية كانت في ذلك العهد لغة الحكومة بين الدول الراقية ، وارتأى بعضهم أن الشام كانت تتكلم إذ ذاك بالبابلية ، وكان اللسان الكنعاني أخذ يمترج بلغة بابل ، فتغلب بفرعيه العبراني والفينيقي على لغة أشور وبابل . وكان الكلدانيون يتكلمون بالآرامية على رأي بوست وفقاً لعادة ديوان الحكومة ولكنها لم تكن لغتهم الخاصة ولا العلمية،أما لغة الكلدانيين الأصلية فالكلدانية القديمة وهي لغة أكّد،وقد استعملها سكان بابل الأصليون إلا أنها كانت على وشك الاضمحلال في زمن بُخْت َنصر وقد هجرتها الألسنة لذلك الحين،وكان ظهور اللغة المسماة الآن بالسريانية في القرن الثاني بعد المسيح وهجر أهلها استعمالها نحو القرن الثاني عشر .

الحثية والآرية واليونانية واللاتينية :

أما اللغة الحثية فكانت على قول كروفرد في القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل التاريخ المسيحي لغة مستعملة من اللغات الهندية الأوروبية أي اللغات الأوروبية المشابهة للاتينية والآرية الايرانية والارمنية ، وأن الحثيين أنفسهم من سلالة آرية أوروبية ، ولكن امتزج بهم مع الزمن دمٌ من

غير الدم الآري الأوروبي أي إن الحثيين من أصل غير سامي ولم تنتشر لغتهم كما قال حتى بين العامة ولم يتوفق البحاثون الى حل رموزها حتى الآن . فاللغة البابلية كانت منتشرة في الشام منذ زهاء ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح ، ثم تغلبت الكنعانية التي تشمل العبرانية والفينيقية ، ثم تغلبت الآرامية على الكنعانية وهما متشابهتان . ولما صار الأمر الى الفرس بعد البابليين في الشام بقيت اللغة الآرامية اللغة الرسمية .

وفي دولة الروم السلوقية بث خلفاء الإسكندر المدنية اليونانية في سكان سواحل البحر المتوسط ، وكانت مع هذا الى ضعف ولا سيما في لبنان إذ دام أهله على استعمال الآرامية ممزوجة باللغة الفينيقية ، وكانت اليونانية اللغة الرسمية ولغة العلماء على عهد الروم والرومان أيضاً منتشرة في كثير من الأرجاء . وكانت مدرسة الفقه في بيروت تدرس باللاتينية مدة أربعة قرون . ولكن اليونانية على تأصلها بالنسبة للاتينية لم تشع في العامة . ولما استولى الإيطوريون على لبنان لم يغيروا شيئاً من لغته ولا شك في أن لغتهم كانت العربية الآرامية . أما النبط وهم من أقارب الإيطوريين وجيرتهم فإن لغتهم لم تكن سوى لهجة آرامية .

وذكر أحد الباحثين أن الرومان لما جاءوا الشام واستعمروه انتشرت اللغة اليونانية في المراكز الكبرى حتى نسي كثيرون اللغة الفينيقية واللغة الآرامية ولا سيما في طبقة الأشراف وأصحاب الثروة ، وبقيت اللغة اللاتينية لغة الحكومة ، وحافظ العامة على اللغة الفينيقية والسريانية ، وكان الفقهاء يكتبون باللاتينية لغة الفقه والقضاء، والأدباء والفلاسفة باليونانية، وهي اللهجة العامة في الشرق ، واللغة الآرامية هي اللغة الرسمية في دولة تدمر . وظل الشاميون يتكلمون اليونانية على عهد انتشار النصرانية وكذلك عمال الحكومة ورجال القضاء، وكان الآراميون او الأنباط ، كما كان يسميهم العرب ، في كل محل ما عدا المدن التي كانت مزيجاً من عناصر مختلفة .

تنازع السريانية مع العربية :

كانت السريانية لغة عامة في الشام لم تدثر إلا بتملك الرومان على

الشرق ونشرهم لغتهم فيه، فدثر مجد السريانية ولم يبق إلا القليل حتى جاء الإسلام وأدخل العربية . وكانت السريانية على عهد المسيح اللغة العامة في سورية وفلسطين ممزوجة بقليل من العبرية . ورأى دي فوكويه أن جميع الكتابات التي وفق العلماء الى اكتشافها لا تتجاوز القرن الأول قبل الميلاد واللغة التي كان شعوب سورية يتكلمون بها إلا ما ندر هي اللغة الآرامية وجميع الكتابات التي عثروا عليها في تدمر وحوران وأرض النبطيين كتبت بهذا الفرع من اللغة السريانية . واللغة التدمرية واللغة اليونانية هما الغالبتان على الكتابات المكتشفة في تدمر . وكانت اللغة اليونانية بمنزلة اللغة الرسمية في جميع الأقاليم الشرقية الخاضعة لدولة الرومان . وأما لسان أهل تدمر فهو لهجة آرامية على غاية الشبه بالسريانية . وقال بعضهم : إن التدمرية من اللغات الآرية الغربية تشبه النبطية وفي بعض هذه الكتابات اسم ملكهم أُذينة. ومن اللغات الكنعانية لغة موآب في شرقي فلسطين . وفي متحف باريز كتابة قديمة في هذه اللغة وضعها ملك اسمه ميشع يذكر فيها حروبه مع عمري ملك الأسباط (أسباط بني إسرائيل) ويقال لهم في كتب العرب ملوك الأسباط .

رأي رنان :

وذكر رنان أن الفينيقيين كانوا الواسطة الوحيدة بين العنصر السامي وسائر العالم ، وكثيراً ما عرفوا بأنهم اخترعوا أموراً ما كانوا فيها إلا نقلة . وما الفينيقيون سوى سماسرة مدنية كانت بابلُ مقرها ، وظاهر الحال يدعو الى الاعتقاد بأن بابل التي علّمت العالم أصول المقاييس والموازين قد اخترعت حروف ألف باء مركبة من اثنين وعشرين حرفاً . قال : وكانت اللغة العبرية لغة الشعوب في فلسطين عندما دخل بنو إسرائيل الى الشام وقد ذكرت أسماء الشعوب المذكورة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين بجلاء ووضوح الأمم المجاورة لفلسطين، وجعلت اسم كنعان رابطة من روابط القربى بين جميع شعوب الساحل ولبنان ، من مدينة حماة وأرواد في الشمال الى جرار (في فلسطين) والبحيرة المنتنة في الجنوب ،

وهم مجموعة الشعوب التي كان اليونان يطلقون عليهم اسم الفينيقيين .

آراء أخرى :

وذكر يوسف داود أن لسان أهل فلسطين ولا سيما أورشليم في عصر المسيح الآرامي أي السريانية،فكانت اليونانية لغة أجنبية يتكلم بها كثير من الغرباء النازلين في الشام وهي لغة الحكام والحكومة في عهد تلك الدولة . وكثيراً ما كانوا يكتبون بعض المقدسات على ذاك الدور بالعبراني او السرياني واللاتيني واليوناني ، وكان يحرم على اليهود في فلسطين ولا سيما الرجال أن يتعلموا اللغة اليونانية ويباح للنساء تعلمها من باب التزين الجائز لهن . قلت:وهذا من التحكمات الباردة مثل الأمر الصادر عن أحد خلفاء بني العباس من أخذ أهل الذمة بتعلم اللغة السريانية والعبرانية وترك العربية ولكن أمره لم ينفذ لأنه غير معقول .

وقيل : إن الآرامية كانت لغة العامة في عهد المملكة الأشورية وأن الأشورية اللغة الرسمية ، وكان الموظفون في العهد البيزنطي القادمون الى الشام يعتمدون على التراجمة مع الأهلين المتكلمين بالآرامية . ولما انقضى العصر البابلي الأشوري حلت اللغة الآرامية محل البابلية في السياسة والتجارة، وأصبحت اللغة الرسمية لملوك فارس وآرام وتدمر والبتراء . وكانت اللغة الفينيقية تختلف عن السريانية في القرن الأول قبل الميلاد ثم تمازجتا حتى أصبحتا شيئاً واحداً ، وكانت اللهجة العامة عند يهود فلسطين وهي أقرب الى الآرامية منها الى العبرية ، يطلق عليها بين اليهود أنفسهم اسم اللغة العبرية وهي تختلف عن لغتهم المقدسة . وذكر رنان أن اللغة السريانية الكلدانية كانت أكثر اللغات انتشاراً في أرض الجليل وأن المسيح كان يتحدث بها الى الناس،وأن الأناجيل كتبت لأول أمرها باليونانية وأصبحت هذه في الشام لغة عامة ولغة علم ، وكان من نتائج ذلك دخول الألفاظ اليونانية في اللغة السريانية بكثرة زائدة حتى إن اللغة اللاتينية لم يكن لها تأثير البتة بين الشعوب السامية ، فمن القواعد العامة أن الفتح الروماني لم يستطع أن يقضي على استعمال اللغة اليونانية في القطر وقد رآها متأصلة فيه ،

على حين كانت اللغة اللاتينية تنتشر في أرجاء الغرب انتشاراً هائلاً .
وبعد انقراض دولة الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد عم اسم آرام بلاد الشام، فأصبح القسم الأكبر منها يسمى آرام، وسكانها يدعون بالآراميين وهم الذين اختطوا حلب أو حلبون وعادت اللغة الآرامية الى شيوعها في جهات حلب تمازجها اللهجة البابلية بدليل ما يشاهد في أرجائها من أعلام الأمكنة التي ما زالت تافظ على أصلها بالفتح الى اليوم ، وسادت اللغة اليونانية بظهور الدولة السلوقية وكانت لغة الخاصة والعلماء ورجال الدولة . ولما تقلص ظلها عادت السريانية الى ازدهارها يخالطها فرعها التدمري الذي انتشر إذ ذاك في سورية الشمالية على عهد سيادة تدمر في صدر النصرانية. ومن الأقلام التي بقيت في لبنان الكتابة الكرشونية وهي عربية بأحرف سريانية وقد كتب كثير من كتب الموارنة بالكرشوني .

انتشار العربية :

هذا ما كان من أمر اللغات السامية واللاتينية واليونانية في الشام . أما اللغة العربية فكان يتكلم بها قبل الفتح الإسلامي بزمان طويل لما ثبت من انتشار الغسانيين والتنوخيين والنبطيين والسبأيين وغيرهم في الشمال والجنوب وكانت حوران والبلقاء والشراة من الأصقاع التي سبقت غيرها في هذه السبيل . بدليل ما يشاهد من أسماء بعض قراها العربية مثل جرش، جاسم، تبنة ، أذرعات ، أذرع ، محجة ، السويداء ، البتراء ، نجران ، القسطل ، القناطر ، الحفير ، الخ وذلك لأن هذه الأقاليم الثلاثة كانت أقرب الى الاتصال بالعرب من الجنوب . وكان السابقين الى نشر العربية في ديارنا الوثنيون من العرب أولاً ثم نصارى العرب ويرجع اليهم الفضل في نشرها بادىء الأمر ، فلم تلبث اللغة ستين أو سبعين سنة للفتح الإسلامي أن عم انتشارها في الشام ونقلت الدواوين زمن عبد الملك من اليونانية الى العربية ونازعت اللغة العربية السريانية فبذتها على صورة مدهشة ، وإن كان الضعف قد دب في هذه قبل الإسلام . وتغلبت العربية لغناها وسلاستها وضبط قواعدها وشدة احتياج الناس إليها في مصالحهم . قال ابن خلدون : ولما

هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب . وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة اهـ .

العربية لغة كاملة وفصاحة الشام :

يقول رنان : من أغرب ما وقع في تاريخ البشر،وصعب حلُّ سره، انتشار اللغة العربية . فقد كانت هذه اللغة غير معروفة باديء بدء فبدت فجأة على غاية الكمال ، سلسة غنية وأي غنىً ، متقنة بحيث أنها من ذلك العهد الى يومنا هذا لم يدخل عليها أدنى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة ، ولا أدري إذا كان وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض دون أن تدخل في أطوار وأدوار مختلفة . قال: وما عهدت فتوح قط أعظم من انبساط ظلّ العربية ولا أشد سرعة منها، فإن العربية ولا جدال قد عمت أجزاء كبرى من العالم،لم ينازعها الشرف في كونها لغة عامة أو لسان فكر ديني أو سياسي أسمى من اختلافات العناصر إلا لغتان اللاتينية واليونانية ، ولكن أين مجال هاتين اللغتين في السعة من الأقطار التي عم انتشار اللغة العربية فيها .

منا:وربما ذهب الشام بفضل هذا الشرف الأعظم ، ولعله سبق العراق ومصر في الأخذ بمذاهب العرب . لقرب أهلها من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ، حتى إن كتّاب الدولة الأموية استعملوا من الألفاظ العربية الفحلة والمتينة الجزلة ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية،لأن كتّاب الدولة الأموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذي استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها حتى عدت في جملة الفضائل التي يثابر على اقتنائها . وليست استفاضة لغة العرب في العراق كاستفاضتها في أرض الحجاز والشام . وقال اليزه ركلو : إن أهل دمشق أكثر السوريين عراقة في

العربية وذلك لعلاقتهم المتصلة بالتجارة مع مكة واللهجة العربية فيها أجمل من سائر لهجات الشام . وكان محمد عبده يقول : إن الفصح في لغة الشام أوفر مما هي في لهجة مصر .

كيف انتشرت العربية :

وإذا أردنا استقراء الطرق في نشر العربية في الشام لم نرها حاربت لغة القطر الأصلية على رسوخها فيها، بل سارت في نشرها سير تعقل ، وراعى دعاتها سنن الطبيعة والنشوء ، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعي عملها في اللغة كما عملت في العناصر ، فبقي ما هو مفيد للناس في مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم . ومنذ عدل في القرن الأول عن اللغة الرومية في الدواوين لم تبرح جميع الحكومات التي تعاقبت على هذه الديار تستعمل اللغة العربية في مفاوضاتها وسجلاتها، على أن منها الكردي والتركي والشركسي إلا الدولة العثمانية في آخر عهدها فإنها ألغت الديوان العربي من مراكز الحكومات السورية والفلسطينية واكتفت بالدواوين التركية ، وعلى كثرة عنايتها بلغتها في الثمانين سنة الأخيرة لم توفق الى نشرها إلا بين الموظفين فقط ، فكان شأنها هنا شأنها في رومانيا وصربيا وبلغاريا ويونان والبانيا ، أمتد سلطانها عليها قروناً ومع هذا لم تستطع نشر لغتها بين سكانها اللهم إلا بعض ألفاظ شاعت في المصطلحات اليومية . والعرب أجدر من غيرهم بأن يحرصوا على لسانهم وهو لسان مدنية ودين معاً ، وأن لا يتخذوا عنه بديلاً وهو متأصل في هذه الديار قبل الإسلام .

اللغة الصفوية :

الى الجنوب الشرقي من دمشق في مدخل بادية الشام حول الصقع البركاني المسمى بالصفا ، يعثر الباحث على كتابات كثيرة زُبرت على الصخر البركاني والشعب الذي خط هذه الكتابات في القرون الأولى للميلاد هو من أصل عربي، ولغته من اللهجات العربية، وخطه من فصيلة خطوط ديار العرب الجنوبية . وبفضل هذه الكتابات تعرف إحدى اللغات التي كان

يتكلم بها في بادية الشام قبل الإسلام ، ونقف على مقام رحالة من العرب كانوا على وشك أن ينتقلوا الى اتخاذ البيوت وعيش الحضارة في الشام . أما الصفويون فلم يكونوا أول من قصد الى أرض الميعاد ولا آخرهم، بل هم وحدهم الذين عرفناهم قبل أن يتحولوا تحولاً كلياً أي عندما كان لهم لسانهم وخطهم وأربابهم وعاداتهم . فمن الخطإ الاعتقاد بأن دخول العناصر العربية الى الشام يرجع فقط الى الفتح الإسلامي واختراق المسلمين صفوف الروم في وقعة اليرموك ومهاجمتهم الشام، ثم انتشارهم في الشرق حتى أواسط آسيا، وفي الغرب حتى أقاصي شمالي إفريقية ثم الى اسبانيا . هذا الهجوم قد دل على بلوغ دولة العرب غاية مجدها ، فإذا ظهر أن الفتح الإسلامي قد كان من الحوادث الشاذة فهو في الحقيقة نتيجة حركة عادية طبيعية نشأت من اختلاط العرب على الدوام بسكان الحضر ودخولهم أصقاعهم، هذا رأي دوسو وقال : لا ينبغي أن يفهم من لفظة العرب سكان جزيرة العرب فقط بل إنه يتناول أهل الظعن الذين يطوفون أواسط جزيرة العرب وشمالها وجميع بادية الشام .

الصليبيون ولغاتهم والعربية ولبنان :

وما برحت العربية تتأصل القرن بعد القرن في هذا القطر، حتى كانت الحروب الصليبية فخشي عليها أن تنازعها الأولية لغات الصليبيين ، خصوصاً بعد أن طال مقامهم في أنطاكية والساحل نحو قرنين يتكلمون بلهجات مختلفة أهمها الطليانية والافرنسية . بيد أن اللغة الفرنسية كانت لغة جميع الغربيين النازلين في الشرق، وكان معظم فرسان الصليبيين من الفرنسيين ومنهم جميع الأسر الحاكمة في الشام ، على أن بعض أمراء الإفرنج من الصليبيين كانوا تعلموا اللغة العربية ومنهم صاحب قلعة الشقيف، وجاء منهم من ضرب النقود بالعربية مثل أصحاب عكا وصور وبيروت وطرابلس ورسموا عليها حروفاً كوفية على شبه النقود الإسلامية ، مع رموز نصرانية كالصليب وآيات من الكتاب المقدس . وأصبح نساؤهم ينتقبن كالمسلمات ويلبسن ثياب المسلمات مثلما كان رجالهن يلبسون ثياب الوطنيين .

ثم إن بعض أنحـــاء لبنان قد تأخرت في التعرب بجملتها حتى القرن الرابع عشر للميلاد فيما قيل،وقلّ انتشار العربية في أعالي لبنان وظلّ السكان في عدة قرى يتكلمون بالسريانية وذلك لقلة المخطوطات العربيـة ولا سيما بين الموارنة . وكان أهل بشرّي وحصرون والقرى المجاورة لها الى قبيل مئة سنة يتكلمون بالسريانية،كما بقيت الى اليوم ثلاث قرى في جبل قلمون أي سنير وهي جبعدين ومعلولا ونخعة يتكلم المسلمون من أهلها والمسيحيون مع العربية باللغة السريانية ، وسريانيتهم أفصح من السريانية العامة اليوم في آثور والجزيرة والعراق على ما قاله العارفون .

اللغة التركية :

وبينا كان جبل لبنان الشرقي والغربـي يحفظان في مغاورهما بقايا اللغة السريانية التي انحصرت في الأديار والبيع ، بعد أن انهزمت أمام العربية ، كانت بعض أرجاء جبال اللكام وما اليها تؤوي من اللغات اللغة التركية او التركمانية . وعندما رحل الأشرف قايتباي سنة ٨٨٢ هـ من مصر الى أقصى الشام كان الأهلون من اللاذقية الى البيرة (بيره جك) يتكلمون بالتركية . قـــال مؤلف رحلته : وأهل البيرة يتحدثون بالعربـي اللطيف أكثر من التركي بخلاف ما تقدم من البلاد،فإنه من حين توجهنا من اللاذقية والى البيرة لم يكن كلامهم إلا التركي .

ولم نعرف العهد الذي انتشرت فيه التركية في الحدود الشمالية من الشام معرفة أكيدة ، والمتكلمون بالعربيـة في بعض الجهات أكثر من المتكلمين بالتركية . ومن شأن أقاليم التخوم على الأغلب أن تتكلم بلغتين ومنهم من يتكلم بثلاث . ونزول الأتراك في جزء صغير من شمالي الشام أقدم من زمن العثمانيين وربما كانوا من زمن السلجوقيين والأتابكيين . ومدينة حلب برزخ بين الديار العربية والديار التركية . وعلى نحو أربعين كيلومتراً من شمالي حلب يقلّ المتكلمون بالعربيـــة وتصبح الأقـاليم الى التركية أقرب وتتكلم بعض قرى كليس بالعربية والتركية والكردية،وجميع السكان عرب من شرق حلب وغربها ، ما عدا بعض قرى من عمل حارم فسكانها من

الشركس . وسكان العمق أكراد . وفي قضاء الباب قليل من التركمان والأتراك والأكراد والشركس . وأهل قضاء منبج شركس وفيهم عرب ، وتغلب التركية على أهل عمل الإسكندرونة . ومن أهل أنطاكية من يتكلم بالتركية ومنهم من يتكلم بالعربية . فيصح أن يقال فيهم: إن تركيهم تعرب وعربيهم تترك . وبعض أهالي قضاء بيلان (بغراس) يتكلمون بالتركية وكذلك ناحية أردو،والعربية غالبة عليهم ، يتكلم نحو نصف سكان مدينة أنطاكية بالتركية ولكن أصولهم عربية على الأكثر وثمانون في المئة من أهل عملها هم عرب لساناً وجنساً،وهكذا يقال في بيلان وكليس وأردو ، ولا يمكن أن نثبت بإحصاء صحيح أن الأتراك يؤلفون في الشام كتلة واحدة ووسطاً واحداً كما أن التركمان والشراكسة والطاغستان والششن والبشناق والأكراد والمغاربة لم يؤلفوا شيئاً من ذلك ، وتراهم يتمازجون كلهم بالبوتقة العربية ويندمجون في العرب . شأن سكان فرنسا والمانيا وايطاليا وغيرها من الممالك التي كانت جامعتها لسانها، ولا يزالون في الحدود وأواسط القطر يتكلمون بغير لغة الدولة التي يُظلهم علمها .

السواد الأعظم والعربية :

ليست العبرة ببقعة مخصوصة وإنما هي بمجموع القطر الذي يراد أن تعزى اليه جنسية أو قومية معروفة وإلا فقد لزم من ذلك أن تعد ولاية أذنة اليوم أو جزء عظيم منها عربية لأن نحو مئة الف من سكانها عرب بأصولهم،ولسانهم عربي على تأصل الدول التركية والتركمانية في صقعهم ، وهم في بعض الأنحاء المتاخمة للشام من جبال اللكام يؤلفون أكثرية السكان. وإذا كان يغلب على بعض سكان الجهة الشمالية من الشام التكلم بلغات متعددة فإن ذلك نتيجة طوارىء تاريخية ودولية،بل نتيجة حكم الغالب على المغلوب وميل هذا الى التشبه بغالبه . ومن الثابت أن سكان الحدود آخذون أنفسهم بحكم الضرورة بتعلم لغات السكان المجاورين ليتمكنوا من التفاهم وإياهم في المصالح المشتركة المتبادلة ولا سيما الاقتصادي منها كما هو المشاهد في كل مملكة من الممالك . وما الترك في أنطاكية وإسكندرونة إلا مهاجرون

مثـــل مهاجرة السوريين في نيويورك وسان باولو ومن يحاول أن يلبس أنطاكية والإسكندرونة ثوباً تركياً هو كالواقف أمام البداهة ، والأولى أن ينظر إذ ذاك الى عرب مرسين وطرسوس ويردوهما الى الشام . وما هما من حيث الجغرافية واللسان إلا شاميتان . وبعد فإذا أردنا أن نحصي المتكلمين فقط بغير اللغة العربية في الشام بحدوده الطبيعية لا نراهم يزيدون عـــلى ستمائة الف من عناصر مختلفة وسط سكان يربـي عددهم على سبعة ملايين. والعربية مع هذا تأخذهم فتعربهم وأكثريتهم يهود ثم أرمن وسريان والباقون مسلمون يرون تعلم العربية فرض عين عليهم أو نصارى من أصول عربية يحرصون على لغتهم كما يحرص المسلمون عليها .

رسوخ اللغة :

إذا عرفت هذا فقد ساغ لك أن تقول: إن اللغة العربية دخلت واسعة النطاق الى الشام من الجنوب منذ خمسة وعشرين الى ثلاثين قرناً وزادت بالإسلام رسوخاً وانتشاراً . ولم يمض القرن الأول حتى استعربت وامتزج العرب الفاتحون والمهاجرون بالسكان من السريان فأصبحوا أكثرية مع الزمن وغلبت على الكافة الصبغة العربية غلبة الانكليزية على أهل كندا والولايات المتحـــدة الأميركية في القرون الأخيرة . وما أهل كندا وأميركا الشمالية إلا مهاجرة من انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وهـولاندة واسبانيا والمجر وروسيا وغيرهم من الأمم غدوا أميركاناً بقوميتهم انكليزاً بلغتهم ومناحيهم. وليس في الأرض فيما نعلم صقع تكوّن أهله من عنصر واحد وخلا مـن عناصر دخيلة امتزجت فيه ، بل إن الأمم الكبرى في الغرب وهي خمس أمم أو ست مؤلفة من بضعة أجناس من الناس جمعتها لغة واحـــدة ، وليس عمر أقـدم لسان من ألسنة العـالم المتمدن اليوم أكثر من عشرة الى اثني عشر قرناً،على حين أن عمر العربية في الشام أكثر من ذلك بضعفين على أقل تقدير . وكلما دخل هذا الجسم جسم جديد تلقح به وأدغم في مجموعه فزاده قوة ومضاء .

لم ترسخ اللغتان اليونانية واللاتينية في هذه الديار رسوخ السريانية أولاً

والعربية ثانياً، وذلك لأن اليونان والرومان كانوا فيها مستعمرين ولم يكونوا من أهلها كما كان السريان . ومن أجل هذا لم يؤثر حكم الروم والرومان هنا على طول عهدهما في قلب لغة السكان، بل تعلمها بعض أفراد كما يتعلم بعضنا التركية والفرنسية والانكليزية وغيرها من اللغات التي حكم أهلها الشام أو كانت لنا بأربابها علاقة تجارية أو سياسية أو علمية، بل كما كان بعضهم يتعلم في القرن الماضي اللغة الطليانية لقلة مدارسنا ومدارس الأمم الأخرى يومئذ .

الشاميون أمة واحدة لسانهم العربية فقط :

قلنا من محاضرة في سكان الشام ولغاته : مهما قيل في كثرة عدد المتكلمين بالفرنسية في بيروت وبالعبرية في القدس وبالتركية في حلب ، ومهما اختلفت درجة العواطف من حيث حب العربية ، فالبلاد عربية صرفة والسكان عرب مهما ضعفوا وضعفت مشخصاتهم . ولا ينسبون الى غير أمهم ولا يدعون إلا لآبائهم . يقولون: إن من تعلم لغة قوم أحبهم فما أحرى أن يحب المرء أولاً أرضاً أنبتته ، وأهلاً تجمعه وإياهم جامعة الوطن والجنس واللسان . نحن في الشام أمة واحدة مهما حاول المحاولون أن يجعلوا بيننا فروقاً . والمذاهب ما كانت ولن تكون معياراً في هذا الباب . الماروني والكاثوليكي والأرثوذكسي والإنجيلي والعلوي والإسماعيلي والعبري وغيرهم تربطنا بهم رابطة أجمع من كل الروابط، رابطة المصلحة الواحدة والوطن المشترك ، وقرابة الجنس وأواصر اللغة .

إن كنت أحب بيتي فما أولاني أن أحب سكانه . إن كنت لا أرى عُدتي في شدتي ، غير أمتي ، فما أحراني أن أرعى ذمامها ، وأحمي مشخصاتها ، وأول المشخصات في شعب هو لغته . ومعظم الأمم الحديثة تكونت تحت رايتها ، وسادت وشادت بتأثيرها . من اللغات يا قوم ما لا ينطق به أكثر من بضعة ملايين كالدانيمركية والسويدية والفنلندية، مع هذا تجد بين أبنائها — من الصلات على اختلاف في المذهب — ومن التناغي بحب قوميتهم ما لا يقلُّ عن تغالي الانكليزي والالماني والفرنسي والطلياني

والسلافي يحب لغته وقوميته وهو ابن أمة عظيمة .

ليست العربية من اللغات الميتة حتى يزهد بعض أبنائها فيها . بل هي لغة سبعين مليوناً من البشر نازلين في أجمل أقطـــار الأرض في إفريقية وآسيا، ولسان ديني لثلثمائة وخمسين مليوناً من المسلمين . ولسنا معاشر أهلها دون ارقى أمم الحضارة الحديثة بعقولنا وذكائنا فتاريخنا موضع الدهشة على توالي الأحقـــاب ، وإنا إذا عرانا بعض الضعف فقصرنا عن اللحـــاق بالسابقين ، لا نلبث بتماسكنا وتفانينا بحب قوميتنا ولغتنا أن نساوي غيرنا قريباً . وكم من أمم عراها أكثر مما عرانا من ضعف الملكات ، وضياع المقدسات والمشخصات ، فنفضت عنها غبار الخمول يوم صحت إرادتها على أن لا تموت بصنعها ، وقامت تجادل وتجالد في معترك المدنية فأتت بالعجب العجاب .

نحن أهل الشام أمة واحدة ، ولا خير لأبنـــاء الوطن الواحد إلا من أنفسهم . فقد نزح عنا منذ سبعين سنة الى أميركا وغيرها نحو مليون من أبنائنا وما زلنا معاشر السواد الأعظم هنا نهتم لهم أكثر من اهتمامنـا لأمة لا تربطنا بها جامعة اللسان والجنس . وهم على شاكلتنا يهتمون ببلادهم ولغتهم وما يقوّمها . وما ننس لا ننس يوم كانت اللغـــة العربية يحفظ تراثهـــا في الأعصر الأخيرة في بيع لبنان وأدياره ، أكثر من حفظه في جوامع دمشق وحلب ومدارسها ، ويوم كان في اللبنـانيين الغيورون على مجدها العالمون بما يصلحها الساعون الى نشرها .

لا يفلح قوم لا يتساندون . وكل شعب وضع قوميته في الذروة العليا من الكرامة يوقَّر ويبجَّل . ومن لي يوم الكريهة غير حمى أخي وجاري ألجأ اليه . المرءُ كثير بأخيه ، ولن تضام أمة عرفت نفسها . نحن عرب قبل أن نكون مسيحيين ومسلمين ، نحـــن شاميون قبل أن نكون أمويين وعباسيين وسلجوقيين وعثمانيين .

سعادتنا مناط الاحتفاظ بأصولنا ، ولا تمثلنا إلا قوميتنا ، وأعظم قوة لها لغتنا ، والسلام .

تاريخ الشام
قبل الإسلام

أول شعب غزا الشام والحثيون والكنعانيون :

ذكر أهل الأخبار والسير أن الشام كانت يوم عرف تاريخها مغشاة بالأشجار، ولا سيما في اللبنانين الغربي والشرقي، فجاءها من بلاد أشور رعاة نزلوا القسم الشمالي منها وما زالوا يتقدمون في فتوحهم حتى بلغوا معظم سواحل الشام واستولوا على عكا . وانقسم هؤلاء الرعاة واسمهم عمو أي الشعب الى قسمين : قسم أقام على تربية الماشية في السهول ، واحترف القسم الآخر بالاحتطاب في الجبال ، أو بالصيد على شواطىء البحر وضفاف الأنهار ، وقيل: إن ذلك كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد ولعله يرد الى أكثر من خمسة آلاف سنة، ولم يعرف من كان سكان القطر يومئذ . والغالب أن من أقدم الشعوب التي استولت على الشام الحثيين في الشمال والكنعانيين في الجنوب . والحثيون لم يعرف عنهم إلا أنهم كانوا وراء جبال طوروس بادىء بدء يسكنون الحوض الأعلى من نهري الفرات وقزل ايرمق خضعوا أولاً للكلدانيين ، ثم توسعوا في ملكهم ، واستولوا بقيادة ملكهم سابا لولو على الشمال ، وامتدوا الى وادي العاصي فاستصفوه برمته، وبنوا مدناً مثل كركميش (جرابلس) على الفرات وقادس على العاصي ،وربما كانت مدينة حلب أيضاً من بنائهم . وفي رسائل تل العمارنة التي وجدت في صعيد مصر بيان وافٍ في الجملة لحالة هذه الدولة الحثية

التي حاربت فراعنة مصر أربع عشرة سنة فلم يظفر بهم الفراعنة حتى جاء ستي الثاني فحاربهم وقهرهم .

كان الكنعانيون ينزلون في جنوب الشام وفي وسطه . ونسبتهم لكنعان جد القبائل التي سكنت غربي الأردن ، قتل الإسرائيليون أكثرهم واستعبدوا معظم من لم يقتل منهم . وكانت حدود أرض كنعان الأصلية من مدخل حماة شمالي لبنان الى البادية ، ولم تمتد الى ساحل البحر لأن الفلسطينيين ما زالوا الى أن انقرضوا يسكنون ذلك الساحل ، وقد سكن أرض كنعان عدة أسباط ورد ذكرهم في التوراة كالحثيين واليبوسيين والأموريين والجرجاشيين والحويين والفرزيين والعرقيين والسينيين والاروادين والصماريين والحماثيين . وكان في أرض كنعان ١١٨ أو ١١٩ مدينة ورد ذكرها في جدول عثر عليه في هيكل الكرنك من صعيد مصر يظن أنها المدن التي افتتحها تحوتمس الثالث من ملوك الفراعنة قبل أيام يشوع .

وفي معجم لاروس أن أرض كنعان أو بلاد كنعان يحدها من الغرب البحر المتوسط،ومن الشرق نهر الأردن، ومن الشمال خط آخذ من الأردن الى البحر، ومن الجنوب خط يسير من البحر الميت الى البحر المتوسط . وفي التوراة أن المولى تعالى وعد بني إسرائيل بهذه الأرض ومن ذلك جاء اسمها أرض الموعد . وفي أسفار موسى وسفر يشوع أن بني إسرائيل استولوا دفعة واحدة على هذه الأرض بقيادة يشوع ، ولكن تبين من الوثائق التي عثر عليها أن الأمر لم يكن كذلك وأن فتح أرض كنعان لم يكن بهذه السرعة تاماً كاملاً على ما جاء في التوراة ، فقد تمكن بنو إسرائيل من الاستقرار بصورة دائمة بالحرب والحيلة على هذه الأرض التي كان يسكنها قبائل مستضعفة من اليبوسيين والجرجاشيين والفرزيين وغيرهم من أصل كنعاني أو أموري حتى خراب مملكة يهوذا على أيدي الكنعانيين في سنة ٥٨٨ ق. م.

تعدد الحكام والحكومات :

وعلى كثرة عناية علماء النصرانية بتاريخ الأرض المقدسة أو فلسطين أو

أرض إسرائيل أو أرض الموعد لم يبرح تاريخها غامضاً بعض الشيء لقلة المصادر التي يركن إليها وأكثرها أشبه بتقاليد وأساطير منهـا بتاريخ . وهكذا يقال فيما عرف من تاريخ وسط هذا القطر وشماله في العهد القديم. وكان أكثر إماراته مستقلاً متعادياً شأن الشطر الجنوبي منهـا . وإذا لم تكن البلاد كما قال بوست تحت حكم القضاة والملوك حكومة واحدة كثرت فيها التغيرات وتعددت القضاة كشمشون وجدعون ويفتاح الى أن اجتمعت كلمة شعب إسرائيل على إقامة ملك ، ولما انقضى ملك سليمان وقام ابنه رحبعام انقسمت المملكة الى مملكتين مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا ، وبعد أن تقلبت الأحـوال على هاتين المملكتين أخذتا بالانحطاط الى أن سبى الأشوريون الإسرائيليين والبابليون يهوذا . وجملة الزمن الذي مضى من ملك داود الى سبي بابل نحو خمسمائة سنة .

الفراعنة والأشوريون :

كانت الشام بين عاملين بل بين سلطانين قويين العامل ، الأول دولة الأشوريين والبابليين إذا قويت إحداهما يمتد سلطانها على الشام أو تكتفي من أهله بالجزية وتجنيد بعضهم . وإذا كانت القوة لفراعنة مصر حكموا الشام أو اقتنعوا من سكانهـا بالجزية وبعض الجند . وقد ظلت الشام تابعة لمصر وأحياناً كانت تبعيتها اسمية نحو أربعة قرون . فقد فتحها تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث،وفي أيام تحوتمس الأول تجلت حدود الشام على الفرات . وظل الشام في حكم الفراعنة الى عهد رعمسيس الخامس . ولما خلص من المصريين داهمه الأشوريون فاستولوا عليه واعترف الشام كله بسلطة أشور وتجلت سلطة الشام على عهد تغلت فلاسر ، وكان المصريون يحتلون بعض القلاع مثل غزة ومجدو (تل المتسلم) في الداخل وجبيل وصيدا في الساحل على ما ثبت ذلك بالآثار .

كان الفراعنة على الأرجح يداهمون الشام من طريق صحراء التيه والجفار لقلة سفنهم بسبب قلـة الأشجار عندهم كما هي قليلـة في وادي دجلة والفرات،وربما كان وجود الأشجار في الشام من جملة الأسباب التي حملت

أهل بابل وأشور ومصر على مد سلطانهم على الشام. قال أحد الباحثين: كانت الشام في الألف الثالثة قبل المسيح يقطنها خليط من سكان ساميين وهم العموريون والحثيون وهم غير ساميين فهجموا على بابل. وفي أوائل الألف الثانية هجم الساميون من سكان الشام وربما كان بإيعاز الحثيين على مصر وحكموها، وهذا العهد هو عهد الرعاة (الهيكسوس) . وما برح ملوك الأشوريين والكلدانيين في القرون الأخيرة يحسنون صلاتهم مع الفراعنة ويرضون بسلطانهم الضئيل على الشام، حتى ثارت الفتن في مصر فاغتنم ولاة الشام من عمال الفراعنة هذه الفرصة وخرجوا عن الطاعة، وجمع أحد رؤساء الحثيين قبائله وأسس دولة قوية الشكيمة وقاتل المصريين، فلم يكتب لرعمسيس الأول وستي الأول من الأسرة التاسعة عشرة تقويض دعائم تلك الدولة، بل إن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم سيزوستريس اضطر بعد حرب عشرين سنة الى الرضا بما وقع وعامل ختسارو أمير الحثيين معاملة الأكفاء والأقران. ومن ذلك الحين زال حكم مصر عن فينيقيـة والشام الجنوبي وقامت في الشمال دولة مستقلة فاصلة بين مصر وأشور، وكان ذلك في حدود سنة ١٣٥٠ ق. م. .

ضعفت دولة الحثيين وعادت أشور تقوى بملوكها على الأطراف أمثال سالامنزار وتغلت فلاسر وسنحاريب يغيرون على الشام فيلقى منهم المصائب وكانوا يريدون إخضاعه ليكون لهم مجازاً الى الاستيلاء على تجارة مصر والحبشة وليبيا (طرابلس وبرقة) والبحر الأحمر والمتوسط. ولما سقطت نينوى سنة ٦٠٥ ق. م. وفي رواية سنة ٦١٢ باستيلاء ملوك المملكة الكنعانية الثانية خضع الشام زمناً قليلاً للفراعنة ثم عاد بعد انهزام نيخو وخلفائه الى سلطة ملوك بابل، وكان العهد الكنعاني عهد الخراب والدمار لأن بخت‌نصر ملك الكلدان فعل في بيت المقدس (٥٨٦ ق. م.) أفعـالاً مدهشة من الهمجية وأجلى بني إسرائيل الى بابل. ولما غلب بخت‌نصر فرعون مصر على كركميش استولى على كل مـا كان لهذا الملك بين النهرين والشام وأخذ أورشليم وسبى بعض أهلهـا وساق الأسرى الى بـابل من اليهودية وفينيقية وسورية ومصر. واليهودية اسم جزء من فلسطين سكنه الراجعون من

سبي بابل وسميت في العهد القديم يهوذا،وفي العهد الجديد قد تطلق اليهودية على جميع فلسطين وعلى بعض أرجاء شرقي الأردن ، ويرى المحققون أن اليهودية كانت تشتمل غربي الأردن وجنوبي السامرة .

الفينيقيون واستقلالهم التجاري :

ولم تكن مملكة إسرائيل بعمرانها وقوتها مثل مملكة فينيقية الصغيرة التي قامت في أرض الشام واشتهرت أكثر من غيرها من الدول الشامية، لأنها كانت دولة بحرية على جانب من الحضارة المقتبسة عن المصريين والأشوريين والبابليين ، ومعرفة زائدة بطرق البحار والتجارة في القاصية ، فكان الفينيقيون في عهد عظمتهم كالبنادقة في القرون الوسطى ببحريتهم واتساع تجارتهم،أو البريطانيين في القرنين الأخيرين بأساطيلهم وتجاراتهم،مع مراعاة النسبة بين الأقطار والعصور .

والفينيقيون من القبائل السامية التي نزلت أرض آرام أي الشام،وإقليمهم ضيق النطاق طوله خمسون فرسخاً وعرضه من ثمانية الى عشرة فراسخ بين بحر الشام وأعلى سلسلة في جبل لبنان ، وتدخل فيه صور وصيدا وأرواد وجبيل وبيروت،ومنهم من أدخل فيه البترون وطرابلس. ولم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها بل كان لكل ناحية مدينة صغيرة تستقل بها ، ولها مجالس وملك تحكم نفسها بنفسها ، وتبعث بنوابها الى أعظم مدينة فينيقية لفض المصالح المشتركة . وكانت صور محط رحال النواب منذ القرن الثالث عشر ، ولما لم يكن الفينيقيون أمة حربية خضعوا لسطوة الفاتحين من المصريين والأشوريين والبابليين والفرس وأدوا اليهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

هذا رأي سنوبوس وقال مسبيرو : إن تحوتمس الثالث تعب في إخضاع بعض الفينيقيين وقد استكانت مدائن الوسط والجنوب وهي جُبَيْل وبيروت وصيدون وصور من غير قتال ، وأخلص أهلها الطاعة لمواليهم الأجاز الى ما بعد رعمسيس الثاني وكان هذا عين الحكمة والصواب . فقد ترتب على رضاهم بالعبودية أن توصلوا الى احتكار جميع تجارة مصر مع أمم آسيا والبحر المتوسط ثم نالوا استقلالهم في أواسط القرن الثاني عشر قبل

الميلاد لما كفّ فراعنة مصر عنهم . ولكن حدث في حدود سنة ١٢١٠ ق.م أن أقلع مــن عسقلان أسطول فلسطيني ولقي أسطول صيـدا فدمره فانتقلت العظمة الى صور . ولما ملكها حيرام الأول (من سنة ٩٨٠ ــ ٩٤٦ ق.م) عقد مع داود وسليمان علاقات عادت على مملكته بالثروة والرخاء .

قال: ثم ظهر الأشوريون على الفينيقيين ورضيت صور بدفع الجزية لهم، ثم قام ملكها إيلولي (من سنة ٧٢٨ الى سنة ٦٩٢) فحـارب شلمناصر الثاني وسرجون وسنحاريب حروبـاً انتهت بهلاكه وانقراض دولته، فتبعت فينيقية الأشوريين، ولما سقطت نينوى عاد اليها استقلالها ففازت من دفاع بختنصر بمعاونـــة الفراعنة الصاويين ، واحتملت الحصار ثلاث عشرة سنة وحدثت في فينيقية ثورات في أوقات مختلفة فقمعت وفي سنة ٥٥٧ أعيدت للكلدانيين، ولما خربت بابل سنة ٥٣٨ دخلت صور في قبضـة الفرس من غير حرب ولا قتال . ومن أهم الأسباب التي حالت دون الفينيقيين وتأسيس مملكة ضخمة مؤلفة أولاً من جميع أصقاع الشام ثم من الأقطار المجاورة صعوبة التوغل في الديار الشامية لما فيها من العقاب والشعاب ، وهم في قلة وغيرهم في كثرة، فصرفوا نظرهم الى البحار وكانوا أعظم تجار وسفّار .

حروب الفرس والإسكندر :

تخلصت الشام من عوامل كثيرة كانت تتنازعها ، منها ما هو داخلي كالفتن الأهلية والحروب الداخلية . ومنهـــا ما هو خارجي كـأن يحكمها المصريون تارة والأشوريون او البابليون أخرى، ولما تراجعت هذه الأمم قامت دولة الفرس فاستولت على الشام وكانت دمشق وحماة وارفاد أهم مدنها. ولما فتحها تغلتفلاسر سنة ٧٣٣ ق.م عاد الفرس ففتحوها على عهد كسرى .

وعلى عهد دارا من ملوك الفرس جعلت صيدا عاصمة القطر وما برح في قبضة الفرس الى سنة ٣٣٣ وقد اجتاز به الإسكندر المكدوني بعد أن قرض مملكة فارس وأباد بين الإسكندرونة وجبال اللكام (امانوس) جيش دارا ملك الفرس وأخرب مدينة صور بعد أن حاصرها سبعة أشهر (٣٣٢). وكان بخت نصر حاصرها ثلاث عشرة سنة (٥٨٦ ــ ٥٧٣) ولم يستطع

فتحها . واستبسل الصيداويون وعرضوا أنفسهم للهلاك مرات في حصار الإسكندر صور،وعمل الإسكندر سداً وبدونه كان يتعذر الدنو من البلد لبعدها عن اليابسة ، وبعث السامريون له بثمانية آلاف رجل نجدة ، وأبى اليهود الخضوع له بادىء بدء . وفي سنة ٣٥١ ق.م خربت صيدا عقيب انتقاضها على ملك فارس وقتل وحرق فيها أربعون ألف نسمة .

ولما انخذل دارا في وقعة ايسوس على خليج الإسكندرونة الى الشمال منها ، وقع الرعب في قلوب الفينيقيين والسوريين فدان أكثرهم للإسكندر طائعين ، ولما وصل الى جبيل تلقاه أهلها بالبشر والحفاوة . وكان الإسكندر قد أرسل برمنيون الى دمشق ليستحوذ على خزائن دارا التي أرسلها اليها لما سار الى قيليقية لحرب الإسكندر فاستولى عليها وكان فيها من الذهب والفضة والآنية والحلي والحلل الثمينة ما لا يعد ولا يوصف،فضلاً عما كان لبعض أعيان الفرس في دمشق من المتاع والأموال . وخربت الديار التي استولى عليها الإسكندر بأيدي الفرس ، وكان من عادتهم أن يحرقوا المدن والقرى قبل أن تسقط في أيدي عدوهم .

دولة السلاقسة وملك الأرمن :

ولما هلك الإسكندر اقتسم المملكة قواده الأربعة المعروفون بالسلاقسة فكانت الشام من حصة سلوقس . وكان من أشهر مدن مملكته أنطاكية التي جعلها عاصمته وسلوقية (السويدية) وأفامية (قلعة المضيق) واللاذقية . واستولى بطلميوس والي مصر من دولة البطالسة على أرض اليهودية وفينيقية وجزيرة قبرس والمدن الساحلية من الشام . وفتح انتيغونس من خلفاء الإسكندر صور ويافا وغزة ، ولم يفتح صور إلا بعد حصارها خمسة عشر شهراً . تعاصت عليه مع أنه لم يكن مضى على فتحها سوى تسع عشرة سنة،فأعادها أهلها الى حصانتها الأولى وعادت قطب التجارة في الشرق والغرب . وجدّ بطلميوس في صنع أسطول له في جبيل وطرابلس . وجرت وقعة مهمة بين بطلميوس وسلوقس وبين ديمتريوس انجلت عن خمسة آلاف قتيل وثمانية آلاف أسير من جيش ديمتريوس،ولما رأى بطلميوس أن ليس

في قدرته محاربة انتيغونس عاد الى مصر وهدم قلاع عكا ويافا والسامرة .

كانت الدولة السلوقية اليونانية دولـة حرب ونزاع ، فغدت الشام في حالة بؤس ونحس ، رومية تطالبها ببسط سلطانها عليهـا ، ومصر تحاربها لتضمها اليها ، وأهل فارس يجتاحونها ، حتى قررت لهم السيادة الإسمية عليها ، فمنيت الشام بضعف الحال وقلة الرجال ، وضاق ذرع الشاميين بالحروب المتصلة بين ملوكهم من اليونان وعسفهم وإعنـاتهم وانقساماتهم وقتلهم أولادهم وأبناءهم وإخوتهم ، فعزموا أن يختاروا ملكاً عليهم من الأجانب فكتبوا الى تغران ملك ارمينية وأرسلوا اليه وفداً يفضون اليه بما عزموا عليه ويكاشفونه في قبوله، فأجابهم الى طلبتهم وأتى الشام سنة ٨٣ ق . م ولبس تاج ملكها واستمر ملكه فيها ثماني عشرة سنة الى أن جاءها الرومان سنة ٦٥ ق . م واستخلصوها منه .

دولة الرومان :

كان بومبيوس أول قائد روماني استولى على الشام وجعله ولاية رومانية وجعل أنطاكية عاصمتها . ولم تنجح الشام لقربها من البارثيين على نحو ما كان من سائر أقطار المملكة الرومانية . ثم انفصلت مدة عن رومية أعطاها أنطونيوس الى أحد أولاد الملكة كلوبطرا،وعادت فضمت الى مملكة الرومان على عهد الامبراطور أغسطس ، وتنقلت بها الأحوال الإدارية عـلى عهد الامبراطورين فيسباسين وأدريانوس . ولم تكد تطمئن من ناحية البارثيين بفضل الوقائع التي كتب فيها النصر للقائدين تراجان وسبتيم سيفير وانتظمت حالها وانبسط ظل عمرانها وقـام منها امبراطرة شاميون قبضوا على قياد المملكة الرومانية من عهد الأمبراطور سبتيم سيفير الى إسكندر سيفير حتى كان من عهد تأسيس مملكة الفرس الثانية على انقاض مملكة البارثيين ما جلب المصائب والنوائب لو لم يقم امثـال القـواد أدريانوس وديوكلسيانوس ويوستنيانوس ويردوا تلك الغارات .

ذكر مُومسن أن البدو واليهود والنبطيين كانوا عـلى عهد بومبيوس الروماني أصحاب السلطان في الشام ، فإن الصحاري الرملية الجافة التي

لا تسكن من حدود شبه جزيرة العرب آخذة في الغرب الى جبال الشام والشواطىء الواقعة من الجهة الشرقية الى البادية من الفرات الأسفل المخصبة. هذه الصحراء لم تبرح موطن أبناء إسماعيل العرب ، ينصبون فيها خيامهم ويرعون أنعامهم ويطاردون على خيولهم المطهمة القبائل المعادية لهم أو يغزون التجار الآتين مع القوافل . ولما كان الملك تيغران قد أخذ بأيدي أبناء البادية لحاجته اليهم في التجارة اهتبلوا الغرة في هذا الاضطراب الذي جعل أمور الشام فوضى ليتوسعوا في الشمال،وكان للقبائل القريبة من الشام ممن كانوا على شيء من الحضارة القِدْح المعلّى في هذا الشأن .

وكان زعماء قبائل البادية أشبه بعصابات منفردة يساوون أبناء البادية ويفوقونهم في قطع الطرق والإضرار بالسابلة . وهكذا شأن بطلميوس بن مينوس،وربما كان أقوى هؤلاء اللصوص وأغنى أهل عصره . وكان يحكم إقليم الإيطوريين ، أي الجبليين ، وهي كور الدروز اليوم في أودية جبل لبنان،وحكمه نافذ من الشطوط الى بعلبك،وهكذا حال ديونيزوس وكنيراس صاحبي مدينتي طرابلس وجبيل . ومثل ذلك كان شأن اليهودي سيلاس في قلعته على مقربة من أفامية على العاصي .

مملكة يهودا وانقراض اليهود :

حاول اليهود في جنوبي الشام توطيد سلطانهم السياسي،فأنشأ المكابيون وهم يهود يحترمون عبادتهم ويقدسونها،حتى توصلوا بذلك الى إنشاء مملكة وراثية،جمعت الى الرئاسة الدينية الرئاسة الدنيوية،ثم فتحوا كوراً في الشمال والشرق والجنوب . ولما مات الشجاع جاني الكسندر سنة ٦٧٥ كانت مملكة يهودا ممتدة نحو الجنوب الى جميع أرض الفلسطينيين حتى التخوم المصرية، ونحو الجنوب الشرقي الى مملكة النبطيين في البتراء ، والى الجنوب الى ما وراء السامرة والمدن العشر الى بحيرة طبرية . فكانت الشواطىء بأيدي اليهود من جبل الكرمل الى العريش وفي جملتها مملكة غزة . وكانت عسقلان مدينة حرة . وأصبحت مملكة اليهود مرافىء حرة للصوص البحار بعد أن كانت مفصولة عنها فيما غبر من الأيام .

ولذلك اضطهد الرومان اليهود كثيراً فنالهم في أيام هيرودس من الاضطهاد وإهراق الدماء ما نالهم ، وفي أيام فلورس الوالي الروماني لحقهم في كثير من مدن فلسطين ضروب الأذى والقتل . ونكل السوريون باليهود عملاً بإشارة الوالي الروماني . وأحرق الرومان أورشليم ودمروا المدن وسبوا اليهود وثار هؤلاء على الرومان سنة ١٣٢ فقتل الرومان منهم ٥٨٠ ألفاً وأحرقوا ودمروا تسعمائة قرية عدا الحصون،وأسروا كثيراً منهم بعثوا بهم الى رومية حتى انقطعت شأفتهم من فلسطين مدة خمسة عشر قرناً .

قالوا:لما دخل المسلمون أرض اليهودية لم يجدوا يهوداً لأن حروب فسباسين وتيطس وتراجان وأدريانوس واضطهادات ملوك النصرانية لم تترك حجراً على حجر من اليهودية السياسية والوثنية ، أمعنوا في القضاء عليها وذروا رمادها في الرياح الأربعة،ففقدت في فلسطين جميع التقاليد اليهودية وجماع اليهود الذين تراهم هم من الطراء على فلسطين مؤخراً نزلوها بعد أن بادوا منها مدة خمسة عشر قرناً .

الإيطوريون والنبطيون :

ذكر مومسن في كلامه على الاضطرابات والمنافسات بين الرؤساء في الشام أن المدن الكبرى مثل أنطاكية والسويدية ودمشق هي التي كان ينالها الأذى من جراء ذلك ، فيصاب الزراع بزراعتهم،والتجار بتجارتهم البرية والبحرية . ولا يستطيع سكان جبيل وبيروت حماية حقوقهم وسفنهم من هجمات الإيطوريين وكانوا استولوا على اللبنانين الشرقي والغربي ونزلوا فينيقية وجعلوا عين جر (عنجر) عاصمتهم الأولى ، ثم اتخذوا طرابلس عاصمتهم الأخرى،وغدوا يطيلون أيدي التعدي على البر والبحر من حصونهم العالية . ويحاول سكان دمشق أن يدفعوا عن أنفسهم عادية الإيطوريين والبطالسة ، وذلك بخضوعهم لملوك القاصية مثل النبطيين واليهود . وتدخل سامسيكراموس وازيوس في أنطاكية في الخلافات المدنية بين الوطنيين فأصبحت هذه المدينة اليونانية عاصمة أمير عربي .

خضع سكان دمشق للنبطيين أصحاب البتراء أو سلع لأنهم أصبحوا

أصحاب الحول والطول في الشام ومصر لما دب فيها من الضعف نحو سنة ١١٠ الى ١٢٠ ق. م. بالحروب المتأصلة . وقد كان النبط يغيرون على أرض مصر والشام بعصاباتهم فحاربوا الأدوميين وأسسوا ملكاً بالبتراء . ولم تبرح دمشق ملكاً للنبطيين والأولى أن يقال : إن هذه المدينة أعطاها كاليجولا الروماني الى الحارث صاحب البتراء (٨٥ ق. م) وتراجع أمر النبطيين بسرعة على عهد مالتوس الثاني نحو سنة ٤٨ الى ٧٠ ق. م فأضاعوا دمشق. ثم فقـد النبطيون استقلالهم في سنة ١٠٥ م عقيب حملة كرنيليوس بالما حاكم الشام الذي استولى على البتراء، وأصبحت جرش الى سنة ١٦٢ خاضعة لولاية الشام ثم للبتراء، ثم ضمت فينيقية الى الشام . وكانت لمملكة النبط القديمة بلدتان مهمتان بُصرى والبتراء .

وروى بعضهم أن بومبيوس لما فتح الشام واستولى على دمشق وما جاورها أبقى لهذه العاصمة بعض استقلالها وكذلك لبصرى وجَرش وعمّان ، وبعد فتح البتراء وجعلها ولاية رومانية غدت بصرى عاصمة حوران مقر الفيلق فعمرت الأقاليم وكانت ميدان السلب والنهب من قبل ، وازدانت المدن بآثار تدهش خرائبها وأطلالها . وغزا أنطوخيوس النبطيين سنة ١٣٢ ق. م فلم ينل منهم ثم حاصرهم ديمتريوس .

كانت مملكة النبط على عهد المكابيين ممتدة بين فلسطين وخليج العقبة ووادي الحجر والبحر الرومي، وهي عبارة عن مملكة أدوم قديماً ويسميها اليونان مملكة العرب الحجرية وعاصمتها مدينة سلع أو البتراء في وادي موسى ، وسماها بعضهم مدينة الرقيم ظناً منه بأنها مدينة أصحاب الكهف . واسم البتراء أقرب الى الاسم الذي عرفها به اليونان وإن كانت البتراء على ما ورد من وصفها في كتب العرب هي في أرض الحجاز . قامت هـذه الدولة العربية على حين غفلة من دولة البطالسة والسلاقسة في مصر والشام وقوى سلطانها في القرن الثاني قبل الميلاد . ولقب الحارث الثالث نحو سنة ٨٥ بمحب اليونان وهو الذي فتح البقاع سنة ٨٥ واستولى الحارث الرابع على دمشق وفي أيامه حدث المصافُّ الأول بينه وبين الرومان فاضطر الحارث أن يؤدي اليهم الجزية . واضطر النبطيون على عهد الامبراطور بومبيوس

وأخلافه أن يقدموا جنداً من أبنائهم الحين بعد الآخر لمعاونة الرومان وظلت مملكتهم حرة قوية . وأصبحت مملكة النبط ولاية مستقلة برأسها نحو سنة ٣٥٨ تحت اسم مملكة فلسطين أو فلسطين المسالمة. وحمل الإمبراطور تراجان على النبطيين فبدد شملهم وقضى عـلى مدنيتهم سنة ١٠٦ م فاندمجوا في غيرهـم وعدد ملوكهم أربعة عشر ملكاً منهم من اسمه الحارث ومنهم عبادة ومنهم مالك وبينهم بعض الملكات من النساء .

دولة تدمر :

ولما تراجع أمر مملكة النبط في نحـو منتصف القرن الثالث للمسيح ، لارتقاء مملكة تدمر ومملكة فارس اللتين نازعتاها التجارة ، أخـذت تدمر ترتقي بتجارتها وأصبحت زمناً هي ومملكة النبط مركزي التجارة في الشام ونقطة اتصال الشرق بالغرب . وانضمت مملكة تدمر الى ممالك الرومان نحو السنة السادسة والثلاثين قبل الميلاد . وكان القائد مرقس أنطونيوس عائداً من حرب الملوك الأرشكيين،فحاول الاستيلاء على تدمر فقاومه أهلها على الفرات وتغلبوا عليه . وبعد ذلك توطدت العلائق الحسنة بين تدمر ومملكة الرومان ونالت حقوق مستعمرة رومانية بفضل بعض امبراطرة الرومان .

ويرى رنزفال أن العهد الذي فيه ارتقت حاضرة رينب أي تدمر الى أوج التمدن هو نفس الزمن الذي به تواتر على عرش رومية بعض الملوك الشرقيـين كسبتيميوس ساويرس وإسكندر ساويرس وفيلبوس العربـي ، فلا عجب إن جرأ أذينة الأول على خلع السلطة الرومانية وإقامـة دولة مستقلة تضم البادية وديار العرب الشمالية . وكان هذا الرجل ابن خيران ابن وهبلات بن نصور من بني السميدع انتهز الفرصة وادعى الملك سنة ٢٥٠ م فقتله القيصر الروماني . وحارب أذينة وأخلافه الفرس غير مرة كانوا فيها يستظهرون عليهم ويحرزون رضا الامبراطورية الرومانية .

ولقد خرج عـلى أذينة قائد روماني اسمه كياتوس فحاصره أذينة في حمص ، فلما ضاقت به الحال خانه قائده كاليستوس وقتله،ففتحت أبواب حمص ثم قتل كاليستوس،فأقر إمبراطور الرومان لأذينة بحق الرئاسة ودعاه

امبراطوراً على جميع أنحاء المشرق أي على الشام والجزيرة وآسيا الصغرى خلا بعض نواح في الشام ، ودعي ملك الروم . وأول ما سعى له القضاء على الاضطهاد الذي أصاب النصارى في بعض مدن الشام كأنطاكية وحمص ودمشق وقيسارية ، فأطلق الحرية الدينية لكل الطوائف ، وأوعز الى الوثنيين ألا يتعرضوا للنصارى في قضاء فروض عبادتهم ، ورخص لهم في إقامة البيع والكنائس،وأدب العصاة من بقايا جيوش كاليستوس وكانوا انتشروا في الأرجاء وعكروا صفوها باعتداءاتهم . وقاتل ملك الفرس مرة ثالثة وظفر بـه ثم قُتل بيد ابن اخيه مَعَنّى مع ابنه هيروديس وبويع لمعنى . إلا أن أهالي حمص ثاروا به بعد أيام وقتلوه .

زينب أو زنوبيا أو الزباء :

وكانت زينب او الزباء او زنوبيا زوجة أُذينة الثاني،فولدت له ثلاثة أولاد أكبرهم وَهْبَلات ثم خَيْران ثم تيم الله،فلما قتل أُذينة أخذت زوجته بأزمة الملك بالنيابة عن وهبلات بكرها، وكان لها مجلس شيوخ ترجع الى رأيه ولها من الحلم وحسن الإدارة والسياسة والكرم ما عدت به من أعظم الملوك والملكات . وكانت نفسها تحدثها على ما يقال بالاستيلاء على المملكة الرومانية . وعقدت مع سابور ملك الفرس معاهدة وكان يخشى بأسها . وغصت عاصمتها بأجناس الشعوب والعناصر وكان سوادهم الأعظم من العرب والنبط .

وكان بنو السميدع يسكنون بادية الشام في أوائل النصرانية ولهم دولة في تدمر ونواحيها،كما كانت دولة النبطيين في شرقي جنوب الشام . فظهر بنو غسان بعد خراب سد مأرب وسيل العرم ، واستولوا على أرجاء فلسطين ودمشق،وكانت سبقتهم قبيلة بني سليح من قضاعة وسكنت البلقاء فانتشروا في القطر أواخر القرن الثاني للمسيح . وفي خلال تلك المدة قدمت فرقة من بني لخم الى جنوبي فلسطين وامتدوا في غربي بحيرة لوط،وبرز قوم من مضر يعرفون ببني كلب امتدوا من أنحاء الحجاز الى جنوبي الشام

ونزلوا في جوار دومة الجندل (الجوف) فأذعنت بقايا هذه القبائل لزينب فاستأجرتهم وأدخلتهم في جملة جيشها . وخاف غاليانس قيصر عادية زينب وقد أصبحت محبوبة من الشعوب فوجه جيشاً لقتالها فغلبه جيشها وانهزم فلُّ الجيش الروماني . ثم حدثتها نفسها أن تستولي على مملكة بيثينية فقهرتها وبلغت خلقيدونة فدعا سكانها القيصر اوريليانس الى نصرتهم ففاجأ التدمريين في بيثينية نحو ٢٧١ — ٢٧٢ فطردهم عنها،ثم واصل فتوحاته فتغلب على غلاطية وقبادوقية حتى بلغ مدينة أنقرة ففتحت له أبوابها .

وكانت زينب في سنة ٢٧١ أمدت عاملها فيرموس على مصر بالقائد زبدا لصد هجمات الرومان الذين قدموا مصر بقيادة بروبس ، فنشب بين الفريقين قتال انهزم فيه التدمريون تاركين مصر الى الأبد ، وعاد زبدا مع بقايا عسكره . وكانت زينب أعدت جيوشها لمقاتلة الرومان وقسمتها ثلاثة أقسام بقيادة زبدا وزباي . وجهت القسم الاول الى طريق حلب، والثاني الى طريق حمص ، والثالث الى القريتين وهي تتقدمهم بنفسها . وجاءها جيش الرومان من الشمال ففتحوا مدينة طيانة ومدائن جبال طوروس حتى قربوا من أنطاكية،فأمرت زينب قوادها أن يناوشوا الرومان القتال فشتت عساكرها عسكر الرومان في الوقعة الأولى ، ثم ارتد عسكر الرومان على التدمريين فكسروهم،فملك اوريليانوس أنطاكية وذهبت زينب الى حمص فتأثرها الجيش الروماني ففتح في طريقه عدة مدن على ضفة العاصي مثل أفاميا وشيزر (لاريسا) والرستن وبلغ ربض حمص .

واستعدت زينب لقتال القائد الروماني في سبعين ألفاً،وكان عدد جيشه أقلّ من جيشها إلا أنه أكثر مراناً على الحرب وأسرع في الكر والفر . فانكسر جيش زينب كسرةً عظيمة واستولى على حمص . فلم يسع زينب إلا أن تسرع الى تدمر للدفاع عنها ، وخف اوريليانس الى حصار تدمر. وتخلى عن نصرتها حلفاؤها من الفرس والأرمن والعرب ثم وقعت زينب في قبضة القيصر الروماني ، وفتح التدمريون أبواب مدينتهم للرومان في في أول سنة ٢٧٣ ، فوضع اوريليانس حامية قليلة وأخذ معه زينب وأسرى التدمريين الى آسيا الصغرى،فبلغه في طريقه الى رومية أن التدمريين ثاروا

بالحامية التي خلفها عندهم فكرّ راجعـاً عليهم وأعمل السيف فيهم أياماً وقوض الأبنية والهياكل ودك الأسوار والقلاع ، فخربت تدمر خراباً لم تنتعش منه .

آخر عهد الرومانيين وسياستهم :

كثرت الفتن على عهد دولة السلاقسة خلفاء الإسكندر واستقلت فلسطين في عهـد المكابيين (١٤٣ ق . م) لاشتغال السلاقسة بحروبهم . وامتد سلطانها من البحر المتوسط الى الفرات . واحتفظت بحريتهـا حتى تدخّل بالأمر القائد بومبيوس الروماني وبسط سلطان دولتـه سنة ٦٣ ق . م ولما أراد الرومان إضافة فلسطين الى ولاية الشام الرومانية ثار اليهود فأدى ذلك الى حصار بيت المقدس وخراب معبد سليمان على يد تيتوس سنة ٦٦ ب.م وثار اليهود في فلسطين بقيادة باركوخبا (١٣٢ — ١٣٥ م) فحاربهم ادريانوس الروماني وأخضعهم بعد حرب هائلة قتل فيها قائدهم،وأصبحت سورية ولاية رومانية سنة ٦٤ ولما وقعت الفتن بين اليهود والرومانيين في فلسطين سنة ٦٦ لم يبق من مملكة اغريبا وهي الجولان أحد من أهلها . لان اغريبا مضى لزيارة غلوس والي سورية في قيسارية وأناب عنه رجلاً اسمه فاروس ، فأتى اليه وجهاء بعض المدن من اليهود يسألونه أن يرسل اليهم جنوداً يسهرون على راحتهم،فبدلاً من أن يحسن ملتقاهم بعث قوماً قتلوهم ليلاً عن آخرهم . ثم لم يدع جوراً ولا اعتسافاً إلا وأقدم عليه . ولما بلغت اغريبا أخبار ظلمه عزله ولم يقتله لاتصال نسبه بأحد ملوك العرب.

وزحف غلوس الى زابلون ففر أهلها الى الجبال فانتهبها وأحرق بيوتها التي لم تكن أبنية صور وصيدا وبيروت أحسن منها،ونهب وأحرق القرى المجاورة لها وعاد الى عكا، فنشط اليهود لعودته وطاردوا السوريين فقتلوا منهم ألفي رجل أكثرهم من بيروت ، ثم سار غلوس الى قيسارية وأرسل كتائب من جيشه الى يافا فباغتوا أهلها وقتلوهم عن آخرهم ونهبوا المدينة وأحرقوها وكان عدد القتلى ثمانية آلاف وأربعمائة .

وأرسل غلوس أيضاً حملة الى السامرة قتلت كثيرين من أهلهـا ثم

أرسل فريقاً آخر الى الجليل ففتحت مدينة صفورية (صافوريس) أبوابها لجنود الرومانيين واقتدى بها غيرها من المدن،واعتزل المشاغبون في جبل عرقون المقابل لصفورية،فسار إليهم الجند فظهروا عليهم وقتلوا منهم أكثر من مائتي رجل،وأحدقوا بالجبل من كل جهة فقتلوا منهم نحو ألف إنسان ثم أحرق أفيق (فقوعة) والفولة والقرى المجاورة لها .

وتسلسلت هذه الوقائع الرومانية في هذا القطر،فسار فسبسيان الروماني الى الكرك (تاريكا) فقتل منهم وانهزم كثيرون في سفنهم وأبعدوا في بحيرة لوط فكان عـــدد القتلى من اليهود في البحر والمدينة ستة آلاف وخمسمائة رجل . وبعد أن قهر الرومانيون كرك وجفت — وجفت غربي قانا الجليل على مقربة من جبل كوكب كاران — استسلمت باقي المدن وهلك من أهل كامالا شرقي البحيرة خمسة آلاف،ثم خضعت بعض مدن فلسطين وقتل في القدس ثمانية آلاف وخمسمائة سنة ٦٨ وجعلت القدس مستعمرة رومانية (١٣٦) باسم ايليا كابيتولينا،ثم انقضت قرون في سلام على الجملة ، ولم يدخل الشام في حرب خارجية .

كانت معاملة الرومان للشاميين بادىء بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب . ولمـــا شاخت دولتهم انقلبت الى أتعس مما كانت عليه من الرق والعبودية . ولم تُضف رومية بلاد الشام إليها مباشرة،ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ، ولا أرضهم أرضاً رومانية،وظلوا غرباء ورعايا وكثيراً ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال . وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام .

وفي سنة ٥٤٠ جـــاء ملك الفرس خسرو الأول واسمه عند العرب أنوشروان في جيوشه الضخمة ودخل الشام وظلّ فيه ثلاث سنين،وطرد بليزير الروماني الفرس سنة ٥٤٢ وعادوا إليها بعد وفاة يوستنيانوس بزعامة خسرو الثاني،والتحم القتال مع ملوك الساسانيين وطردهم الامبراطور هرقل

الى ما وراء عبر الفرات. وفي هذه الحقبة خربت أنطاكية بفتح الفرس لها وقتلهم أهلها . وكانت مدة ثمانية قرون من قبل مهد المدنية الشرقية .

حكم الرومان الشام سبعمائة سنة كانت فيه ميداناً للنزاع والشقاق والاستبداد والأنانية وقتل الأنفس . وحكم اليونان الشام ٢٦٩ سنة سادت في عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم وظهرت المطامع اليونانية بأعظم مظاهرها وكان حكمهم من أشد الويلات وأشأم النكبات على الشاميين في التاريخ العام : نرى العوامل الرومانية والبيزنطية قد أثرت في عرب الشام أخلاف العمالقة القدماء، وكانوا يتقوون كل مدة بمن يهاجر إليهم من اليمن والحجاز، فكانت المملكة الرومانية محتاجة لمعاونتهم سواءٌ كان ذلك لحرب أبناء جنسهم النازلين على ضفاف الفرات، أو لإملاء فراغ الشام وكان يتهدده البارثيون ثم الفرس . ومعلوم كيف قاومت أرملة أُذينة واسمها زينب أو زنوبيا القوى الرومانية في الشرق . ولما انحلت مملكة تدمر عهدت الامبراطورية الرومانية الى أسر أُخرى بالحكم في تلك الأرجاء وثبتت الإمارة في الغساسنة . ودامت فيهم ثلاثة قرون. ودان رؤساء الغسانيين بالنصرانية فاشتركوا في حرب فارس من القرن الرابع الى القرن السادس،وكان أحدهم الحارث الخامس من قوام مقام القائد بليزير في حملة آسيا .

بنو غسان والعرب في الشام :

اختلفت روايات مؤرخي العرب في بني غسان وكانوا أقيالاً وعمالاً لملوك البيزنطيين في هذه الديار . وقد عهد إليهم الدفاع عن تخوم الشام من اعتداء الفرس ورد غارات اللخميين أصحاب الحيرة . وكانت سلطة الغسانيين كما قال شلفير تتناول الولاية العربية (أو معظم اقليم حوران والبلقاء وفينيقية ولبنان وفلسطين .) وقال حمزة الأصفهاني وأبو الفداء: إن عددملوك الغسانيين في الشام أحد وثلاثون ملكاً على حين لم يبلغ عددهم في أكثر من عشرة في رواية ابن قتيبة والمسعودي . ويقول الأصفهاني إن الحارث بن جبلة هو من أشهر ملوكهم لم يطل حكمه أكثر من عشر سنين ، ويقول مؤرخو الروم: إنه حكم نحو أربعين سنة وهو المحقق. وكان

للغسانيين تمدن فاقوا به اللخميين لاختلاطهم بالروم البيزنطيين . ولم تكن لهم عاصمة معينة بل كانوا ينزلون الجولان والسويـــداء والجابية وجلّق . وكان الغسانيون يؤدون الجزية عندما هاجروا من اليمن الى الشام الى رؤساء الأسباط من الرومان، ثم امتنعوا من أدائها عندما نالوا من الضجاعم واستولوا على الأمر دونهم، فاضطر الروم أن يقروا الغسانيين على أمرهم لحاجتهـــم اليهـــم في رد عادية اللخميين سكان الحيرة . وربما كان ذلك في أواخر القرن الخامس للميلاد .

وفي سنة ٥٢٩ عهـــد الامبراطور يوستنيانوس الى الحارث بن جبلـــة ـ وكان الحرث يدين بالنصرانية على مذهب القائلين بطبيعـــة واحدة في المسيح متحمساً لهذا المعتقد ذابـــاً عنه ـ بزعامة جميع القبائل العربية في الشام ونـــال لقب رئيس الأسباط وبطريق . وكان هـــذا اللقب في مملكة البيزنطيين إذ ذاك أرقى لقب بعد الإمبراطور . وفي تلك السنة اشترك مع البيزنطيين في قمع ثورة السامريين وانقضى معظم عهده في حروب المنـــذر الثالث ملك الحيرة ، وفي سنة ٥٢٨ تغلب على المنذر ، وبعد نحـــو عشر سنين أصبحت المنافسة بينه وبين المناذرة على أتمها بسبب أراضي التخوم الواقعة بين دمشق وتدمر الى الرصافة وكان كل واحد منهما يدعيها . قال هوار: إن الحارث الغساني كسر المنذر ملك الحيرة سنة ٥٢٨ وإنه لما كان والي فلسطين اشترك في إعادة السامريين الى الطاعة فوهبه يوستنيانوس لقب الملك ليقضي على العرب الذين كانوا إقطاعـــاً لملوك الساسانيين من الفرس ، وكان كثيراً ما يجتاز دجلة ويخرب المعمور ويحمي قبائـــل العرب النازلة في برية تدمر من اعتداء المناذرة . وكانوا يحاولون أن يأخذوا منهم الجزية وحاربهم على الطريق الحربـي الذي كان ممتداً من دمشق الى تدمر .

حارب الحارث مع الرومان في العراق، ثم حـــارب المنذر الحارث وأسر ابنه وقدمه ضحية للعزّى . وفي سنة ٥٥٤ ظفر الحارث بالمنذر في جهات قنسرين فهلك المنذر في المعركة . وخلف الحارث ابنـــه المنذر وتغلب على العرب الفرس الذين هاجموا منازل الغسانيين وظفر بملكهم قابوس في عين أباغ على الأغلب . وحاول ملك الروم قتل المنذر فرفع لواء العصيان ثلاث

سنين، ولما عصى العرب والفرس على بيزنطية اضطرت هذه أن تعقد الصلح مع المنذر، ثم حُمل هذا الى القسطنطينية أسيراً وانقطعت الأموال التي كانت تعطيها له مملكة الروم فثار أولاده الأربعة بقيادة النعمان بكر أولاد الحارث وهاجموا أراضي الروم وخربوا فيها، فأخذ النعمان أسيراً أيضاً. ولكن الفوضى انتشرت في بادية الشام وأخذت كل قبيلة تختار لها زعيماً خاصاً وهواهم مع الفرس. ولما سقطت دمشق والقدس في يد ملك الفرس كسرى ابرويز (٦١٣ – ٦١٤) انهارت مملكة الغسانيين. وقيل: إن جبلة بن الأيهم كان آخر ملوكهم. هذا ما يعرف عن الغسانيين في الجملة نقلاً عمن حقق أمرهم من مؤلفي الغرب.

ولما حاصر كسرى مدينة القسطنطينية خلت أرض الشام من جند الروم. وكان في مدينة صور أربعة آلاف يهودي فكتبوا الى إخوانهم ببيت المقدس وقبرس ودمشق وجبل الجليل وطبرية أن يجتمعوا كلهم في عيد فصح النصارى ليقتلوهم بصور، ويصعدوا الى بيت المقدس فيقتلوا كل نصراني بها ويغلبوا على المدينة، فبلغ الخبر بطريق صور فأخذ اليهود وقيدهم وسجنهم وأغلق أبواب صور وصير عليها المنجنيقات والعرادات، فلما كانت ليلة الفصح اجتمع اليهود من كل بلد الى صور وكانوا زهاء عشرين ألف رجل، فحاربوهم حرباً شديدة من فوق الحصون، فهدم اليهود كل كنيسة كانت خارج صور فكانوا كلما هدموا كنيسة أخرج أهل صور من اليهود المقيدين عندهم مائة رجل وأوقفوهم على الحصن وضربوا أعناقهم ورموا برؤوسهم الى خارج، فضربوا أعناق ألفي رجل ثم انهزم اليهود.

كنا نحب التوسع في سرد وقائع تلك الدول لولا الخوف من نقل ما لا يقره المحققون. والتعرض للمجهولات يؤدي الى السقوط في غلطات ومتناقضات. ولعل بحث علماء العاديات يوصلهم الى اكتشاف ما كان مجهولاً من تاريخ هذه الديار التي طالما شرقت بدماء الغالبين والمغلوبين وسارت على أديمها دول كان الناس في ظلها ظالمين ومظلومين، وقتل أهلها بالألوف والمئين في سبيل شهوات الفاتحين.

الشام في الإسلام

« من سنة ٥ الى سنة ١٨ للهجرة »

حالة الشام قبيل الفتح :

دعا الداعي الى الإسلام في جزيرة العرب وكثر من دانوا به ، فكان الشام من أول الأقطار المجاورة للحجاز التي فكر الرسول العربي (عليه الصلاة والسلام) في فتحها لنشر كلمة التوحيد ، وكانت تحت حكم الرومان منذ سبعة قرون ، وملكها صاحب مملكة بيزنطية أو مملكة الروم الشرقية ويعرف عند العرب باسم هرقل . وكان سكان هذه الديار من سريان وعرب وروم وفرس أصحاب علاقات مع الحجاز بالتجارة، كما كانت علائق عرب الحجاز في الجاهلية[1] كثيرة جداً بأهل هذا القطر، وأهم ما كان يرجى منه تيسير الفتح أن كانت قبائل عربية كثيرة تنزل الشام وتشارك دولة الروم في الأحكام، وأشهرها غسان في الجنوب وتنوخ في الشمال وتغلب في الشرق . وكانت هذه القبائل العربية دانت بالنصرانية وتركت عبادة الأصنام والأوثان . فقويت الروابط بينها وبين البيزنطيين فكانوا يؤدون لزعمائهم الرواتب ليقفوا في وجه البادية في الجنوب حتى لا يهاجموا الشام، وفي وجه الفرس في الشرق حتى لا يهددوا آسيا الصغرى .

---

(١) الجاهلية هي الحال التي كان عليها العرب زمن الفترة قبل الإسلام ، والإسلام من حين انتشر وشاع في الناس وذلك قبل هجرة الرسول الى المدينة بنحو ست سنين.

وكان الفرس قبل الهجرة النبوية بثماني سنين فتحوا الشام (سنة ٦١٣ـ ٦١٤ م) فدافع هرقل عنها سنة ٦٢٦ وانتصر على كسرى ولكنه فقد بانونيا ودلماسيا من أجزاء مملكته، سقطتا في أيدي الخرواتيين والصربيين وخوى نجم المملكة وساء طالعها وظهرت عليها أعراض الانحطاط، فارتأى هرقل أن يلقي بقياده الى البطريرك سرجيوس القائل بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة في المسيح (عليه الصلاة والسلام) . وكانت النصرانية تشعبت الى مذاهب مختلفة كنحلة النساطرة واليعاقبة ، ويكره جميع أرباب هذه المذاهب حكومة الروم وكانت تضطهدهم باسم المذهب الأرثوذكسي وعداوتهم لها تزيد على الأيام تأصلاً .

كانت مصر والشام من جملة الأقطار التي تحاول الانفصال عن بيزنطية وشغل الامبراطور وشعبه بالمسائل الدينية والخلافات المذهبية ، فأخذ ينظر الى غارات العرب نظر العاجز الضعيف ، وزاده ضعفاً شيخوخته واستسلامه لرجال الدين ، مع أنه كان على ضعف إرادته شجاعاً عاملاً بعيد النظر. وما حال ملك ينخر جسمه سوس الفساد في الداخل ، وهل لمن ضعف جسمه واختلت قواه أن يرسل نظره الى القاصية فيتقيها وهو على اتقاء ما لديه من المنهكات أعجز ؟ فلا عجب أن أصبحت أحوال الشام من أشد ما يكون ملاءمة لفتوح العرب في تلك الحقبة من الزمن ، وأسباب الظفر موفورة لهم من كل وجه .

هذا وخزائن هرقل فارغة، ومرتبات الأمير الغساني التي كانت الدولة تجريها عليه منقطعة . والنفوس في الشام مستاءة من المظالم والمغارم، سئمت الحروب والغارات وهي عرضة لمطامع الفرس أو سوء إدارة الروم، والناس يتحدثون بقرب انفراج الأزمة على أيدي الفاتحين من العرب ، وكان يبلغهم من أخبار عدلهم ما تثلج له الصدور ، وتود لو ترى قبل ساعة طلعة الدولة الجديدة التي أتت من الأعمال ما صعب على الفاتحين أن يأتوا مثله في باب العدل والرحمة والتسامح .

صلح دومة الجندل وغزوة ذات السلاسل ومؤتة ـ والجرباء وأذرح ومقنا وجيش أسامة :

لما انتشر الإسلام في جزيرة العرب حجازها ويمنها ونجدها أخذ الرسول يغزو الروم في الشام غزوات قليلة ويرسل سرايا ضئيلة تزيد بحسب الحاجة حتى يتعرف المسلمون طرق الشام وأمصاره ويسبروا غور الروم واستعدادهم. وكانت أول غزواته على رأس تسعة وأربعين شهراً من مُهاجَره . بلغه أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وأنهم يظلمون من مرَّ بهم من الضافطة [1] وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة وهي طرف من أفواه الشام، بينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة . فندب رسول الله الناس واستخلف على المدينة وخرج في ألف من المسلمين فكان يسير الليل ويكمن النهار ، ومعه دليل له من بني عذرة فأخذ نعمهم وشاءهم ورجع لم يلق كيداً .

وفي سنة ست ندب الرسول عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل وقال له: إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم، فدعاهم الى الإسلام فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي ، وكان نصرانياً وكان رأسهم ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من أقام على إعطاء الجزية ، وتزوج عبد الرحمن بتُماضِر بنت الأصبغ . وكان صاحب دومة أكيدر بن عبد الملك في طاعة هرقل ملك الروم يعترض سفر المدينة وتجارهم، فصالحه الرسول على الجزية على كل حالم في أرضه ديناراً وكتب له ولأهل دومة كتاباً وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : من محمد رسول الله لأكيدر دومة حين أجاب الى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها أن لنا الضاحية [2] من الضَّحل والبَوْر والمعامي وأغفال الأرض والحَلْقة والسلاح والحافر والحصن، ولكم الضامنة من النخل

---

(١) الضافطة : الذين يجلبون الميرة والطعام .

(٢) الضاحي : البارز . والضحل: الماء القليل. والبور : الأرض التي لم تستخرج. والمعامي: الأرض المجهولة . والأغفال: التي لا آثار فيها . والحلقة: الدروع . والحافر :الخيل والبراذين والبغال =

والمعَين من المعمور ، لا تُعدل سارحتكم ، ولا تُعدُّ فاردتكم ، ولا يحظر النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر من المسلمين ».

وأرسل الرسول كتباً الى هرقل والحارث بن أبي شمر يدعوهما الى الإسلام وهذا نص الكتاب الذي بعث به مع دحية الكلبي على يد عظيم بُصرى ليدفعه الى هرقل وهو بالشام على ما جاء في الصحاح : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسْلم تَسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين[1] . ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك بـه شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » اهـ . وكتب الرسول الى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق وبعث إليه بشجاع بن وهب . وكان فروة بن عمرو الجُذامي عاملاً لقيصر على عمَّان من أرض البلقاء قد أسلم وأنفله الى الرسول رجلاً يقال له مسعود بن سعد من قومه ، وأهدى الرسول بغلة يقال لها فضة وحماره يعفور وفرساً يقال له الظرب وأثواباً من كتان وقباء من سندس مخرَّصاً[2] بالذهب ، فقبل رسول الله كتابه وهديته وكتب إليه جواب كتابه

= والحمير . والحصن : دومة الجندل . والضامنة : النخل الذي معهم في الحصن . والمعين : الماء الدائم. وقوله : لا تعدل سارحتكم اي لا يصدقها المصدق (اي الذي يعدها ويأخذ صدقتها والمصدق عامل الزكاة الذي يستوفيها من أربابها صدقهم يصدقهم فهو مصدق) إلا في مراعيها ومواضعها ولا يحشرها . وقوله : لا تعد فاردتكم اي لا تضم الفاردة الى غيرها ثم يصدق الجميع فيجمع بين متفرق الصدقة .

(١) الأريسيون : الفلاحون وقيل : الأتباع .

(٢) الخرص : بالضم ويكسر : حلقة الذهب والفضة .

وأجاز رسوله مسعوداً بأثنتي عشرة أوقية ونش [١] وبلغ قيصر إسلام فروة ابن عمرو فحبسه حتى مات فلما مات صلبوه — قاله ابن سعد .

وفي السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول سرية كعب بن عمير الغفاري الى ذات أطلاح من ناحية الشام وهي وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات وكان ينزلها قوم من قضاعة ، ورأسهم رجل يقال له سدوس ، فخرج في خمسة عشر رجلاً فوجد جمعاً ، كثيراً فدعاهم الى الإسلام فأبوا أن يجيبوا وقتلوا أصحاب كعب جميعاً،وتحامل رجل منهم حتى بلغ المدينة . وفي هذه السنة استنفر الرسول الناس الى الشام فكانت غزوة ذات السلاسل، والسلاسل ماءٌ بأرض جذام — فوجه عمرو بن العاص في ثلثمائة مقاتل ثم استمده فأمده بأبي عبيدة بن الجراح على المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر في مائتين فكان جميعهم خمسمائة، والغالب أنهم رجعوا من هذه الغزاة على غير جدوى .

ومن السرايا التي أُرسلت الى الشام سرية زيد بن حارثة الى جذام بحسمى وراء وادي القرى مما يلي فلسطين من أرض الشام . وسببها أن دحْيَة بن خليفة الكلبي كان أقبل من عند قيصر وقد أجاره وكساه فسلبه أهل حسمى ، فغزاهم زيد بن حارثة ثم ردَّ الرسول عليهم أسلابهم . وفي تلك السنة بعث الرسول جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل بلغوا تخوم البلقاء فلقيتهم جموع هرقل ومعهم العرب المتنصرة بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف،فانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة وجعلوا على ميمنتهم رجلاً من عذرة يقال له قطبة بن قتادة،وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عبادة بن مالك،فلقيتهم الروم في جمع عظيم فقتل من الأمراء زيد ابن حارثة،ثم جعفر بن أبي طالب،ثم عبد الله بن رواحة،فلما فجع المسلمون بثلاثة قواد عظام منهم، وكان خالد بن الوليد من القواد في ذاك الجيش،

---

(١) النش: وزن نواة من ذهب وقيل: هو وزن عشرين درهماً وقيل: خمسة دراهم وقيل: هو ربع أوقية، والأوقية : أربعون درهماً ونش الشيء نصفه (اللسان) ومنه الحديث أن النبي لم يصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونش الاوقية : أربعون والنش : عشرون فيكون المجموع خمسمائة درهم .

رأى المصلحة أن يعود الى المدينة بمن معه . وكان سبب هذه الغزوة أن النبي بعث الحارث بن عمير رسولاً الى ملك بُصرى عاصمة حوران بكتاب كما بعث الى سائر الملوك،فلما نزل بمؤتة عرض له عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله،ولم يقتل لرسول الله رسول غيره . وقيل : إن هرقل نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضمت اليه المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبَلي في مائة ألف منهم .

كانت أخبار الشام عند أهل المدينة كل يوم لكثرة من يرد عليهم من الأنباط[1] فقدمت عليهم قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام،وأن هرقل صاحب الروم قد رزق أصحابه لسنة ، واستنفر العرب المتنصرة فأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة وبهراء وكلب وسليح وتنوخ من عرب الشام[2] وزحفوا وقدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها،وتخلف هرقل بحمص وضرب الروم على العرب الضاحية البعوث . فرأى الرسول إن لم يبدإ الروم القتال بدأوه به،فأعلم في سنة تسع بالتجهيز لغزو الروم والطلب بدم جعفر بن أبي طالب الذي استشهد في مؤتة في السنة الفائتة . وكان الرسول إذا أراد غزوة ورّى بغيرها إلا في هذه ، لقوة العدو وبعد الطريق والجدب والحر والناس في عسرة . وكان معه ثلاثون ألفاً،والخيل عشرة آلاف،والجمال اثنا عشر ألفاً،ولقي الجيش حراً وعطشاً. وقد أنفق أبو بكر الصديق في تجهيز هذا الجيش جميع ماله ، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة .

خرج المسلمون في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير،وخرجوا في حر شديد فأصابهم يوماً عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءها ، فكان ذلك عسرة من الماء وعسرة من الظهر وعسرة من النفقة ولذلك سمي جيش العسرة .

---

(١) كان الأنباط يقدمون كثيراً الى المدينة في الجاهلية والإسلام يحملون الزيت والدرمك . والدرمك دقيق الحواري .

(٢) ذكر الثقات أنه كان لسبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان واسمه عبد شمس صاحب اليمن عشرة أولاد ،وسكن الشام منهم أربعة وهم لخم وغسان وجذام وعاملة .

وبلغ الجيش الحِجْر أرض ثمود فنهاهم الرسول عن مـائه ، ووصلوا تبوك فأقام بها عشرين ليلة ، وسميت هذه الغزوة غزوة تبوك ، ولم يلق المسلمون في هذه المعركة كيداً . وأتى يحنة بن رؤبة أُسقف أيلة على البحر الأحمر فصالحه الرسول على الجزية . وكتب له كتاباً صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا أمنة من الله ومحمد النبي ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة أساقفهم وسائرهم في البر والبحر،لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر،فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس . وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقــاً يريدونه من بر او بحر . هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حَسَنة بـــإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة » .

وصالح الرسول أهل جَرباء وأَذْرُح من أرض الشراة ، صالح أهل أذْرُح على مائة دينار،وصالح أهل مَقْنا على مقربة من أيلة على ثلاثمائة دينار على ربع عروكهم [1] وغزولهم وربع كُراعهم [2] وحَلْقتهم وعلى ربع ثمارهم وكانوا يهوداً،وكتب إليهم هذا الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى بني حبيبة وأهل مقنا سلم أنتم فإنه أنزل عليّ أنكم راجعون الى قريتكم،فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله،وإنــه لا ظلم عليكم ولا عدوان،وإن رسول الله يجيركم مما يجير به نفسه فإن لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله،وأن عليكم بعد ذلك ربعَ ما أخرجت نخيلكم وربع مـا صادت عروكم وربع ما اغتزلت نساؤكم وانكم قد ثريتم بعد ذلكم ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة ، فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم

---

(١) العروك: الخشب يصطاد عليه .

(٢) كراعهم : خيلهم .

كريمكم ويعفو عن مسيئكم،ومن ائتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له،ومن أطلعهم بشر فهو شر له،وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله وكتب علي بن أبي طالب في سنة ٩ .

وفي السنة الحادية عشرة ضرب الرسول على الناس بعثاً الى الشام أيضاً وأمر عليه أسامة بن زيد ندبه الى البلقاء وأذرعات ومؤتة ثائراً بأبيه ولأسامة يومئذ ثماني عشرة سنة . وفي رواية أن الرسول أمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم،وأن يبلغ يُبنى وأشدود من أرض فلسطين،وقيل: أمر أن يوطىء من آبل الزيت بالأردن من مشارف الشام،ودعا الرسول عليه السلام أسامة بن زيد فقال : « سر الى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش فآغر صباحاً على أهل يُبنى وحرّق عليهم ، وأسرع السير تسبق الأخبار ، فإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك » . وبينا الناس يتأهبون للغزاة ابتدأ الرسول شكواه التي قبضه الله عز وجل فيها . وكان يقول في علته : جهزوا جيش أسامة . ثم سار أسامة الى يُبنى فشنّ عليها الغارة وقتل قاتل أبيه ولم يصب أحد من المسلمين . وبلغ هرقل وهو بحمص ما صنع أسامة فبعث رابطة يكونون بالبلقاء،فلم تزل هناك حتى قدمت البعوث الى الشام في خلافة أبي بكر وعمر .

فأول غزوات الشام دومة الجندل والثانية مؤتة والثالثة ذات السلاسل والرابعة تبوك والخامسة آبل الزيت وجملة غزواتهم سبع غزوات . وكلها مقدمات لفتح هذا القطر وأمر قطعي من صاحب الرسالة الى أصحابه بأن يكملوا العمل الذي وضع أساسه بنفسه الشريفة . عن سلمة بن نُفيل الحضرمي قال: فتح الله على رسول الله فتحاً فأتيته فدنوت منه حتى كادت ثيابي تمس ثيابه فقلت: يا رسول الله سيبت الخيل وعطلوا السلاح وقال: قد نُفيل وضعت الحرب أوزارها فقال رسول الله: كذبوا الآن جاء القتال الآن جاء القتال، لا يزال الله يزيغ قلوب أقوام تقاتلونهم ويرزقكم الله عز وجل منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك وعُقر دار الإسلام بالشام .

جيوش العرب وجيوش الروم نصيحة أبي بكر الصديق لقواده :

توفي الرسول عليه السلام فارتدت بعض قبائل العرب فقاتلهم أبو بكر الصديق حتى جمع شملهم بالإسلام فلما أمن من ناحيتهم كتب الى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد في الشام ، ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم ، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع فعقد ثلاثة ألوية لثلاثة رجال ، وهم يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ابن حَسنَة وعمرو ابن العاص . وكان أبو بكر أمر عمرو بن العاص أن يسلك طريق أيلة عامداً لفلسطين . وأمر يزيد وشرحبيل أن يسلكا طريق تبوك ، فقصد الجيش فلسطين في الجنوب وقسم منه قلب الشام .

وكان العقد لكل أمير في بدء الأمر على ثلثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم بالإمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة ثم تتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً . وكان جيش الروم أربعين ومائتي ألف منهم المسلسل للموت والمربوط بالعمائم والفرسان والرجالة ، جمعهم هرقل من أهل الشام والجزيرة وإرمينية ، وولى عليهم رجلاً من خاصته وبعث على مقدمته جبلة بن الأيهم الغساني في مستعربة الشام . وأنجد أبو بكر جيوش الشام بخالد بن الوليد من العراق في تسعة وقيل في عشرة آلاف فصار المسلمون ستة وثلاثون ألفاً وفي رواية ستة وأربعين ألفاً . ويقول سيديليو : إن جيش العرب كان على أكثر تعديل مؤلفاً من عشرين ألفاً وجيش الروم من ستين ألفاً . قال سعيد بن عبد العزيز : إن المسلمين يوم اليرموك كانوا أربعة وعشرين ألفاً والروم عشرين ألفاً ومائتي ألف عليهم ماهان وصقلان (سقلار) .

ومهما كان من تقدير الجيشين فالعرب كانوا أقل من الروم . وتقدير مؤرخي العرب للجيش الإسلامي بستة وثلاثين ألفاً ولجيش الروم بزهاء مائتي ألف أقرب الى الصحة ، وهو تقدير معقول لا سيما إذا عرف أنه كان سكان الشام إذ ذاك نحو سبعة ملايين ، وأن العرب على بعد الحجاز عن الشام لا يستطيعون أن يجهزوا أكثر من ذلك لأنهم كانوا يحاربون في جهات أخرى .

ولما أنفذ أبو بكر الأمراء الى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان وهو مشيع له : إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده، وإذا وعدت فأنجز ، ولا تكثر عليهم الكلام ، فإن بعضه ينسي بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح الناس لك ، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مثواهم ، فإنه أول خيرك اليهم ، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم،وكن أنت الذي تلي كلامهم ، ولا تجعل سرك مع علانيتك فيَمرجَ أمرك ، وإذا استشرت فاصدق الخبَر تصدق لك المشورة ، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قِبَل نفسك ، وإذا بلغتك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها ، واستر في عسكرك الأخبار ، وأذكِ حراسك ، وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك ، واصدق اللقاء إذا لقيت ، ولا تجبن فيجبنَ من سواك .

وقد شيع أبو بكر يزيد بن أبي سفيان راجلاً الى ما بعد ربض المدينة فقال له يزيد : إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال:ما أنت بنازل وما أنا براكب . إني احتسب خطاي هذه في سبيل الله ثم قال : إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما حبسوا أنفسهم له يعني الرهبان . وستجد قوماً فحصوا [1] عن أوساط رؤوسهم فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف . ثم قال:إني موصيك بعشر : لا تغدر ، ولا تُمثّل ، ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً الا ما أكلتم ، ولا تُحرقن نخلاً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تغُلّ [2] ولا تجبن .

وصل الجيش العربي الى مشارف الشام فنزل في آبل وزيزاء والقسطل، وكان جيش الروم من دون زيزاء بثلث . وطلع ماهان قائد الروم وقدم قدامه الشمامسة والرهبان والقسيسين يحضون جيش الروم على القتال . وكان هرقل وهو من عظام القواد أدرك الخطر ورأى لما أتاه الخبر بقرب جيش العرب أن لا يقاتلهم وأن يصالحهم . وقال لقومه : فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتقرَّ بكم جبال الروم خير لكم من

(١) حلقوا وسطها.

(٢) الغلول: الخيانة في المغنم .

أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم، فلما رآهم يعصونه ويردون عليه بعث أخاه تيودورا وأمّر الأمراء .

مبدأ الحرب بين العرب والروم :

وأول وقعة كانت بين العرب والروم بقرية من قرى غزة يقال لها داثن (١٢ ﻫ) كانت بينهم وبين بطريق غزة فاقتتلوا فيها قتالاً شديداً فهزم الروم، وتوجه يزيد بن أبي سفيان في طلب ذلك البطريق فبلغه أن بالعربة من أرض فلسطين جمعاً للروم فأوقع بهم وقتل عظيمهم، وانتهى إليه أن ستة من قواد الروم نزلوا العربة في ثلاثة آلاف فسار إليهم المسلمون في كَثْف منهم فهزموهم، وقتل أحد القواد فصار الروم الى الدّبة فهزمهم المسلمون وغنموا غنماً حسناً. وأول صلح كان بالشام صلح مآب. مرّ أبو عبيدة بهم في طريقه فقاتلوه، ثم سألوه الصلح فصالحهم، وقالوا: إن أول حرب كانت بالشام بعد سرية أسامة بالعربة ثم أتوا داثن ثم كانت مرج الصُفَّر، وأول مدينة فتحت بصرى قصبة حوران .

لما سار خالد بن الوليد من العراق مدداً للمسلمين في الشام وقد ضاق المسلمون فيه لكثرة جيوش الروم فتح في طريقه ما اجتاز به من شرق الشام، مثل أرك ودومة الجندل وقُصم وتَدمر والقريتين وحَوّارين ومرج راهط، ووجه أحد رجاله الى غوطة دمشق فأغار على قرى من قراها، وصار خالد الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب المشرفة على الغوطة، فوقف عليها ساعة ناشراً رايته وهي راية كانت لرسول الله تسمى العقاب علماً لها . والعرب تسمي الراية عقاباً . وأغار على بني غسان في يوم فِصحهم .

ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين بقناة بصرى، ويقال: إنه أتى الجابية من حوران وبها أبو عبيدة في جماعة من المسلمين فالتقيا ومضيا جميعاً الى بصرى . ولما فتحت بصرى توجه أبو عبيدة بن الجراح في جماعة كثيفة فأتى مآب من أرض البلقاء، وبها جمع العدو فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى، ثم كانت وقعة أجنادين قرب القدس، شهدها من الروم زهاء مئة ألف سرّب هرقل أكثرهم وتجمع باقوهم من النواحي

فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة . وقالوا: إن خالد بن الوليد لما جاء بصرى والمسلمون نزول عليها ضايق أهلها حتى صالحهم على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً وجريب حنطة . وافتتح المسلمون جميع أرض حوران وغلبوا عليها وقتئذ وذلك في سنة ١٣ .

وقعة اليرموك :

أهم وقائع العرب في الشام التي انهزم فيها الروم شر هزيمة ولحق فَلُّهم بالشمال وقعة اليرموك — واليرموك نهر — فهي الوقعة الفاصلة التي هان بها الاستيلاء بعد ذلك على القدس ودمشق وما إليها، ثم على حمص وحماة وحلب وما إليها من البلدان، وظهر فيها النبوغ العربي في الحرب بأجلى مظاهره . وتبين أن تلك الأمة الفقيرة بمالها ، ليست فقيرة بعقل رجالهـا . وقرأ العرب على الروم يومئذ درساً من مضائهم وحسن بلائهم، وأروهم راموزاً من تضامنهم واستماتتهم ، وأتوهم بمثال من طيب أخلاقهم وجودة فطرهم، خلافاً لما كان عليه أعداؤهم من الانقسام وتشتت الأهواء والخصام .

« لما قدم خالد بن الوليد مدداً للمسلمين في اليرموك وجد العرب يقاتلون الروم متساندين كل أمير على جيش : أبو عبيدة على جيش، ويزيد بن أبي سفيان على جيش، وشرحبيل بن حسنة على جيش، وعمرو بن العاص على جيش . فقال خالد : إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، فأخلصوا لله جهادكم، وتوجهوا الى الله بعملكم . فإن هذا يوم له ما بعده، فلا تقاتلوا قومـاً على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن مَن وراءكم لو يعلم علمَكُم حال بينكم وبين هـذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه هو الرأي من واليكم . قالوا: فما الرأي؟ قال : إن الذي أنتم عليه أشد على المسلمين مما غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم والله، فهلموا فلنتعاور الإمارة، فليكن علينا بعضنا اليوم، وبعضنا غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني اليوم عليكم . قالوا : نعم . فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم، فكان الفتح على يد خالد . وجاءه البريد يومئذ بموت

أبي بكر وخلافة عمر وتأمير أبي عبيدة على الشام كله وعزل خالد، فأخذ الكتاب منه وتركه في كنانته ووكل به من يمنعه أن يخبر الناس من الأمر لئلا يضعفوا . وهزم الروم وقتل منهم على الواقوصة[1] ما يزيد على مئة ألف ثم دخل على أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة، وكانت من أعظم فتوح المسلمين وباب ما جاء بعدها من الفتوح ، لأن الروم كانوا قد بلغوا في الاحتشاد فلما كُسروا ضعفوا ودخلتهم هيبة » .

وفي كتاب أبي حذيفة أن المسلمين أوقعوا بالروم يوماً باليرموك فشد خالد في سرعان[2] الناس وشدّ المسلمون معه يقتلون كل قتلة ، فركب بعضهم بعضاً حتى انتهى الى أعلى مكان مشرف على أهوية[3] فأخذوا يتساقطون فيها وهم لا يبصرون . وهو يوم ذو ضباب — وفي رواية ثارت فيه الرياح الهوج — وقيل: كان ذلك بالليل وكان آخرهم لا يعلمْ بما صار إليه الذي قبله حتى سقط فيها ثمانون ألفاً فما أحصوا إلا بالقضيب ، وسميت هذه الأهوية بالواقوصة من يومئذ لأنهم واقصوا فيها أي اقتربوا، فلما أصبح المسلمون ولم يروا أعداءهم ظنوا أنهم قد كمنوا لهم حتى أخبروا بأمرهم .

وقال سعيد بن بطريق : بلغ ماهان قائد الروم أن العرب قد خرجوا من طبرية يريدون دمشق، فجمع عسكره وخرج منها وسار يومين حتى نزل على وادٍ كبير يقال له وادي الرماد، ويقال للموضع الجولان ويعرف بالياقوصة، وصيّر الوادي بينه وبين العرب شبيه الخندق وأقاموا أياماً والعرب بحذائهم . وبعد أيام خرج منصور العامل من دمشق يريد عسكر ماهان ومعه مال قد جباه من دمشق بالمشاعل ، فلما قربوا من العسكر ضربوا وبوّقوا وصاحوا، وكان ذلك من منصور مكيدة، فلما نظر الروم الى المشاعل

---

(١) الواقوصة : نجد من الأرض يطل على وادي اليرموك من جهة محطة وادي خالد وذكرها ابن البطريق بلفظ الياقوصة.

(٢) أوائلهم .

(٣) الأهوية كالهاوية كل فارغ .

خلفهم وسمعوا صوت الطبول والبوقات ، توهموا أن العرب قد جاءوهم من خلفهم وكبسوهم فوقعت فيهم الهزيمة فسقطوا كلهم في ذلك الوادي أعني وادي الرماد، وهو وادٍ عظيم كبير فماتوا ولم يتخلص منهم إلا نفر قليل،ومنهم من هرب الى مواضع شتى ،ومنهم من تراجع الى دمشق،ومنهم من هرب إلى بيت المقدس،ومنهم من هرب الى قيسارية اﻫ .

وشهد اليرموك ألف صحابي منهم نحو من مائة من أهل بدر،وتهافت في الواقوصة من الروم عشرون ومائة ألف ، ثمانون ألف مقرّن وأربعون ألف مطلق سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل. ويقول الطبري: إن قتلى اليرموك من الروم سبعون ألفاً ، وزعم بعض المؤرخين أن جيش الروم تكامل يوم اليرموك أربعمائة ألف .

فتح فِحل وأجنَادين وبَيْسان :

ذكروا أن أول كتاب كتبه عمر حين ولى أبا عبيدة الشام : أُوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه ، الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات الى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذي يحق عليك . لا تقدم المسلمين الى هَلَكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستَرِيده لهم وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سريّة إلا في كَثْف[1] من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة ، وقد ابتلاك الله بي وابتلاني بك ، فغمّض بصرك عن الدنيا ، وأله قلبك عنها ، إياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيتَ مصارعهم اﻫ .

توفي أبو بكر الصديق قبل فتح اليرموك بعشر ليال وبعد أن أصيبت الروم بالهزيمة القاطعة على اليرموك، كانت وقعة فِحل من الأردن بعد خلافة عمر بن الخطاب بخمسة أشهر، ولما انتصر المسلمون على اليرموك كان هرقل في البيت المقدس، جاءها للاحتفال بتخليص الصليب الذي استرده قبل ذلك

---

(١) الكثف : الجماعة

فصار الى أنطاكية واستنفر الروم وأهل الجزيرة وبعث عليهم رجالاً من خاصته وثقاته فلقوا المسلمين بفحل فقاتلوهم أشد قتال وأبرحه حتى ظهروا عليهم، وقُتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف معه وتفرق الباقون في مـدن الشام ولحق بعضهم بهرقل .

ولما سار المسلمون بعد أن فرغوا من أجنادين الى فحل نزلت الروم بَيْسان فبثقوا أنهارها وفي أرض سبخة[١] فكانت وحلاً، ونزلوا فِحل وبَيْسان، فلما غشيها المسلمون ولم يعلموا بما صنعت الروم وحلت خيولهم، ولقوا فيها عناء ثم سلموا . وسميت بيسان ذات الردغة[٢] لما لقي المسلمون فيها، ثم نهضوا الى الروم وهم بفحل فاقتتلوا فهزمت الروم ودخل المسلمون فحل ولحقت رافضة الروم بدمشق، فكانت وقعة فِحل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة . قال الطبري : « كان الروم في فحل بعـد أن رحلت حيارى لا يعرفون مأخذهم، فأسلمتهم هزيمتهم وصيرتهم الى الوحل فركبوه ولحق أوائل المسلمين بهم وقـد وحلوا فركبوهم وما يمنعون يد لامس فوخزوهم بالرماح ، فكانت الهزيمة في فحل ، وكان مقتلهم في الرّداغ فأصيب الثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد . وكان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون : كرهوا البثوق فكانت عوناً لهم على عدوهم ، وأناة من الله ليزدادوا بصيرة وجداً » .

الأردن وفلسطين وجبل اللكام :

افتتح شُرَحْبيل بن حَسنَة الأردن عَنوة مـا خلا طبرية فـإن أهلها صالحوه على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وفتحت جميع مدن الأردن وحصونها على مثل صلح طبرية فتحاً يسيراً بغير قتال ، ففتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت رأس وقَدَس والجولان ، وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها وعلى صفوريـة وعكا وصور ، وبفتح هذين الثغرين من الساحل

---

(١) السبخة : أرض ذات نز وملح .

(٢) الردغة: الوحل .

انقطع ما بين الروم في إيلياء وبين خط رجعتهم من البر مع أنطاكية وما وراءها من الدروب . وصالح أبو عبيدة السامرة بالأردن وكانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين، كما صالح الجراجمة في جبل اللُّكام بين بياس وبوقا على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح [1] في جبل اللُّكام، وفتح عمرو ابن العاص غزة ثم سَبَسْطِية ونابلس ولدّ ويُبنى وعَمَواس وبيت جبرين ويافا ورفح ، وظلت القدس وقيساريّة محاصرتين ، ولم تفتح القدس إلا سنة خمس عشرة أي بعد فتح دمشق بسنة ونيف، وطلب أهله من أبي عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب ، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة وخرج صفرونيوس بطريق بيت المقدس الى عمر بن الخطاب فأعطاه عمر أماناً وكتب لكل كورة كتاباً واحداً ما خلا أهل إيلياء . وهذا نص عهد أهل إيلياء :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ .

(١) المسالح : جمع مسلحة وهي الحامية المسلحة .

وكتب عمر الى أهل لدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين مثل شروط أهل إيلياء . واختلف القوم في صلح بيت المقدس فقالوا صالح اليهود وقالوا النصارى ، والمجمع عليه أنه صالح النصارى . وفي كتاب عمر صراحة في ذلك . واشترط فيه إخراج الروم الذين ليسوا من أبناء القطر الأصليين . وأتاه جبلة بن الأيهم رأس بني غسان وكان هذا أسلم ثم ارتد وقاتل المسلمين مع الروم فقال له : تأخذ مني الصدقة كما تصنع العرب قال : بل الجزية وإلا فالحق بمن هو على دينك . فخرج في ثلاثين ألفاً من قومه حتى لحق بأرض الروم، وندم عمر على ما كان منه في أمره .

فتح دمشق والأحكام العسكرية :

كتب عمر الى أبي عبيدة وكان كتب اليه في أمر الشام : أما بعد فابدأوا بدمشق وانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم . وبعد أن تم للمسلمين ما أرادوا من هزيمة الروم على اليرموك جمعت الروم جمعاً عظيماً وأمدهم هرقل بمدد فلقيهم المسلمون بمرج الصُّفّر بين دمشق والجَوْلان وهم متوجهون الى دمشق ، وذلك لهلال المحرم سنة ١٠ فاقتتلوا قتالاً شديداً وجرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف ، وولى الروم مفلولين لا يلوون على شيء حتى أتوا دمشق وبيت المقدس . ولما فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمرج رجعوا الى مدينة دمشق فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوةً ، ونازلوا دمشق وحاصروها من الباب الشرقي وباب توما وباب الفراديس وباب الجابية والباب الصغير وفتح نصفها عنوةً والنصف الآخر صلحاً ، فأجراها عمر كلها صلحاً . وكتب أهل دمشق كتاباً لأبي عبيدة هو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : هذا كتاب لأبي عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق وأرضها وأرض الشام من الأعاجم ، إنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا ، وإنا اشترطنا لك أن لا نحدث في مدينة دمشق ولا فيما حولها كنيسة ولا ديراً ولا قلاية ولا صومعة

راهب ، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا شيئاً منها مما كان في خطط المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وأبناء السبيل ، ولا نؤوي فيهـا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم على من غش المسلمين ، وعلى أن لا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفيفاً في جوف كنائسنا ، ولا نظهر الصليب عليها ، ولا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا ، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا ولا نخرج باعوثاً ولا شعانين ، ولا نرفع أصواتنا بموتانا ، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين ، ولا نجاورهم بالخنازير ولا نبيع الخمور ، ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين ، ولا نرغب مسلماً في ديننا ، ولا ندعو إليـه أحداً وعلى أن لا نتخذ شيئاً مـن الرقيق الذي جرت عليـه سهام المسلمين ، ولا نمنع أحداً من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الإسلام ، وأن نلزم ديننا حيثما كنا ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نتسمى بأسمائهم وأن نجز مقادم رؤوسنا ونفرق نواصينا ونشد الزنانير على أوساطنا ، وأن لا ننقش في خواتيمنا بالعربية ولا نركب السروج ، ولا نتخـذ شيئاً مـن السلاح ، ولا نجعله في بيوتنا ولا نتقلد السيوف ، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم ونرشدهم للطريق ، ونقوم لهـم من المجالس إذا أرادوهـا ، ولا نطلع عليهم في منازلهم ، ولا نعلم أولادنـا القرآن ولا نشارك أحداً من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمر التجـارة ، وأن نضيف كل مسلم عـابر سبيل من أوسط ما نجد ، ونطعمه فيهـا ثلاثة أيام ، وعلينا أن لا نشتم مسلماً ، ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده . ضمنا ذلك على أنفسنا وذرارينا وأرواحنا ومساكننـا ، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا ، وقد حل لك منا ما حلّ من أهل المعاندة والشقاق . على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا فأقرونا في بلادكم التي ورثـكم الله إياها . شهد الله على مـا شرطنا لـكم على أنفسنا وكفى به شهيداً .

وكتب عمر بن الخطاب على النصارى كتاباً في هذا المعنى أيضاً وهذان

الكتابان هما من قبيل ما يقرره الفاتحون من الأحكام العسكرية أو الإدارة العرفية كما يسمونها اليوم وهي كما لا يخفى تختلف باختلاف الأمم والحالات وليست أصلاً من أصول الدين لا يجوز تبديله .

وهذا نص العهد الذي أعطاه خالد بن الوليد قبل أن يعلم بما صار إليه حال المسلمين في الشق الآخر من المدينة مدينة دمشق :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها ، أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيءٌ من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لا يُعْرَض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية .

وذكر الطبري أن أبا عبيدة بن الجراح دخل دمشق في سنة ١٤ فشتى بها ، فلما ضاقت الروم سار هرقل بهم حتى نزل أنطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبَلْقَين وبَلي وعاملة،ومن تلك القبائل من قضاعة وغسان بشر كثير ،ومعه من أهل إرمينية مثل ذلك،وبعث الصقلار خصياً له فسار بمائة ألف مقاتل معه،من أهل إرمينية اثنا عشر ألفاً ومعه من المستعربة من غسان وتلك القبائل من قضاعة اثنا عشر ألفاً عليهم جبلة بن الأيهم الغساني وسائرهم من الروم . وسار اليهم المسلمون وهم أربعة وعشرون ألفاً عليهم أبو عبيدة بن الجراح فالتقوا باليرموك في ١٢ رجب سنة ١٥ (٢٠ آب ٦٣٦) فاقتتل الناس قتالاً شديداً . وتدل عبارة الطبري على أن فتح دمشق كان قبل فتح اليرموك والمعقول المعول عليه أن فتح اليرموك كان قبل فتح دمشق .

فتح حمص وشيزر والمعرة وبعلبك وصيدا وبيروت وجبيل وعرقة :

وبينا المسلمون على حصار دمشق ، وقد حوصرت ستة أشهر ، أقبلت خيل من عقبة السليمة مخمرة بالحرير فثار إليهم المسلمون فالتقوا فيما بين بيت لهيا قرب دومة والعقبة التي أقبلوا منها ، فهزموهم وطردوهم الى أبواب حمص ، فلما رأى أهل حمص ذلك ظنوا أنهم فتحوا دمشق فقال

لهم أهل حمص : إنا نصالحكم على ما صالحتم عليه أهل دمشق ففعلوا ، ولما فرغ أبو عبيدة من دمشق سار الى حمص فاستقراها وأجرى صلحها على مثل صلح بعلبك،ثم مضى نحو حماة فتلقاه أهلها مذعنين ، فمضى نحو شيزر وبلغت خيله الزراعة والقسطل .

ومر أبو عبيدة بمعرة النعمان فخرج أهلها يَقَلِّسون (يلعبون) بين يديه ثم اتى فامية (قلعة المضيق) ففعل أهلها مثل ذلك،وبعث خالد بن الوليد الى البقاع ففتحه بالسيف،وبعث سرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون وعلى الروم رجل يقال له سنان تحدر على المسلمين من عقبة بيروت ، فقتل منهم يومئذ جماعة من الشهداء ، فكانوا يسمون عين ميسنون عين الشهداء . واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان شقيق معاوية كما وعده بها الصديق ، فسار يزيد الى صيدا وبيروت وجبيل وعرقة ففتحها فتحاً يسيراً،وبعث يزيد دحية بن خليفة الى تَدمر في سرية ليمهدوا أمرها، وبعث أبا الزهر القشيري الى البثنية وحوران فصالح أهلها .

قنسرين وحلب وأنطاكية وكور الشمال :

وسار أبو عبيدة الى قِنَّسْرين فصالحه أهلها على مثل صلح حمص ، وغلب المسلمون على أرضها وقراها، ثم سار الى حلب وحاصرها ففتحها، وبعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف اليهم الروم وعليهم ميناس ، وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد هرقل ، فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها . فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد ، وأما أهل الحاضر فأرسلوا الى خالد أنهم عرب،وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم .

وسار أبو عبيدة الى أنطاكية وقد لحق بها خلق من أهل جند قنسرين، فلما صار بمهروبة قريب فرسخين من أنطاكية لقيه جمع للعدو ففضهم وألجأهم الى المدينة فحاصرها،ثم صالحه أهلها على الجزية والجلاء فجلا بعضهم وأقام بعضهم . ووجه أبو عبيدة ميسرة بن مسروق العبسي الى

درب بغراس (بيلان) فلقي جمعاً للروم ومعهم مستعربة من غسان وتنوخ يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة. وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً للروم بين معرة مصرين وحلب فلقيهم وقتل عدة بطارقة وفض ذلك الجيش، وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين وعزاز وصالحوا أهل دير طبايا ودير الفسيلة ؟ على أن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين، وأتاه نصارى خناصرة في سِيف البادية فصالحهم،وفتح أبو عبيدة جميع أرض قنسرين وأنطاكية واللاذقية. وورد عبادة بن الصامت السواحل ففتح مدينة تعرف ببلدة على فرسخين من جبلة وانطرطوس ومرقبة وبانياس،ثم صالح أبو عبيدة أهل قُورُس وبث خيله فغلب على جميع أرض قُورُس الى آخر حد نقابلس،وفتح منبج ودُلوك ورَعبان وعراجين وبالس وقاصرين، وبلغ أبو عبيدة الفرات واشترط على أهل رعبان ودُلوك أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكاتبوا بها المسلمين.

وقعة مرج الروم وقيسارية :

وفي سنة خمس عشرة كانت الوقعة بمرج الروم، وكان من ذلك أن أبا عبيدة خرج بخالد بن الوليد من فِحل الى حمص، وانصرف بمن أُضيف إليهم من اليرموك فنزلوا جميعاً على ذي الكلاع،وقد بلغ الخبر هرقل فبعث تيودرا البطريق حتى نزل بمرج دمشق وغربها،فنزل أبو عبيدة بمرج الروم فنازله يوم نزل عليه شنس الرومي في مثل خيل تيودرا إمداداً لتيودرا وردءاً لأهل حمص فنزل في عسكر على حدة، فلما كان من الليل أصبحت الأرض من تيودرا بلاقع، وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شنس،وأتى خالداً الخبر أن تيودرا قد رحل الى دمشق فأجمع رأيه ورأي أبي عبيدة أن يتبعه خالد وهم يقتتلون، فأخذهم من خلفهم فقتلوا من بين أيديهم ومن خلفهم، فأناموهم ولم يفلت منهم إلا الشريد، فأصاب المسلمون ما شاؤوا من ظهر وأداة وثياب. وناهد[1] أبو عبيدة بعد خروج

---

(١) نهد لعدوه : صمد له .

خالد في إثر تيودرا وشنس وامتلأ المرج من قتلاهم فأنتنت منهم الأرض وهرب من هرب منهم فلم يفلتهم وركب أكتافهم[١] الى حمص .

هكذا تم فتح الشام على هـذا الوجه المحكم في ثلاث سنين ولم تعص إلا قيسارية فإن معاوية فتحها سنة ١٩ بعد أن حوصرت نحو سبع سنين، وكان أهلها يزاحفون معاوية وجعلوا لا يزاحفونه مرة إلا هزمهم وردهم الى حصنهم ، ثم زاحفوه آخر ذلك وخرجوا من صياصيهم فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً وكملها في هزيمتهم مائة ألف (الطبري) . وكانت قيسارية من أعيان أمهات المدن قيل كان مقاتلة الروم الذين يرزقون فيها مائة ألف ، وسامرتها ثمانون ألفاً، ويهودها مائة ألف (ياقوت) . وكان كتاب عمر الى معاوية : أما بعد فإني قد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر عليهم وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير .

ومـن المدن التي امتنعت وحوصرت زمناً طويلاً مدينة عسقلان، كتب عمر بن الخطاب الى معاوية يأمره بتتبع ما بقي من فلسطين ففتح عسقلان سنة ٢٣ هـ صلحاً بعد كيد . ويقال: إن عمرو بن العاص كان فتحها ثم نقض أهلها وأمدهم الروم، ففتحها معاوية وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة .

سر نجاح المسلمين وقتال نسائهم يوم اليرموك :

تمثل تلك الجيوش القليلة التي ظهرت على جيوش الروم ومن والاهـم فتح العرب هذا القطر العزيز، وكانت قوتهم في معظم الوقائع عـلى نسبة واحـد الى ثلاثة أو أربعة من قوة أعدائهم بعد أن قطعوا بوادي الحجاز والعراق والشام على جمالهم وخيولهم ، قليل عتادهم ، جليل جهادهـم . وساروا في فلوات لا ماء فيها يستقون منه ، ولا مراعي يرعون فيهـا أنعامهم ، ولا ميرة يمتارونها ، وكل ما لديهم من الماديات قليل ضئيل، ولكن معنوياتهم كانت فوق معنويات من رحلوا إليهم وكان كل فرد من

---

(١) أقفيتهم .

أفراد جيوشهم يعتقد بأنه إن مات مات شهيداً ، وإن عاش عاش سعيداً .

أما الروم فكانوا على كثرة جيوشهم ، ووفرة أسبابهم من المؤن والذخائر في أرض عامرة هي وما وراءها الى أرض الروم ، والنجدات تأتيهم أرسالاً على أيسر سبيل ، ومع هذا فقد كثرت هزائمهم وعد قتلاهم بالألوف وقتلى العرب بالمئات ، وتركوا أرضاً عرفوا معالمها ومجاهلها فلم تغن عنهم كثرتهم ولا وفرة أسبابهم ، فقُهروا وغُلبوا على أمرهم ، وهاموا على رؤوسهم لا يلويهم شيء ، وذلك لأنهم كانوا متفسخين مشتة أهواؤهم، والناس هنا قد يئسوا من عدل الرومان في أواخر أيامهم حتى إنهم لما طلبوا مالاً من منصور عامل هرقل بدمشق لاستئجار رجال يحاربون المسلمين نادى بأن ليس لديه مال ، ليسمع الناس وييأسوا ويفتح السبيل للمسلمين . وكان هرقل كتب الى منصور هذا أن يمسك عليه الرجال بالمال فأبى منصور وقال : إن الملك غير محتاج إلى هذا العسكر العظيم، وإن العرب قوم غزاة ، وهذا العسكر يحتاج الى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم . قال ابن بطريق: أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم فيتفرقوا ويسلّم دمشق الى المسلمين .

ولعل لتأليف جيش الروم ، وكان مؤلفاً من أجناس وأخلاط دخلاً في الهزيمة ، وربما كان رجال الدين من الروم في دمشق يوم الفتح العربي مستائين من القواعد التي سنها هرقل ليضع حداً للمنازعات الدينية، ولعلهم عاونوا على تسليم دمشق للعرب أو تركوا المسائل تجري في أعنتها . ولكن من المحقق أن العرب المتنصرة في الشام عادوا بعد أن صاروا مع الروم فانضموا الى العرب المسلمين وأخذتهم النَّعَرَةُ الجنسية فغلّبوها على النّعرة الدينية وأصبحوا للمسلمين عيوناً على الروم وأن اليهود والسامرة كانوا مع المسلمين الفاتحين . قال هوار : توصل الامبراطور أن يجمع في حمص ثمانين ألف مقاتل نصفهم من جنده والنصف الآخر من معاونين أرمن، وكانت النجدات تتوالى عليه إلا أن الشقاق الداخلي كان يمزق أحشاء الجيش الروماني، وقد شغب الجنود من الأرمن وطلبوا أن يكون ماهان امبراطوراً قبيل وقعة اليرموك .

لا جرم أن سلاح الروم كـــان أمضى من سلاح العرب ، ونظامهم الظاهري كان أجلى . قال سيديليو : كان جيش الروم يفوق جيش العرب بلباسه ، وخبرة ضباطه ، ونوع سلاحه ، وغنى دور صناعاته ومناعـــة حصونـــه ، وسهولة المواصلات والتموين عليه . والروم يعرفون الخطط ويمسكون البحر ولهم من ورائهم ولايات مأهولة مخصبة . أما العرب فكانوا جاهلين معدمين ليس لهم شيء من الأسباب المادية ، ولا يحسنون من ضروب الحرب غير حروب العصابات على أصول البادية،وقد يَعْمِدُون الى الفرار أحياناً ، ويُرى جيشهم لأول وهلة كأنه عصابات مجموعة كيفما اتفق : الفرسان وسط المشاة ، ومن الجنود من يسترون بعض أجسامهم ومنهـــم العراة . وسلاح كل واحد كما يحب من قوس الى حربة أو دبوس وسيف ورمح . قال : ووجه الغرابة أن يضيف العرب الى المفاداة احترام النظام يضاف إليهما عظمة العواطف،وهم طالما وصموا بأنهم متوحشون ظلماً وتعنتاً.

قلنا : وهكذا كان شأن العرب في سائر فتوحاتهم في آسيا وإفريقيا وأوروبا ، كانت معنوياتهم في كل مكان أرقى من معنويات من غلبوهم على أمرهم ، ودون ماديات أمم كانت راسخة القدم في أرضها ، عزيزة السلطان في ربوعها ، وحاجياتها منها على طرف الثمام تأتيها بدون تعمل كثير . وكان العرب يتبلغون ودوابهم بميسور العيش . حتى إن خالد بن الوليد لما سار في جيشه من العراق الى الشام من طريق البرية لتخرج من وراء جموع الروم لأنـــه كان يرى أنه إذا استقبلها حبسته عن غياث المسلمين ، سقى الجمال مرتين لقلة المـــاء في الطريق ، فكلما نزل منزلاً نحر وجعل أكراشها على النار وشرب القوم .

ومن أعظم العوامل في غلبة المسلمين خوف الهزيمة من الزحف،وكانت الهزيمة أو التخلف عن الجهـــاد من أعظم العار ، بل من الكبـائر التي لا يرحم فاعلها . فقد ذكروا أن فلّ جيش مؤتة لما رجع الى المدينة جعل الناس يَحْثُون عليهم التراب ويقولون:يا فُرّار فررتم في سبيل الله . فقال النبي (عليه الصلاة والسلام) : ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرّار إن شاء

الله . هذا وكان في جملة أولئك الفرار خالد بن الوليد سيف الله وعن رأيه رجع الجيش .

وكان للنساء يد طولى في نصرة العرب . فقد تطوع أبو سفيان بن حرب في حرب الشام وكانت له تجارات وأملاك في الجاهلية،وله قرية في البلقاء اسمها نـقـنّس . وكان شيخ مكة بل شيخ تجار قريش ورئيسهم ، ومن أعظم أَهلَ الرأي والمكانـة فيهم ، وهو كابنه معاوية من المؤلفة قلوبهم ثم حسن إسلامها ، وقد حارب الرسول كثيراً وقال له الرسول يوم أسلم في فتح مكة سنة ثمان للهجرة : « من دخل دار أبـي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » . وجاء الشام في الإسلام في مشيخة من قريش يحارب تحت راية ابنه يزيد وكان له ولابنيه يزيد ومعاوية بل ولجماعة من أُسرته بل للنساء منهن اليد الطولى والكعب المعلى في فتح الشام .

ومما قاله أبو سفيان للنساء اللاتي مع المسلمين ، وكان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن وأبنائهن ، وقد أجلسهن خلف صفوف المسلمين فأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن : لا يرجع إليكن أحـد من المسلمين إلا رميتموه بهذه الحجارة وقُلْتُن لـه : مَنْ يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله وعن النساء وهم أمام العدو . ولما حمي الوطيس واستقبل النساء سرعان من انهزم من المسلمين معهن بعمد البيوت أو عمد الفساطيط وأخذن يضربن وجوههم ويرمين بالحجارة ويقلن : أين أين عز الإسلام والأمهات والأزواج . ولقد قـاتل بعض النساء بالفعل يوم اليرموك مثل جويرية ابنة أبـي سفيان وكانت مع زوجها . قال البلاذري : وقاتل يوم اليرموك نساء المسلمين قتالاً شديداً وفيهن هند بنت عتبـة أُم معاوية بن أبـي سفيان . وقال الطبري : وقاتل نساءٌ من نساء قريش يوم اليرموك بالسيوف حتى سابقن الرجال منهن أُم حكيم بنت الحارث بن هشام .

وصف رومي العرب ، وكان أسيراً في أيديهم فأفلت ، وسأله هرقل عنهم فقال : « أخبرني عن هؤلاء القوم ، فقال : أحدثك كأنك تنظر إليهم « فرسان بالنهار ، رهبـان بالليل ، مـا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ،

ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه . فقال : لئن كنت صدقتني ليرثُنّ ما تحت قدميّ هاتين » .

ولما انتصر المسلمون بفِحل وقدم المنهزمون من الروم على هرقل بأنطاكية دعا رجالاً منهم فأدخلهم عليه فقال : حدثوني ويحكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أو هم ؟ قالوا : بل نحن . قال : فمابالكم ؟ فسكتوا ، فقام شيخ منهم وقال : ألا أُخبرك إنهم إذا حملوا صبروا ولم يكذبوا ، وإذا حملنا لم نصبر ونكذب ، وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويرون أن قتلاهم في الجنة وأحياءهم فائزون بالغنيمة والأجر . فقال : يا شيخ لقد صدقتني ولأخرجن من هذه القرية ومالي في صحبتكم من حاجة ، ولا في قتال القوم من أرب . فقال ذلك الشيخ : أنشدك الله أن تدع سورية جنة الدنيا للعرب وتخرج منها ولم تعذر . وما زال به حتى ثناه الى المقام وأرسل الى رومية وقسطنطينية وإرمينية وجمع الجيوش وقاتل العرب .

وبعث أخو ملك الروم لما تراءى العسكران في اليرموك رجلاً عربياً من قضاعة وقال له : ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر فأقام فيهم ثم أتاه فقال : ما وراءك قال : هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه إقامة للحد . فقال صاحب جيش الروم : لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها .

ومما أعانهم على تأييد سلطانهم تسامحهم مع أهل الذمة وحمايتهم لهم ؛ فكانوا كأنهم بين أهلهم وعشيرتهم ، لا يرهبون من وراءهم كما أنهم لم يرهبوا من أمامهم . روى البلاذري أن هرقل لما جمع للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغَشْم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم

ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نُغلب ونجهد .

قال غستاف لبون : لما دخلت العرب الشام كانت رومانية منذ نحو سبعمائة سنة ، فأبانوا عن تسامح مع كل مدن الشام ولذلك رضي السكان بسلطتهم مختارين ، وانتهت بهم الحال أن اطرحوا النصرانية وقبلوا دين الفاتحين وتعلموا لسانهم . وقال دي توري : إن الخطر الذي اندفع عن الشام من جهة الفرس على يد الإمبراطور هرقل عاد فداهمها من جهة جزيرة العرب ، ولكنه خطر كانت فيه سلامتها من الانحلال والاضمحلال، وذلك أن العرب هاجمتها وقد أصبح العرب أمة برسولهم فزعزعوا أركان المملكة الرومانية . وفي سنة ٦٣٦ فتحت دمشق وبعد سنتين فتحت القدس ولم تدخل سنة٦٣٩ حتى فتح الشام كله ، وساد فيه السلام بدل الخصام، فمن آمن عصم دمه وماله ، ومن لم يؤمن دفع الجزية واعتصم في الجبال فتركه الفاتحون وشأنه اه .

وداع صاحب الروم وآخر سهم في كنانتهم :

لما دخل اليأس على هرقل من الشام سار عنه الى القسطنطينية من الرُّها فالتفت الى الشام عند مسيره وهو على نَشَز وقال : « السلام عليك يا سُوريِّة سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومي بعدها إلا خائفاً حتى يولد الولد المشؤوم وليته لم يولد فما أجل نفعه وأمرّ فتنته على الروم». ولم يفسر المؤرخون الذين نقلوا عبارة هرقل هذه معنى « الولد المشؤوم » وقيل:إنه قال باليونانية « سوزه سورية » أي كوني بسلام . وقد أخذ هرقل أهل الحصون التي بين الإسكندرونة وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وأرض الروم ، وشعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً .

وفي سنة ١٧ قصدت الروم أبا عبيدة بحمص فضم أبو عبيدة إليه مسالحه وعسكروا بفناء حمص ، وأقبل خالد من قِنسرين حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح ، وكتب أبو عبيدة الى عمر بخروج الروم عليه

وشغلهم أجناد الشام عنه ، وقد كان عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عدةً لكون إن كان . فكان بالكوفة أربعة آلاف فرس، فلما وقع الخبر لعمر كتب بأن يسرح الجند منها الى الشام مدداً لأبي عبيدة . ولما أحيط بالمسلمين جمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إن هذا يوم له ما بعده أما من حيي منكم فإنه يصفو له ملكه وقراره، وأما من مات منكم فإنها الشهادة . فأحسنوا بالله الظن ولا يُكرِّهن اليكم الموتَ أمر اقترفه أحدكم دون الشرك ، توبوا الى الله وتعرضوا للشهادة فإني أشهد ، وليس أوان الكذب، أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . وكأنما كان في الناس عُقُل تنشطت ، فخرج بهم وخالد على الميمنة وعباس على الميسرة وأبو عبيدة في القلب وعلى باب المدينة مُعاذ بن جبل فاحتلدوا بها ، فإنهم كذلك إذ قدم القعقاع متعجلاً في مائة وانهزم أهل قنسرين بالروم ، فاجتمع القلب والميمنة على قلبهم، وقد انكسر أحد جناحيه وأوعبوا المدد ، فما أفلت منهم مخبر ، وذهبت الميسرة على وجهها ، وكان آخر من أصيب منهم بمرج الديباج انتهوا إليه فكسروا سلاحهم وألقوا يلامقهم[1] تخفيفاً فأصيبوا وتُغُنّموا . ولما ظفر المسلمون جَمَعهم أبو عبيدة فخطبهم وقال : لا تتكلوا ولا تزهدوا في الدرجات فلو علمت أنه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث .

منزلة أبي عبيدة وبعد نظر عمر :

توفي أبو عبيدة في طاعون عمواس سنة ١٩ وكان من أعماله في الشام وعدله ما حببه الى الروم حتى إنهم لما فتحوا له باب الجابية بدمشق سنة أربع عشرة للهجرة ودخل خالد بن الوليد من الباب الشرقي عنوة ، قال خالد لأبي عبيدة : اسبهم فإني دخلت وشرحبيل بن حَسَنة عنوة ، فأبى أبو عبيدة . ولذلك كان الروم يميلون الى أبي عبيدة دون خالد

---

(١) يلامقهم : قفاطينهم .

ابن الوليد . ولما طُعن أبو عبيدة بالأردن دعا من حضره من المسلمين فقال : إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكـاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا وحجوا واعتمروا ، وتواصوا ، وانصحوا لأمرائكم ، ولا تغشوهم ، ولا تلهكم الدنيا ، فإن امرأ لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير الى مصرعي هذا الذي ترون ، إن الله تعالى كتب الموت على بني آدم فهم ميتون ، وأكيسهم أطوعهم لربه ، وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله . يا معاذ ابن جبل صلِّ بالناس ومات رضي الله عنه . وكـان عهد بولاية دمشق لسعيد العدوي وسويد الفهري وكلهم من الصحابة الكرام . وكان عياض ابن غنم مع ابن عمه أبـي عبيدة بن الجراح في الشام،فلما توفي أبو عبيدة استخلفه بالشام فأقره عمر بن الخطاب وقال:لا أغير أميراً أمَّره أبو عبيدة .

ولما ولى أبو عبيدة معاذاً قام هذا في الناس فقال : أيها الناس توبوا الى الله من ذنوبكم توبة نصوحاً، فإن عبداً لا يلقى الله تعالى إلا تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له ، من كان عليـه دين فليقضه ، فإن العبد مرتهن بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فليلقه فليصالحه ، ولا ينبغي لمسلم أن يَـهْجر أخاه فوق ثلاث ، والخطب العظيم أنـكم أيها المسلمون قد فجعتم برجل ما أزعم أني رأيت عبداً أبَـر صدراً ، وأبعد من الغائلة ، ولا أشد حباً للعامة ، ولا أنصح للعامة منه ، فترحموا عليه رحمه الله تعالى ، واحضروا الصلاة عليه .

وأقام معاذ على إمرته ولم تطل مدته حتى مات في طاعون عَـمَـواس في هذه السنة واستخلف معاذ عمرو بن العاص . ولمـــا قدم عمر الى الشام بالجابية أمر عمرو بن العـــاص بالمسير الى مصر ، وبقي الشام ليزيد بن أبـي سفيان،ولم يطل أمد ولايته طويلاً حتى هلك في طاعون عمواس أيضاً . وعَـمَـواس من الرملة على أربعة أميال مما يلي بيت المقدس . والطاعون الذي عرفت به مات به خمسة وعشرون ألفاً وطمع العدو في الشام بسببه .

وأبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة كان عظيماً بإخلاصه للإسلام،

عظيماً بنفسه وعدله وشجاعته ، والشام مدين لفضله بفتحه وتمهيد أموره . ذكر أهل الأخبار عن عائشة أنها قالت : سمعت أبا بكر يقول : لما كان يوم أحد ورُمي رسول الله في وجهه حتى دخلت في وجْنَتَيْه حلقتان من المِغفر فأقبلتُ أسعى إلى رسول الله وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيراناً فقلت : اللهم اجعله طاعة حتى توافينا الى رسول الله، فإذا أبو عبيدة ابن الجراح قد بدرني فقال : أسألك بالله يا أبا بكر ألا تركتني فأنْزعه من وجنة رسول الله قال أبو بكر : فتركته فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلْقَتَي المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت ، فكان أبو عبيدة في الناس أثرم .

هذا مثال من قوة نفس أبي عبيدة وحبه لرسول الله . شهد أبو عبيدة واسمه عامر بن عبد الله بدراً وأُحداً وثبت يوم أُحد مع الرسول حين انهزم الناس وولوا، وشهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله وكان من علية أصحابه . طلب أهل نجران من الرسول أن يبعث معهم رجلاً أميناً . قال : لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمين حقَّ أمين قالها ثلاثاً: فبعث أبا عبيدة . قال أبو عبيدة وهو أمير على الشام : يا أيها الناس إني امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحمرَ ولا أسودَ يفضلني بتقوى إلا وددت أني في مسلاخه [١] . قال عمر بن الخطاب لجلسائه : تمنوا فتمنوا فقال عمر بن الخطاب : لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح قال سفيان فقال له رجل : وما ألوت الإسلام فقال: ذاك الذي أردت . وقال عمر بن الخطاب : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت ، فإن سئلت عنه قلت: استخلفت أمين الله وأمين رسوله، وفي رواية لو سألني عنه ربي لقلت سمعت نبيك يقول : هو أمين هذه الأمة، وقال عمر: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها وأما هم فلا يصلون اليَّ ، فأسير الى الشام فأقيم شهرين وبالجزيرة شهرين وبمصر

---

(١) المسلاخ : الجلد ، ومن المجاز فلان حمار في مسلاخ انسان .

شهرين وبالبحرين شهرين وبالكوفه شهرين وبالبصرة شهرين . وكان عماله على مثاله من العدل والزهد وحب الحق . قالوا: إنه ولى سعيد بن عامر ابن حذيم حمص وكان لا يقبض رزقه وعطاءه، ولما قدم عمر حمص أمر أن يكتبوا له فقراءهم فرفع الكتاب اليه فإذا فيه سعيد بن عامر، فبكى عمر ثم عدّ ألف دينار فصرّها وبعث بها إليه فبكى سعيد وانتحب ثم اعترض جيشاً من جيوش المسلمين فأعطاهم إياها، ولامته زوجته على عمله وقالت : لو كنت حبست منها شيئاً نستعين به فلم يلتفت الى قولها .

بمثل هؤلاء النوابغ المخلصين فتحت الأمصار وتمهدت ، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً . وبمثل هذه الأمانة والعدل والإحسان استمال العرب القلوب فأصبح أعداؤهم أولياءهم ، بعد أن شاهدوا عياناً ما انطوت عليه تلك النفوس الكبيرة . قالوا : إن الأقطار الحارة ضنينة بالنوابغ العاملين فأكذب العرب في هذا المثال من فتوحهم ذاك النظر بمن أخرجوا من رجالاتهم الذين أدهشوا ، على قلتهم وفقرهم ، العالم المعروف إذ ذاك بشجاعتهم وصبرهم ، وقناعتهم وإخلاصهم ، وتوجيه قوى الصغير والكبير منهم الى مقصد واحد ، أي إنهم كانوا موحِّدين في عقائدهم ، مُوَحِّدين في مقاصدهم ، وهذا غريب من نصف أُميين ليس لهم في المدنية قدم راسخة.

الدولة الأموية

« من سنة ١٨ الى ١٧٧ »

إمارة معاوية بن أبي سفيان :

لما هلك يزيد بن أبي سفيان والي دمشق سنة ١٨ ولى عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان فلم يزل والياً لعمر حتى قُتل عمر . ثم ولاه عثمان بن عفان وأقرّ عمال عمر على الشام ، فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكناني وكان على فلسطين ضم عمله الى معاوية . وكان عمير بن سعيد الأنصاري في سنة ٢١ على دمشق والبثنية وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة، ومعاوية على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية ومعرة مصرين وقليقية ، ثم جعل عمير في سنة ٢٣ على حمص ومعاوية على دمشق، ثم تولى عمير بن سعيد حمص وقنسرين ، وعلقمة بن مجزّز فلسطين ، وعمير بن سعيد هو الذي قال على منبر حمص : ألا إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق ، فحائط الإسلام العدل وبابه الحق ، فإذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح الإسلام ، فلا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل .

اجتمع الشام على معاوية لسنتين من إمارة عثمان ، أي في السنة الخامسة والعشرين للهجرة أضاف عثمان الى معاوية حمص وحماة وقنسرين والعواصم وفلسطين مع دمشق ورزقه ألف دينار كل شهر .

وبعث معاوية عمرو بن العاص الى مصر ومعه أهل دمشق عليهم يزيد

ابن أسد البجلي،وعلى أهـل فلسطين رجل من خثعم ،ومعاوية بن حُديج على الخارجة،وأبو الأعور السُّلمى عـلى أهل الأردن،فساروا حتى قدموا مصر فاقتتلوا بالمسناة وعلى أهل مصر محمد بن أبي بكر فهزم أهل مصر بعد قتل في الفريقين جميعاً . قال عمرو:شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ . فلما هزم أهـل مصر تغيب محمد بن أبي بكر فأخبر معاوية بن حديج بمكانه فمشى إليه فقتله .

ومن الأحـداث مع الروم غزوة معاوية بن أبي سفيان (سنة ٢١) وصلح أبي هاشم ابن عتبة على قليقية وأنطاكية ومعرة مصرين . وجاشت الروم (٢٤) حتى استمد من بالشام من جيوش المسلمين من عثمان مدداً فأمدهم بثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة،فدخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم وشنوا الغارات فأصاب الناس ما شاءوا من سبي وملأوا أيديهم من المغنم وافتتحوا بها حصوناً كثيرة،وغزا قبرس (٢٨) فصالحه أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة . وخرج أهل الشام (٣١) وعليهم معاويـة وعلى البحر عبد الله بن سعيد،وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بإفريقية في جمع لم يجتمع للروم مثله قط مذ كان الإسلام فخرجوا في خمس مائة مركب ، فربط المسلمون سفنهم بعضها الى بعض حتى كان يضرب بعضهم بعضاً على سفن المسلمين وسفن الروم وقاتلوهم أشد قتال ، ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجأون بالخناجر حتى رجعت الدمـاء الى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً . ثم انتصر المسلمون وانهزم قسطنطين مدبراً فما انكشف إلا لما أصابه من القتل والجرح .

وافتتح معاوية جزيرة أرواد في السنة الثالثة لعثمان وهدم سورها وأحرقها وجلا أهلها الى الشام . ووجه ملك الروم الى معاوية يسأله الصلح ، فأجاب إليه على أن يكون عنده عدة من أهل بيته رهائن . وفي السنة الثامنة لعثمان وجه معاوية بجيوش الى جزيرة رودس فأخذوها ورتبوا بها المسالح وجعلوها منظرة للعرب . وفي السنة الثالثة لمعاوية كانت غزوة بُسْر بن أرطاة الروم دفعة ثانية وسبى بها وهزمت الروم حتى بلغت القسطنطينية ، وفي سنة ٤٨

سير معاوية جيشاً كثيفاً الى القسطنطينية مع سفيان بن عوف ، وتوفي في مدة الحصار أبو أيوب الأنصاري ودفن بالقرب من سورها . وفي سنة ثلاث عشرة لمعاوية غزا بسر بن أرطاة الروم فقتل وأخرج معه سبياً كثيراً . وفي السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في البحر وصاروا الى لوقية فخرج إليهم ثلاثة بطارقة فقتل الروم من العرب ثلاثين ألفاً ومن بقي منهم ركب البحر ،فلما توسطوه لحقهم بعض الروم في سفينة فألقى النار في سفن فاحترقت كلها وفازت الروم وهم أول من أخرج النار وصارت لهم عادة . وفي السنة السابعة عشرة ركب الروم السفن وأقبلوا فيها في البحر حتى أتوا ساحل صور وصيدا ثم خرجوا من السفن واستولوا على جبل لبنان،وكان الناس يسمونهم الجراجمة وانتشروا من جبل الجليل الى الجبل الأسود ، وذلك أن قسطنطين دسهم ليشغلوا العرب عن الغزو .

ولم يكد معاوية يتولى الأمر بالشام حتى أخذ بما أوتيه من عقل وحلم يضع أساس الملك ويسير في رعيته سيرة حسنة حببته إليهم ، وكان يتأنى الأمور ويداري الناس على منازلهم ، ويرفق بهم على طبقاتهم ، فأوسع الناس من أخلاقه ، وأفاض عليهم من بره وعطائه ، وشملهم من إحسانه، فاجتذب القلوب واستدعى النفوس ، حتى آثروه على الأهل والقرابات وعدّ « مربي دول وسائس أمم وداعي ممالك » .

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

ولطالما أفضل على أشراف قريش مثل عبد الله بن العباس وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبان بن عثمان وناس من آل أبي طالب يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ، ومنهم عقيل بن أبي طالب شقيق علي بن أبي طالب قدم على معاوية بالشام فأمر له معاوية بثلاثمائة ألف دينار وقال له : هذه مائة ألف تقضي بها ديونك ومائة ألف تصل بها رحمك ومائة ألف توسع بها على نفسك . وكان عقيل قدم من قبل على أخيه في الكوفة فشكا له الضائقة فوعده بأن يعطيه عطاءه إذا خرج فقال عقيل : وإنما شخوصي من الحجاز إليك من أجل عطائك وماذا يبلغ مني عطاؤك وما يدفع من

حاجتي ؟ وكان معاوية مدة حكمه في الشام أميراً نحـو عشرين سنة ، وخليفة مثلهـا يعمد الى المال فينفقه إذا رأى هناك مصلحة ، وما ينحسم بالمال وحسن التدبير لا يحله بإهراق الدماء إلا بعد الاضطرار الشديد .

مقتل عثمان بن عفان :

وبينا كان معاويـة في الشام مستقلاً بعض الاستقلال بعيداً عن كل شغب أخذ الناس ينقمون في الحجـاز وغيره على عثمان لست سنين من خلافته وتكلم فيه من تكلم . « فاجتمع ناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان سنة رسول الله وسنة صاحبيه ، وما كان من هبته خمس إفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة داراً لنائلـة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته ، وبنيان مروان القصور بذي خشب وعمـارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أُمية أحداث وغِلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور » . هذه خلاصة دعواهم عليه وقد دفع عن نفسه كل ذلك فما اقتنعوا ولا كفوا عن النيل منه .

وما زال عثمان على شيخوخته مغلوباً لمروان وبني أُمية وأهم ما عدوا عليه توسيده الأمور لهم، حتى قتل في المدينة وتولى الخلافة علي بن أبي طالب . وكان معاوية على مثل اليقين من أن علياً لا يقره على الشام فكان كما ظن ، وهنا ظهر نبوغ معاوية السياسي حتى بلغ ما أراد وقسم الأمـة شطرين له وعليه وكانت كفته الراجحة . ولما بعث عليٌّ عماله على الأمصار كان من جملة من بعث سهل بن حنيف الى الشام، فأما سهل فإنه لما انتهى الى تبوك وهي تخوم أرض الشام استقبلته خيول لمعاويـة فردوه فانصرف الى عليّ فعلم عليّ عند ذلك أن معاوية قد خالف وأن أهل الشام بايعوه . واختلفت الآراء في تبعة معاوية من مقتل عثمان فقال فريق: إن عثمان كتب الى معاوية : « إن أهل المدينة قد كفروا وخلعوا الطاعـة ونكثوا البيعة

فابعث اليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول » . فتربص به معاوية وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله وقد علم اجتماعهم فأبطأ أمره على عثمان حتى قتل فيما قيل .

آمال علي بن أبي طالب في الخلافة :

ولم يتخلف معاوية عن مبايعة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فقط،بل قام يطالب بدم عثمان ويتهم علياً بقتله لأن علياً كان يحتج على الصحابة منذ يوم البيعة لأبي بكر ويقول : أنا أجدر بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح : « يا ابن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالاً واضطلاعاً فسلّم لأبي بكر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك » . وقد وقعت لعلي تأوهات في المطالبة بالخلافة وأنه بُغي عليه في ذلك وغمط حقه في عهد الثلاثة الخلفاء، ولذلك كان في تساهله بالدفاع عن عثمان وجه عند بعضهم على حين ثبت أن علياً قرّع عثمان على التفريط وأنذره بأن عاقبته تكون القتل بقوله : أُحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يقتل فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة .

وذكر ابن حزم أن امتناع معاوية من بيعة عليٍّ كامتناع علي من بيعة أبي بكر،فما حارب أبو بكر ولا أكرهه وأبو بكرٍ أقدر على عليٍّ من عليٍّ على معاوية ، ومعاوية في تأخره عن بيعة عليٍّ أعذر وأفسح مغاراً من عليٍّ في تأخره عن بيعة أبي بكر ، لأن علياً لم يمتنع من بيعة أبي بكر أحد من المسلمين غيره بعد أن بايعه الأنصار والزبير ، وأما بيعة علي فإن جمهور الصحابة تأخروا عنها إما عليه وإما لا له ولا عليه،وما تابعهم فيه الا الأقل سوى أزيد من مائة ألف مسلم بالشام والعراق ومصر والحجاز كلهم امتنع من بيعته،فهل معاوية إلا كواحد من هؤلاء في ذلك ؟ الى أن

قال بشأن البيعة : فصح أن علياً هو صاحب الحق الإمام المفترضة طاعته ومعاوية مخطىء مأجور مجتهد قال : ولم يقاتل عليٌّ معاويــة لإمتناعه من بيعته لأنه كان يسعه في ذلك ما وسع ابن عمر وغيره ولكن قاتله لامتناعه من إنفاذ أوامره في جميع أرض الشام وهو الإمام الواجبــة طاعته، فعليٌّ المصيب في هذا ولم ينكر معاوية قط فضل عليٍّ واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أداه الى رأي تقديم أخذ القَوَد من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه عن ولد عثمان وولد الحكم بن أبي العاص لسنه ولقوته على الطلب بذلك .

اتفاق معاوية وعمرو بن العاص على المطالبة بدم عثمان :

اغتنم معاوية هذه الفرصة السانحــة في مقتل عثمان ليعيد الأمر الى بني أمية ويصبحوا أمراء في الإسلام كما كانوا أمراء في الجاهلية . وكان النعمان ابن بشير أتاه الى دمشق من المدينة بقميص عثمان الذي قتل فيــه مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته فوضع القميص على منبر دمشق ، وكتب بالخبر الى الأجناد ، وثاب اليه الناس وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلقة في أردانه ، وتعاهد الرجال من أهل الشام على قتل قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم ، وكان ستون ألف شيخ يبكون تحــت قميص عثمان .

وكان عمرو بن العاص لما نشب الناس في أمر عثمان في ضيعة له بالسبع من حيز فلسطين قد اعتزل الفتنة، فاستدعاه معاوية يسترشد برأيــه ووعده بملك مصر إن هو ظفر بعلي . فارتأى عمرو أن يجلب معاوية شرحبيل بن السمط الكندي رأس أهل الشام، فسار هذا يستقري مدنهــا مدينة مدينة يحرض الناس على الأخذ بدم عثمان ، فأجابه الناس كلهم إلا نفراً من أهل حمص نساكاً فإنهم قالوا : نلزم بيوتنا ومساجدنا وأنتم أعلم منا .

وذكر المؤرخون أن معاوية قدم بيت المقدس وقدم عليه عمرو بن العاص فبايعه على دم عثمان وكتبا كتاباً بينهما كانت صورته : « بسم الله الرحمن الرحيم » . هذا ما تعاهد عليه معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص

ببيت المقدس بعد قتل عثمان وحمل كل واحد منهما صاحبه الأمانة أن بيننا عهد الله على التناصر والتخالص والتناصح في أمر الله والإسلام ، ولا يخذل أحدنا صاحبه بشيء ولا يتخذ من دونه وليجــة ولا يحول بيننا ولد ولا والد أبداً ما حيينا فيما استطعنا » .

وهكذا أخذ معاوية يحرك النفوس ويطالب بثــأر عثمان ومما كتب به الى علي : « ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان » . فأجابه عليّ : « زعمت أنه إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى ، ومــا أمرت فيلزمني خطيئة عثمان ، ولا قتلت فيلزمني قصاص القاتل ... وأما قولك ندفع إليك قتلة عثمان، فما أنت وعثمان؟إنما أنت رجل من بني أُمية وبنو عثمان أولى بعثمان منك » .

حرب صِفّين :

وما برحت الحزازات تشتد بين عليّ ومعاوية يريد الأول أن يبايع له الثاني،ويطالب الثاني بدم عثمان وهو مستقل بالشام،حتى التقيا سنة ٣٧ في صِفّين من أرض الشام بجيشيهما وكانت بينهما وقائع سالت فيهــا الدماء كالأنهار،فقتل من أهل الشام جيش معاوية خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق والحجاز جيش عليّ خمسة وعشرون ألفــاً ، وكان معاوية في مائة وعشرين ألفاً ، وعلي في تسعين ألفاً،وجسّر عليّ الجنود « حتى قُتل من أبطال الإسلام في تلك المعــارك ألوف ولم يكترث بقتلهم » « وإن علياً لينغمس في القوم فيضرب بسيفه حتى ينثني ثم يخرج متخضباً بالدم حتى يسوى له سيفه ثم يرجع فينغمس فيهم » . ويقول الدينوري: كـان أهل الشام أيام صفين إذا انصرفوا من الحرب يدخل كل فريق منهم في الفريق الآخر فلا يعرض أحد لصاحبــه،وكانوا يطلبون قتلاهم فيخرجونهم من المعركة ويدفنونهم . وروى ابن سعد قال : « اقتتل الناس بصفين قتالاً

شديداً لم يكن في هذه الأمة مثله قط حتى كره أهل الشام وأهل العراق القتال وملوه من طول تبادلهم السيف . فقال عمرو بن العـــاص وهو يومئذ على القتال لمعاوية: أنت مطيعي فتأمر رجلاً بنشر المصاحف ، ثم يقولون: يا أهل العراق ندعوكم الى القرآن والى ما في فاتحته الى خاتمته، فإنك إن تفعل ذلك يختلف أهل العراق ولا يزيد ذلك أمر أهل الشام إلا استجماعاً ، فأطاعه معاوية ففعل ، وأمر عمرو رجالاً من أهل الشام فقرىء المصحف ثم نادى يا أهل العراق ندعوكم الى القرآن، فاختلف أهل العراق فقالت طائفة: أولسنا على كتاب الله وبيعتنا؟ وقال آخرون كرهوا القتال: أجبنا الى كتاب الله ، فلما رأى علي عليه السلام وهنهم وكراهتهم للقتال قارب معاوية فيما يدعوه اليه واختلف بينهم الرسل فقال علي عليه السلام : قد قبلنا كتاب الله فمن يحكم بكتاب الله بيننا وبينك ، قال: تأخذ رجلاً منا نختاره ونأخذ منكم رجلاً تختاره ، فاختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار علي أبا موسى الأشعري » . وجرت المهادنة بين علي ومعاويـــة على وضع الحرب بينهما ويكون لعلي العراق. ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو، فأقام معاوية بالشام يجبيها وكان ذلك سنة ٤٠ .

كانت حرب صفّين من أشأم الحروب على الأمـــة ، وهي في أول شبابها ، التقى فيها المسلم بالمسلم بالسلاح ، واقتتلا قتالاً شديداً ، وهلكت من الفريقين نفوس زكية ، فيهم الصحابة والقراء والعلماء ، ولو لم يشغل بال معاوية بمقتل عثمان ثم بمدافعة عليّ لكان تفرغ للقضـــاء على الدولة البيزنطية آخر الدهر . خصوصاً وقد كان من أكبر همه أن يغادي الروم القتال ويراوحهم منذ استقل بإمـــارة الشام . يغزوهم براً وبحراً ويصيب منهم وقلما يصيبون منه، وربما توفق معاوية وآله لولا هذه الغائلة الأهلية الى استصفاء معظم أقطار الأرض ونشر الدين واللغة فيها، واضطرت حوادث عليّ معاوية أن يهادن صاحب الروم ويرضيه بمال عظيم ريثما يتفرغ له . وقال عمرو بن العاص لمعاوية : كما بدأت الفتنة اكتب الى قيصر الروم تعلمه أنك ترد عليه جميع من في يديك من أسارى الروم وتسأله المواءمة والمصالحة تجده سريعاً الى ذلك راضياً بالعفو منك .

صلح الحسن مع معاوية :

ومن أهم الأحداث في زمن معاوية قيــام الحسن بن علي في العراق عقيب مقتل أبيه علي بن أبي طالب ، فسار معاويــة الى الموصل والتقى العسكران،فوجه معاوية الى قيس بن سعد أمير جيش الحسن يبذل له ألف ألف درهم على أن يصير معه أو ينصرف فأبى،ويقال: إنــه أرسل الى عبد الله بن عباس وبذل له مثل هذا المال فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه وهم من شيعة الحسن،وأقام قيس على محاربته حتّى اضطر الحسن الى صلح معاوية بعد أن رأى أصحابه تفرقوا عنه وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وقد سالمت معاوية وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » .

يقول الدينوري : لما رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل الى عبد الله ابن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على أن يسلم له الخلافة ، وكانت الشرائط ألا يأخذ أحداً من أهل العراق بإحنـة وأن يؤمن الأسود والأحمر ويحتمل ما يكون من هفواتهم ، ويجعل له خراج الأهواز مسلماً في كـل عام،ويحمل الى أخيه الحسين بن علي في كل عام ألفي ألف درهم،ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات عـلى بني عبد شمس ، فكتب عبد الله بن عامر بذلك الى معاوية فكتب معاوية جميع ذلك بخطه وختمه بخاتمه وبذل له العهود المركبة والأيمان المغلظة وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام، ووجه الى عبد الله بن عامر فأوصله الى الحسن (رض) فرضي به وكتب الى قيس بن سعد بالصلح ويأمره بتسليم الأمر الى معاوية والانصراف الى أعدائه،فلما وصل الكتاب بذلك الى قيس بن سعد قام في الناس فقال : أيها الناس اختاروا أحد أمرين:القتال بلا إمام أو الدخول في طاعة معاوية فاختاروا الدخول في طاعـة معاوية . فسار حتّى وافى المدائن وسار الحسن بالناس في المدائن حتّى وافى الكوفة ووافاه معاوية بها فالتقيا فوكد عليه الحسن (رض) تلك الشروط والأيمان اهـ. قال الأحنف بن قيس وقد أتاه كتاب الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما يستنصره : قد بلونا الحسن

وآل الحسن فلم نجد عندهم إيالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة الحرب. ولم يجبه الى ما طلبه إليه .

ولما مات الحسن بعد شهرين وقيل أربعة أشهر من استيلائه على العراق صفا الجو لمعاوية وبايع له الناس فملك العراق والحجاز ومصر ، وأجمعت القلوب على مبايعته طوعاً أو كرهاً . وكان ممن مالأ معاوية على تحقيق رغائبه عمرو بن العاص عامله على مصر ، والمغيرة بن شعبة عامله على الكوفة .

خلافة يزيد ورأي ابن خلدون :

أوعز معاوية سراً الى ولاة الأمصار أن يوفدوا الوفود اليه يزينون له إعطاء العهد لابنه يزيد ، حتى استوثق له أكثر الناس وبايعوه والسيوف مسلولة فيما قيل علـى رقاب الصحابة في مسجد الرسول . وبذلك أخرج معاوية الخلافة عن أصولها ، وكانت بالعهد لأفضل الصحابة أو بالشورى بينهم لمن يقع اختيارهم عليه ، وجعَلَها كالملك يورثها الأب ابنه أو من يراه أهلاً لها من خاصته،أو كسروية أو قيصرية على سنة كسرى وقيصر كما قالوا . وبذلك نقم على معاوية بعض الصحابة والتابعين من الأنصار والمهاجرين .

والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه — كما قال ابن خلدون — إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهـل الحل والعقد عليه حينئذ مـن بني أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره مما يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل الى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع ، وإن كـان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك ، وحضور الأكـابر لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن تأخذهم في الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخـذه العزة في قبول الحق ، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه ، وفرار عبد الله ابن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخـول في شيء من

الأمور مباحاً كان أو محظوراً . كما هو معروف عنه ، ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير . وندور المخالف معروف .

ثم قال : إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية ، والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس، وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ، ولا يعاب عليهم إيثارهم أبناءهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك . وكان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه ، فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره . ووكلوا كل من يسمو ذلك الى وازعه ، وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك ؛ والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطاني والعصباني ، فلو عهد الى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعاً وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف .

ومن جملة وصايا معاوية لابنه يزيد في أهل الشام : « أنظر أهل الشام فليكونوا بطانتك ورعيتك، فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم . ولما قدم مشيخة أهل الكوفة على معاوية كان فيما سألهم عنه رأيهم في أهل الأحداث من الأمصار فقال أحدهم : وأما أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم .

غزوات معاوية وأعماله ووصيته :

ومما يجب أن يذكر لمعاوية أنه مع اشتغال ذهنه بالملك لم يغفل قط عن إنشاء أسطول عظيم غزا به الروم وغزا القسطنطينية غير مرة وأغزى الروم مراراً، وكان يغزو الصوائف والشواتي أي غزوات الصيف والشتاء ، وخص قوماً من رجاله بتولي هذه الغزوات وبلغه أن الروم سنة ٤١ قد زحفت

في جموع كثيرة فخاف أن يشغلوه عما يحتاج الى تدبيره وأحكامه خصوصاً بعد خروجه من وقعة صفين فوجه إليهم فصالحهم على مائة ألف دينار. وكـــان معاوية أول من صالح الروم ، فلما استقام له الأمر أغزى أمراء الشام على الصوائف فسبوا في الروم سنة بعد سنة ، وطلب صاحب الروم الصلح على أن يضعف المال فلم يجبه،ورضي مرة بصلح ملك الروم على أن يكون عنده من أهل بيت ملكهم رهائن .

وحدث سنة ٣٤ أن معاوية كان يستعد لقصد القسطنطينية ويعد السفن الكثيرة بمدينة طرابلس ويحمل من السلاح أمراً عظيماً أن أخوين لرجـــل يقال له بقنطر، وكانا في خدمة العرب،فلما نظرا مـا أعده معاوية أخذتهما الغيرة فأتيا السجن ففتحاه وأخرجـــا من فيه من الروم وقتلوا عامل البلد وأحرقوا السفن والعدة وركبوا البحر . فلما بلغ معاوية ذلك جهز جيوشاً كثيرة الى الروم فافتتح أرضاً كثيرة وسبى من أهلها مئة ألف إنسان وبعث أخاه على البحر فانهزم الروم بحراً أيضاً ، ثم تعددت وقائعه مـــع الروم . ومن وقائعه وقعة سنة ٣١ . ولولا النار التي اخترعهـــا الروم لإحراق السفن، وبها حرقت سفن كثيرة للعرب وهلك ألوف من رجـــال بحريتهم،لامتدت الفتوحات ولسهل على معاوية فتح القسطنطينية كما سهل عليه غزو الروم لتحصينه سواحل الشام وإقامته الصناعـــة في صور وعكا وغيرها من مدن الشام .

توفي معاوية سنة ٦٠ بعد أن وطأ أكناف الملك وابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه أحد إليها ، منها أنه أول من وضع الحشم للملوك ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي الملك أو الخليفة بها في الجامع منفرداً عن الناس ، وهو أول من وضع البريد ، واخترع ديوان الخاتم واستخدم النصارى في مصالح الدولة،فعهد بنظارة المالية الى منصور وسرجون من نصارى العرب الشاميين . أوصى معاوية بني أمية فقال : إنه لما قرب مني مـــا كان بعيداً ، وخفت إن يسبق الموت إليّ ويسبقكم بي سبقته اليكم بالموعظة لأبلغ عذراً ، وإن لم أردّ قدراً ، إن الذي أخلفه لـكم من دنياي أمر تشاركون فيه أو تقبلون عليه ، وإن الذي أخلف لـكم مـــن

رأيي مقصور عليكم نفعه إن فعلتموه ، مخوف عليكم ضرره إن ضيعتموه ، فاجعلوا مكافأتي ، قبول نصيحتي ، وإن قريشاً شاركتكم في أنسابكم ، وتفردتم دونها بأفعالكم ، فقدمكم ما تقدمتم فيه إذا أخر غيركم ما تأخروا له ، ولقد جُهر لي فعلمت ، وفُهم لي ففهمت ، حتى كأني أنظر الى أولادكم بعدكم كنظري الى آبائهم قبلهم ، إن دولتكم ستطول ، وكل طويل مملول ، وكل مملول مخذول ، فإذا انقضت مدتكم كان أول ذلك اختلافكم بينكم ، واتفاق المختلفين عليكم ، فيدبر الأمر بضد ما أقبل به ، فلست أذكر عظيماً يُنال منكم ، ولا حرمة تُنتهك لكم ، إلا وما أكف عن ذكره أعظم منه ، فلا معوّل عليه عند ذلك أفضل من الصبر ، واحتساب الأجر ، فيا لها دولةٌ أنست أهلها الدولَ في الدنيا والعقوبة في الآخرة ،فيمادُّكم القوم دولتكم تمادَّ العِنانيْن في عنق الجواد ، فإذا بلغ الأمر مداه ، وجاء الوقت الذي حده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ضعفت الحيلة ، وعزب الرأي ، وصارت الأمور الى مصايرها ، فأوصيكم عندها بتقوى الله عز وجلّ الذي يجعل لكم العاقبة إن كنتم متقين .

خلافة يزيد ومقتل الحسين ووقعة الحرة :

تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه ثلاث سنين وستة أشهر ،وسار على خطته في جهاد الروم وكان جلداً صبوراً ، .ولم تمنعه فتن ابن الزبير وشيعة العراق عن قتالهم ، وأهم الأحداث في زمانه قتل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) في كربلاء من العراق ، وحمل رأسه الشريف الى الشام ، وإهانة أسرته الطاهرة ، وقتل بعض رجالها . فارتكب ابن زياد عامل العراق ليزيد من ذلك أمراً نكراً أكبره أهل الإسلام وزادت بذلك شيعة علي وآله حنقاً وشدة . ولم يكن يزيد يريد قتل الحسين عملاً بوصية والده له ، فإن زحر بن قيس لما حمل من العراق الى الشام أهل بيت الحسين ودخل على يزيد وبشره بذلك دمعت عينه وقال : قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سُميّة (يعني ابن زياد) ،

أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين . ومن الأحداث في أيام يزيد تسييره بالجيش الى نواحي حماة وتصدي أهل لبنان له وهزيمته. وغزا الروم في ولايتـه للعهد ثم غزاهم في خلافته وعد ذلك من مزايـاه ومزايا أبيه .

واتفق أهل المدينة سنة ٦٢ على خلع يزيد فأخرجوا عماله وآله فجهز جيشاً مع مسلم بن عقبة وأمره بقتال أهل المدينة فإذا ظفر بها أباحها للجند ثلاثه أيام ، وأن يبايعهم على أنهم خَوَل وعبيد ليزيد . فقـاتل جند الشام أهل المدينة في الحَرَّة واستباح مسلم المدينة،وكان قتلى الحرة سبعمائة من وجوه الناس من قريش والمهاجرين والأنصـار وعشرة آلاف من وجوه الموالي ، ثم بايع من بقي من الناس .

حنقت نفوس الأمة من وقعة الحرة لأن فتنتها التهمت بضع مئات من علية قريش ، وكانت غلطة زياد في قتل الحسين وسبي آلـه الطاهرين ذريعة أكبر للنيل من يزيد وآل يزيد ، فتقولوا عليه وحطوا من كرامته، مع أنه سار بسيرة أبيه في الملك من التوسع في الفتوح وقتال أعداء المملكة من الروم . أما وقعة الحرة فإن أهل المدينة استطالوا على يزيد وحاسنهم فخاشنوه وأحرجوه حتى أخرجوه .

عهد معاوية الصغير :

توفي يزيد بن معاوية سنة ٦٤ وبويع ابنه معاوية بن يزيد ثالث خلفاء بني أُمية ، ولما استخلف لبث شهرين وليالي محجوباً لا يُرى ، ثم خرج بعد ذلك فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيهـا الناس إني نظرت فيما صار اليَّ من أمركم ، وقلدتـــه من إمارتكم ، فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربـي أن أتقدم على قوم وفيهم من هو خير مني، وأحقهم بذلك وأقوى على ما قلدته ، فاختاروا مني إحدى خصلتين إما أن أخرج منها وأستخلف عليكم من أراه لكم رضىً ومقنعـاً ، ولكم الله عليَّ لا آلوكم نصحاً في الدين والدنيا ، وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني

منها ، فأنف الناس من قوله ، وأبوا من ذلك وخافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم وماج أمرهم واختلفوا .

وقيل: إنه خطب الناس وقال : « ما كنت أتقلدكم حياً وميتاً فوالله لئن كانت الدنيا مغنماً فقد نلنا منها حظاً ، وإن تكن شراً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها » . فقال له مروان بن الحكم : سُنّها فينا سيرة عمرية قال : ما كنت أتقلدكم حياً وميتاً . ولما حضرته الوفاة بعد خلافته بأربعة أشهر وقيل أقل من ذلك ، وله عشرون سنة وقيل إحدى وعشرون سنة ، لم يرض أن يعهد بالأمر من بعده . وقال : أتفوز بنو أمية بحلاوتها ، وأبوء بوزرها وأمنعها أهلها ، كلا إني لبريء منها . قال المسعودي: إنه أراد أن يجعلها الى نفر من أهل الشورى ينصبون من يرونه أهلاً لها . وقيل: إن معاوية بن يزيد كان قدرياً ، لأن عمر المقصوص كان علمه ذلك ، فدان به وتحققه ، فلما بايعه الناس قال للمقصوص : ما ترى ؟ قال : إما أن تعتدل أو تعتزل . فخطب الناس يستعفي من بيعتهم ، فوثب بنو أمية على عمر المقصوص وقالوا : أنت أفسدته وعلمته فطمروه ودفنوه حياً . ويقول الطبري : وكان معاوية بن يزيد بن معاوية فيما بلغني أمر بعد ولايته فنودي الصلاه جامعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم . ثم دخل منزله ولم يخرج الى الناس وتغيب حتى مات . فقال بعض الناس: دُس إليه فسقي سماً وقال بعضهم: طعن .

قيام ابن الزبير وخلافة مروان بن الحكم ووقعة مرج راهط :

وكان عبد الله بن الزبير قد تغلب على مكة وتسمى بأمير المؤمنين ومال إليه أكثر النواحي . ابتدأ أمره في أيام يزيد بن معاوية فلما توفي يزيد مال الناس الى ابن الزبير . وكان بفلسطين ناتل بن قيس الجذامي ، وبدمشق الضحاك بن قيس الفهري ، وبحمص النعمان بن بشير الأنصاري ،

وبقنسرين والعواصم زفر بن الحارث الكلابي ، وثب على سعيد بن بدل الكلبي وأخرجه منها ، ولم تبق ناحية إلا مالت الى ابن الزبير خلا الأردن ورئيسها يومئذ حسان بن بحدل الكلبي بمعنى أن الناس افترقوا « ثلاثاً : فرقة بحدلية وهو اسم لبني حرب ، وفرقة زبيرية ، وفرقة لا يبالون لمن كان الأمر » .

وقدم مروان بن الحكم ، وأمر الشام مضطرب ومعظم أجنادها مبايعة لابن الزبير ، فدعا مروان الى نفسه وهو من أعظم رجال أمية عقلاً ودهاء وسياسة وحنكة . واجتمع الناس بالجابية من أرض حوران فتناظروا في ابن الزبير وفيما تقدم من بني أمية عندهم ، وتناظروا في خالد بن يزيد بن معاوية ، وفي عمرو بن سعيد بن العاص بعده ، فكان رَوْح ابن زنباع الجذامي يميل مع مروان فقام خطيباً فقال : يا أهل الشام هذا مروان بن الحكم شيخ قريش ، والمطالب بدم عثمان ، والمقاتل لعلي بن أبي طالب يوم الجمل ويوم صِفين ، فبايعوا الكبير واستنيبوا للصغير . فلما عقدوا البيعة جمعوا من كان في ناحيتهم ، ثم تناظروا في أي بلد يقصدون فقال : نقصد دمشق فإنها دار الملك ومنزل الخلفاء ، وقد تغلب بها الضحاك بن قيس فلقوا الضحاك بمرج راهط ، وكان مع الضحاك من أهل دمشق وفتيتهم جماعة ، وقد أمده النعمان بن بشير عامل حمص بشرحبيل بن ذي الكلاع في أهل حمص ، وأمده زفر بن الحارث الكلابي بقيس بن طريف بجيش من شمالي الشام ، فكان في ثلاثين ألفاً ، ومروان في ثلاثة عشر ألفاً أكثرهم رجالة ، والتقوا بمرج راهط فاقتتلوا قتالاً شديداً ودام القتال عشرين يوماً فقتل الضحاك بن قيس وخلق من أصحابه ، وهرب من بقي من جيشه . وبلغ الخبر النعمان بن بشير وهو بحمص فخرج هارباً ، فتبعه قوم من حمير وباهلة ، وقيل من أهل حمص فقتلوه في البرية ، وكان من أخطب أهل الدنيا ، وهرب زفر بن الحارث الكلابي والخيل تتبعه حتى أتى قرقيسيا على الخابور .

وأقام مروان بن الحكم بالشام في أيام ابن الزبير واجتمعت إليه بنو أمية بعد وقعة مرج راهط التي انقسمت بها الشام فرقتين قيسية ويمانية ،

وغلب اليمانية وكان بنو أمية يبغضون اليمانية . قال المسعودي : وكانت هذه الوقعة سبب رد ملك بني أمية ، وقد كان زال عنهم الى بني أسد ابن عبد العزّى،ولذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف . وهذه الوقعة من الوقائع المشهورة التي تفتخر بها اليمانية على النزارية ، وقد أكثرت شعراؤها الافتخار بذلك . ولما بويع لمروان بن الحكم اشترط حسان بن مالك ، وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام ، على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، منها أن يفرض لهم لألفي رجل ، ألفين ألفين ، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه ، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة ، فرضي مروان بذلك وانقاد إليه . وكان هذا أول قانون عربي وضع للتشريفات (بروتوكول) وضع أساسه القحطانية ، وكانوا اصطلحوا على ذلك منذ عهد معاوية ، أرضاهم بهذا التصدر فدخل مصطلحهم في طور الدساتير المعمول بها .

ولم يلبث مروان أن وجه جيشاً الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ثم خرج يريد مصر ، فلما سار الى فلسطين وجد ناتل بن قيس متغلباً على البلد فحاربه ، فهرب ولحق بابن الزبير ، وسار مروان الى مصر فصالحه أهلها. وأرسل عبيد الله بن زياد الى العراق لقتال الشيعة ، ولما صار مروان الى الصِّنَّبْرَة من أرض الأردن منصرفاً من مصر بلغه أن حسان بن بحدل قد بايع عمرو بن سعيد بن العاص ، فأحضره فأنكر وبايع لعبد الملك ، ثم بعده لعبد العزيز بن مروان ، وكانت ولاية مروان تسعة أشهر وقيل ثمانية وقيل ستة . وبايع أهل الشام بعده لابنه عبد الملك « وكان مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف كرهاً ، على ما قيل بغير رضى من عصبة من الناس ، بل كل خوّفه إلا عدد يسير حملوه على وثوبه عليها ، وقد كان غيره ممن سلف أخذها بعدد وأعوان » . لا جرم أن مروان سيد بني عبد مناف في عصره كان من الرجال العظام وكان مولعاً بالشورى في إمارته المدينة وكان يجمع في ولايته عليها أصحاب رسول الله يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه ، ومثل هذا الرجل بطول تجربته وحنكته

وأخذه بالآراء السديدة ينجح ولا شك في عمله ، فهو مفخرة من مفاخر الأمويين وبنو أمية مدينة بالخلافة له .

خلافة عبد الملك بن مروان :

كان عبد الملك بن مروان بعد مهلك أبيه بعيداً عن دمشق فأقبل مسرعاً خوفاً من وثوب عمرو بن سعيد ، وكان عمرو بن سعيد من أحب الناس الى أهل الشام يسمعون له ويطيعون . واجتمع الناس على عبد الملك فقال لهم : إني أخاف أن يكون في أنفسكم مني شيء فقام جماعة من شيعة مروان فقالوا : والله لتقومنّ الى المنبر أو لنضربن عنقك ، فصعد المنبر وبايعوه .

وتفرغ عبد الملك لاستصفاء العراق من شيعة علي فاستخلصها منهم بعد أن قتل من الطرفين جمهور كبير ، وقتل أشراف أهل الشام وكان جيشهم ثلاثين ألفاً . وذكر اليعقوبي وأكد روايته غير واحد من المؤرخين أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة . ووجه وجوه الناس الى مسجد بيت المقدس فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سَدَنة ، وأخذ الناس بالطواف حولها كما تطوف حول الكعبة . قلنا: وكذلك فعل بنو أمية في الأندلس في الغرب ، فإنهم منعوا الناس عن الحج مدة ملكهم أوائل عهد بني العباس مخافة أن يأخذهم العباسيون بالبيعة لهم .

ومن الأحداث في أيام عبد الملك تجهيز يوحنا أمير جبل لبنان اثني عشر ألف فارس وذهابه الى البقاع ونزوله في قب الياس ، وغزوه الجبل الشرقي وشنه الغارات على الحجاج حتى ضاقت به الرعية وقطعت الطرق وخربت المسالك . وكان أمير لبنان مرتبطاً مع صاحب الروم بعهود فسار قائد جيوشهم لاون سنة ٦٥ وضم إليه عساكر الجبل ، وغزا أرض العرب واسترد منهم ما كانوا أخذوه ، فاضطر عبد الملك بن مروان الى تجديد الهدنة مع ملك الروم على أن يدفع له كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً

ويقاسمه على خراج قبرس وإرمينية على شرط أن يخرج اللبنانيين من جبلهم، فأجابه ملك الروم الى ذلك .

الجراجمة والمردة في جبل لبنان :

ويؤخذ مما قاله ابن عساكر أن طاغية الروم لما رأى ما صنع الله للمسلمين من منعه مدائن الساحل ، كاتب أنباط جبل لبنان واللكام فخرج الجراجمة وعسكروا بالجبل ، ووجه ملك الروم قلقط البطريق في جماعة من الروم في البحر فسار بهم حتى أرسى بهم بوجه الحجر وخرج بمن معه حتى علا بهم على جبل لبنان ، وبث قواده في أقصى الجبل حتى بلغ أنطاكية وغيرها من الجبل الأسود ، فأعظم ذلك المسلمون بالساحل حتى لم يكن أحد يخرج في ناحية من رجال ولا غيرها إلا بالسلاح ، فغلبت الجراجمة على الجبال كلها من لبنان وسنير وجبل الثلج وجبال الجولان ، فكانت بالسبل مسلحة لنا ، وفي الرقاد وعقربا الجولان مسلحة ، حتى جعلوا ينادون عبد الملك بن مروان من جبل دير مران من الليل ، وبعث إليهم عبد الملك بالأموال ليكفوا حتى يفرغ إليهم ، وكان مشغولاً بقتال أهل العراق ومصعب بن الزبير وغيره . قال : ثم كتب عبد الملك الى سحيم بن المهاجر في مدينة طرابلس وكان أمرها يتواعده ويأمره بالخروج إليهم،فلم يزل سحيم ينتظر الفرصة منهم ويسأل عن أخبارهم وأمورهم حتى بلغه أن قلقط في جماعة من أصحابه ، وتهيأ بهيئة الروم في لباسه وهيئته وشعره وسلاحه،متشبهاً ببطريق من بطارقة الروم قد بعثه ملك الروم الى جبل اللكام في جماعة من الروم فغلب على ما هنالك ، فلما دنا من القرية خلّف أصحابه فقال : انتظروني الى مطلع كوكب الصبح فدخل على قلقط وأصحابه وهم في كنيسة يأكلون ويشربون ، فمضى الى مقدم الكنيسة فصنع ما يصنعه النصارى من الصلاة والقول عند دخولهم كنائسها، ثم جلس الى قلقط فقال له : من أنت فانتمى الى الرجل الذي يشبه به فصدقه ، وقال له : إنما جئتك لما بلغني عن جهاد سحيم وما اجتمع عنده من العساكر للخروج إليك ، فأتيت لأخبرك به وأكفيك أمره ، إياك أن

تتناول من طعامهم . ثم قال لقلقط وأصحابه : إنكم لم تأتوا هنا للطعام والشراب ، ثم قال لقلقط : ابعث معي عشرة من هؤلاء من أهل النجدة والبأس حتى نحرسك الليلة ، فإني كئيب أن تأتيك بلية ، فبعث معه عشرة وأمرهم بطاعته ، فخرج بهم الى أقصى القرية وقام بهم على الطريق الذي يتخوفون أن يُدخل عليهم منه ، فأقام حارساً منهم وأمر أصحابه فناموا ، فأمر الحارس إذا هو أراد النوم أن يوقظ حارساً منهم وينام هو، فحرس الأول ثم أقام الثاني ثم قام سحيم ثم قال : أنا أحرس فنم فلما ثقل نومهم قتلهم بذبابة سيفه رجلاً بعد رجل، فاضطرب التاسع، فأصاب العاشر برجله ، فوثب الى سحيم فأخذه وصرعه الرومي وجلس على صدره وأخرج سحيم سكيناً ومقلها في نحره فقتله ، ثم أتى الكنيسة فقتل قلقط وأصحابه رجلاً بعد رجل ، ثم خرج الى أصحابه العشرين فجاء بهم وأراهم قتله وقتل الحرس وقلقط ومن في الكنيسة ووضعوا سيوفهم فيمن بقي فنذر بهم من بقي منهم ، وخرجوا هراباً حتى أتوا سفنهم بوجه الحجر فركبوها، ولحقوا بأرض الروم ورجع أنباط جبل لبنان الى قراهم .

ورواية البلاذري في هذه الوقعة هكذا : وأقبل طاغية الروم يريد الشام وخرج أيضاً قائد قواد الضواحي في جبل اللكام فاتبعه خلق من الجراجمة والأنباط وأبّاق عبيد المسلمين وغيرهم، ثم صار الى لبنان فأقبل عبد الملك مغذاً للسير حين أتاه كتاب ابن أم الحكم بذلك، فلما ورد دمشق وجه حميد بن خريث بن بحدل الكلبي بهدايا وألطاف الى طاغية الروم وكتب إليه معه يسأله الموادعة على إتاوة وأعطاه إياها كما فعل معاوية حين أراد، إتيان العراق فقبل الطاغية الهدايا وما بذل له عبد الملك من الإتاوة وأعطاه رُهناء من أبناء الروم وصيرهم ببعلبك، ووادع عبد الملك الذين خرجوا بلبنان وجعل لهم في كل جمعة ألف دينار فركنوا الى ذلك ولم يعيثوا بفساد، ثم دس إليهم سُحيم بن المهاجر فتلطف حتى وصل الى رئيسهم متنكراً فأظهر ممالأته وتقرَّب إليه بذم عبد الملك وشتمه ووعده أن يدله على عوراته وما هو خير له من الصلح الذي بذل له، ثم عطف عليه وهو وأصحابه غارون غافلون بجيش من موالي عبد الملك وبني أمية وجند من

ثقات جنده وكماتهم كان أعدهم لمحاربته وأكمنهم في مكان بالقرب منه خفيّ فقتل أولئك الروم وبشراً من الجراجمة وغيرهم ثم أذن بالأمـــان فيمن بقي من الجراجمـــة ومن سواهم فتفرقوا في قراهم ومواضعهم، فلما أصلح عبد الملك أموره استخلف ابنه الوليد على دمشق ومعـــه سعيد بن مالك بن بحدل . قال: وأمر عبد الملك فنادى من أتانا من العبيد يعني الذين كانوا مع أولئك القوم فهو حر وله أن أثبته في الديوان، فانفض إليه خلق منهم كانوا ممن قاتل مع سحيم وقد وفى لهم وجعل لهم رَبْعاً على حدة فهم يسمون الفتيان الى الآن .

ولما كانت سنة ٨٩ اجتمع الجراجمة الى مدينتهم وأتـــاهم قوم من الروم من قبل الإسكندرونة ومرسين، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة ابن عبد الملك فأناخ عليهم في خلق فافتتحها ، على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ، ويجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وهـــو مدان من قمح ، وقسطان من زيت ، وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية ، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين ، فأخرب مدينتهم وأنزلهم فأسكنهم جبل الحُوّار وسنح اللولون (؟) وعمق تيزين وصار بعضهم الى حمص ونزل بعضهم بطريق الجرجومة في جماعة معه من أنطاكية ثم هرب الى الروم . قال ياقوت : واستعان المسلمون بالجراجمة في مواطن كثيرة في أيام بني أُمية وبني العباس وأجروا عليهم الجرايات وعرفوا منهم المناصحة .

قتل ابن الزبير في مكة بعد أن كانت خلافته تسع سنين والفتنة بينه وبين عبد الملك سبع سنين ، فبويع لعبد الملك بالحجاز واليمن وصفا له ملك مصر والشام والحجاز والعراق واليمن وغيرها . وفي سنة ٧٥ وصل موريق وموريقان من قواد الروم الى الشام وحملا بجيوشهما على دير القديس مارون في جهات حماة وقتلا منه خمسمائة راهب وهدما بنيانه ، ثم تحولا

من هناك الى قنسرين والعواصم فقتلا الأهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيا أحداً من أتباع بطريرك الموارنة،ثم انتهى جيشهما الى طرابلس فخضع لهم أهل الكورة،ثم قوي الجبليون على عسكر الروم ثم قتلوا أكثرهم وانهزم الباقون . دعا الروم الى قتال الموارنة لقولهم بالطبيعتين والمشيئتين ثم وفد وفد منهم مع لاون القائد يبيح أن يحارب الجيش الموجه عليهم،فلما عرف الجبليون وأهل العواصم بهذا انهالوا على الأروام من أعالي الجبل فقاتلوهم حتى قتلوا أكثرهم وانهزم الباقون . قال الدويهي : وبسبب هذه الحملة على يوحنا مارون ولا سيما بسبب الوقعة التي جرت بين أهل الكورة وجبة بشري كان بدء التفرقة بين الموارنة والملكية. لأن الذين اتبعوا جيش الروم وانقادوا لرأيهم سموا ملكية تبعاً للملك،والذين ثبتوا في الأمانة تحت طاعة البطريرك يوحنا مارون سموا موارنة .

وقال ابن القلاعي : إن الموارنة في دخول المسلمين الى الشام كانوا يسكنون جبل لبنان ، ويتولون الجبال والسواحل التي تجاورهم ، وبلادهم من حدود الشوف الى بلاد الدريب ، وأميرهم يسكن قرية بسكنتا نزل الى البقاع في رجاله ونهبها وقتل كثيرين ولبث أياماً في قب الياس ، فلما انتهى خبره الى عبد الملك بن مروان أرسل اليه هدية ولم يزل يمكر به حتى قتله وقتل كثيرين من عسكره ، وأحرق القرى وأبعد الموارنة من البقاع ، ولم تزل الحروب منذ ذلك الحين ثائرة بين المسلمين والموارنة الى نحو ثلاثين سنة ثم ابتنى الموارنة حصناً فوق نهر الكلب جرت عنده موقعة هائله .

عهد الوليد :

توفي عبد الملك في سنة ٨٦ بعد أن ولي الخلافة منذ قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر ، وكان من الحزم وسعة الصدر وجمال العلم والأدب على جانب عظيم ، ويعد من فقهاء المدينة وهو أول من حولت الدواوين في أيامه الى العربية ، وفي عهده نقشت الدنانير والدراهم بالعربية (٧٦) وكان قبل ذلك نقش الدنانير بالرومية ونقش الدراهم

بالفارسية ، وهو أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء ، وكان الناس قبل ذلك يراجعون ويعترضون عليهم .

وبويع للوليد بن عبد الملك . وكانت أيامه من أبرك أيام بني أمية عمّر الجوامع العظام ، وكتب الى الأمصار بهدم المساجد والزيادة فيها ، وبث في الأمة روح العمران ، فكان الناس إذا التقوا في زمانه ، يسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات في كل مكان ، وكان أول من عمل أعمالاً جسيمة ابتدعها في الصدقات والقربات ، هذا مع أن الخراج انكسر في أيامه فلم يحمل كثير شيء من العراق وغيره ، فاضطر الى إحصاء أهل الديوان ، وألقى منهم بشراً كثيراً بلغت عدتهم عشرين ألفاً ، وأجرى الوليد على زمنى أهل الشام كالمجذّمين والعميان وكساهم وأمر لكل منهم بخادم ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة ، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشرة ، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة ، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف ، وكان وهو وليُّ عهد ، يطعم من وفد إليه من أهل الصائفة قافلاً ، ويطعم من صدر عن الحج بمنزل زيزاء في البلقاء ثلاثة أيام ، ويعلف دوابهم ، ولم يقل في شيء يُسأله : لا . فقيل له : إن في قولك أنظرُ عدَةً ما،يقيم عليها الطالب فقال : لا أعوّد لساني شيئاً لم أعتده وقال:

ضمنت لكم إن لم تعقني عوائق   بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك إلحاق معاً وزيادة   وأعطية مني عليكم تَبرّع
محرّمكم ديوانكم وعطاؤكم   به يكتب الكتاب شهراً وتطبع

وقد بلغ بنو أمية في عهد الوليد أقصى درجات عزهم ، واعتز بحكمه الإسلام والمسلمون ، وفتحت الفتوح العظام وتغلغلت جيوشه في أرض الترك والروم والهند ، وفتحت الأندلس وجاء فاتحها موسى بن نصير الى دمشق يضع بين يدي الخليفة الأموال والجواهر ، ويعرض أبناء ملوك البربر والجزائر والروم والإسبان والإفرنج يلبسون تيجانهم ، ويقف أبناء ملوك أوروبا في باب الخليفة الأموي بحالة الأسر . وبعث الوليد أخاه مسلمة

لغزو الروم فقتل منهم أربعين ألف رجل ، وغزا قلقية وفتح فيها حصوناً كثيرة بالأمان ، وحمل أهلها الى الشام وفتح أمسية وحصوناً كثيرة .

سليمان بن عبد الملك :

توفي الوليد سنة ٩٦ فبويع أخوه سليمان بن عبد الملك سابعهم ، وكان حسن السيرة فصيحاً مفوّهاً،أتته بيعة الأجناد وهو بالبلقاء فأتى القدس وأتته الوفود بالبيعة ، فلم ير الناس وفادة أحسن منها ، جلس في قبة صحن المسجد ، وقد بسطت البسط لديه والنمارق عليها والكراسي ، فجلس وأذن للناس أن يجلسوا على الكراسي والوسائد ، والى جانبه الأموال والكساوي وآنية الذهب والفضة والدواوين ، فيدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعمن قدموا من عنده ويقول : إن من جندنا كذا ومن حاجتهم كذا وكذا ومما يصلحهم كذا ، فيأمر سليمان بذلك كله .

ردّ المظالم وعزل عمال الحجاج ، وأخرج من كان في سجن العراق ، وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم ، وكانت أيامه ذات فتوح متوالية ، جاء الخبر الى سليمان بن عبد الملك أن الروم خرجت على ساحل حمص ، فسبت امرأة وجماعة ، فغضب سليمان وقال : والله لأغزونهم غزوة افتتح بها القسطنطينية أو أموت دون ذلك ، فأغزى جماعة أهل الشام والجزيرة والموصل في البر في نحو مائة وعشرين ألفاً ، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب ، وعلى جماعة الناس مسلمة بن عبد الملك ، وأغزى داود بن سليمان في جماعة من أهل بيته ، وقدم سليمان من القدس الى دمشق ، ومضى حتى نزل مرج دابق فأمضى البعث وأقام بالمرج . واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً وأوصى له سليمان بالخلافة ، فسمي سليمان مفتاح الخير لاستخلافه عمر بن عبد العزيز .

عهد عمر بن عبد العزيز وسيرته :

لما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أوائل سنة تسع وتسعين أبطل سب علي رضي الله عنه على المنابر ، وكان من العادة سبه عقيب كل خطبة

منذ عهد معاوية بن أبـي سفيان الذي قدم الخطبة على صلاة الجمعة ، لأن الناس كانوا يكرهون سماع اللعن ، فكانوا إذا أدوا الصلاة خرجوا مـن المسجد . أراد معاوية من ذلك كما قال ابن أبـي الحديد : « تشييد الملك وتأكيد ما فعله الأسلاف ، وأن يقرر في أنفس الناس أن بني هاشم لا حظ لهم في هذا الأمر ، وأن سيدهم الذي به يصولون ، وبفخره يفخرون ، هذا حاله وهذا مقداره ، فيكون مَن ينتمي إليه ويدلي به عن الأمر أبعد، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح » . على أن الطالبيين كانوا يقنتون عقيب كل صلاة ويلعنون أيضاً بني أمية .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى نوابه بإبطال السب وكانوا يقولون : لعن الله أبا تراب . ولما خطب يوم الجمعة ، أبدل السب في الخطبة بقوله تعالى : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » . وقيل : بل جعل مكان ذلك قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون». فاستمر الخطباء على قراءتها الى هذا اليوم ، وشكر سعيه كل عاقل . وردَّ عمر بن عبد العزيز المظالم ، وسار سيرة عمر بن الخطاب جده لأمه، واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته ، واستدعى الجيش الإسلامي من حصار القسطنطينية ساعة ولي الخلافة حقناً لدماء المسلمين ، وكان قد بلغ منهم الجهد ، ولم يغفل مع ذلك عن غزو الروم عند الاقتضاء الشديد . ولو طال أجله لأجلى المسلمين عن الأندلس لأنه رأى مقامهم فيها غير طبيعي لإحاطة الأعداء بهم ، وردَّ جيوش المسلمين من الشرق ومنعهم من التوغل فيه قائلاً : يكفي ما فتح الله على المسلمين من الفتوح .

ويرجع الفضل في العهد لعمر بن عبد العزيز الى سليمان بن عبد الملك الذي عرف بحكمته أن ابن عبد العزيز أعدل رجل وأعقل رجل في بني أمية ، فعهد إليه بالخلافة فأحسن للأمة وأي إحسان ، وحنق عليه بعض المتلاعبين من أهل بيته فسقوه السم فيما قيل فهلك سنة ١٠١ ، وخلافته

سنتان وخمسة اشهر . وكانت سيرة عمر بن عبد العزيز مضرب الأمثال في القاصية والدانية ، وقدوة السلف للخلف في كل عصر ومصر . قال عمرو ابن ميمون : كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة .

بعث عمر بن عبد العزيز وفداً الى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه إليه ، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه ، وهو جالس على سرير ملكه والتاج على رأسه ، والبطارقة عن يمينه وشماله ، والناس على مراتبهم بين يديه ، فأدى إليه ما قصدوا له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن جواب وانصرفوا عنه في ذلك اليوم ، فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله فدخلوا عليه ، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاجّ عن رأسه ، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة فقال : هل تدورن لماذا دعوتكم ؟ قالوا لا : قال: إن صاحب مسلحتّي التي تلي العرب جاءني كتابه في هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات ، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا فقال : لا تبكوا له وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم . فإنه قد خرج الى خير مما خلف . قد كان يخاف أن يدع طاعة لله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا والآخرة . لقد بلغني من بره وفضله وصدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه . ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعة ، ولكني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب ، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً .

يزيد بن عبد الملك وهشام والوليد بن يزيد :

تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك تاسع الأمويين ، وقد لُقب الوليد وسليمان ويزيد وهشام أبناء عبد الملك بالأكبش الأربعة ، ولم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء . فعزل يزيد عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً وأعاد سب عليّ على المنابر ، ودام ذلك الى

انقضاء أمر بني مروان ، يربو عليها الصغير ويهرم الكبير ، ولم يكن يزيد بن عبد الملك بالخليفة الذي تحمد سيرته كثيراً ، وتوفي بعد أن تولى الخلافة أربع سنين وشهراً وعهد بها الى أخيه هشام وهو عاشرهم ، وكان هشام يحب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال وتقوية الثغور وإقامة البرك والقني في طريق مكة وغير ذلك . وكان لا يدخل بيت ماله مال حتى يشهد أربعون قسامة لقد أُخذ من حقه وأعطي لكل ذي حق حقه. وظهر في أيامه بخراسان سليمان بن كثير الخزاعي وأصحابه يدعون الى بني هاشم سنة ١١١ فانتشرت دعوتهم وكثر من يجيبهم ، وأرادوا خلع بني أمية وبيعة بني هاشم ، فقاتلهم وقاتل الخوارج على ملكه في أقطار أخرى ، وكان قد بلغ ملك بني أمية فارس والسند وشمالي إفريقية والأندلس.

وغزا هشام وهو من أحزم بني أمية الروم مرات وأسر قسطنطين ملكهم وحارب الترك كما حاربهم من قبله من الخلفاء وتوفي سنة ١٢٥ فبويع بعده للوليد بن يزيد فاضطربت المملكة في عهده،لأنه كان مهملاً قليل العناية بأطرافه وقيل:إنه كان صاحب ملاهٍ «وضم ذلك الى ما ارتكبه من إغضاب أكابر أهله والإساءة إليهم وتنفيرهم فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته وهجموا عليه وقتلوه » بعد سنة وخمسة أشهر من ولايته « وكانت تتابعت منه فعال أنكرها الناس عليه فدب يزيد بن الوليد في الدعاء الى خلعه فأجابته اليمن بأسرها وعاضدوه ووثبوا معه على عامل الوليد بدمشق فأجابوه وبايعوا يزيد ثم ساروا الى الوليد فقتلوه » .

وكان اجتمع من بأقطار الشام من اليمانية فخرج اليهم الوليد بمضر واقتتلوا ، وأثخنت اليمانية القتل في مضر فانهزمت مضر وأخذوا نحو دمشق ، ودخل الوليد قصره فتحصن فيه فبايعوا يزيد بن الوليد وبايعه أشراف المضريين طوعاً وكرهاً وخلعوا الوليد بن يزيد فلبث مخلوعاً أياماً كثيرة وهو خليع بني أمية ثم قتلوه .

وفي سنة ١٢٦ اضطرب أمر بني أمية وهاجت الفتنة ، فكان من ذلك وثوب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد قتل الوليد بعمان ، وكان قد حبسه الوليد بها ، فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الأموال وأقبل

الى دمشق . وفي هذه السنة أمّر الوليد بن يزيد علـى جيوش البحر ، الأسود بن بلال المحـاذي وسيره الى قبرس ليخير أهلها بين المسير الى الشام أو الى الروم ، فاختارت طائفة جوار المسلمين فسيرهم الى الشام ، واختار آخرون الروم فسيرهم إليهم وأسكنهم المـاحوز [١] على ساحل البحر بين صور وصيدا .

يزيد بن الوليد :

وكان من أمر يزيد بن الوليد وهو ثـاني عشر خلفائهم أن نقص الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص، وكان الخليفة من بني أمية إذا مات وقـام آخر زاد في أرزاقهم وعطايـاهم عشرة دراهم فيقولون: عير بعير وزيادة عشرة .

اضطربت البلدان على يزيد ولما قتل خرج أهل حمص وأغلقوا أبواب المدينة وأقاموا النوائح والبواكي عليه وطالبوا بدمـه ، وقتلوا مروان بن عبد الله بن عبد الملك وكان عامل الوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلاً وكرماً وعقلاً وجمالاً ، ولمـا أجمع الحمصيون على محاربة يزيد بدمشق جهز جيشاً قاتلهم قريباً من ثنيـَّة العقاب فانهزم الحمصيون واستولى على المدينة وأخذ البيعة عليهم . قال الدينوري معللاً سر قيـام الحمصيين : إن المضرية تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها ، وقتلهم الخليفة الوليد بن يزيد فدَبَّ بعضهم الى بعض ، واجتمعوا من أقطـار الأرض ، وساروا حتى وافوا مدينة حمص وبها مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم وكان يومئذ شيخ بني أمية وكبيرهم وكان ذا أدب كامل ، ورأي فـاضل ، فاستخرجوه من داره وبايعوه وقالوا لـه : أنت شيخ

---

(١) في الحديث: فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا(بالزاي)قيل: هو موضعهم الذي أرادوه. وأهل الشام يسمون المكان الذي بينهم وبين العدو وفيه أساميهم ومكاتبهم ماحوزاً قاله في النهاية ويقول المقدسي: إن رباطات هذه الكورة (اي فلسطين) التي يقع بينهن الغداء غزة ميماس عسقلان ماحوز أزدود ماحوز يبنا يافه ارسوف .

قومك وسيدهم فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد. فاستعد مروان بجنوده في تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق.

ولما بويع يزيد بن الوليد خطب وذكر الوليد بن يزيد فقال على رواية ابن الطقطقي: إن سيرته كانت وكان خبيثة منتهكاً لحرمات الله فقتلته ثم قال: أيها الناس إن لكم عليّ أن لا أضع حجراً فوق حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكري نهراً، ولا أكنز مالاً، ولا أنقل مالاً من بلد الى بلد حتى أسد ثغره، وخصاصة أهله بما يغنيهم، فما فضل منه نقلته الى البلد الآخر الذي يليه، ولا أغلق بابي دونكم، ولكم أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم كل شهر، حتى يكون أقصاكم كأدناكم، فإن وفيت لكم ما قلت فعليكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإن لم أف فلكم أن تخلعوني، إلا أن أتوب، وإن كنتم تعلمون أن أحداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ما قد بذلت لكم، وأردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يبايعه معكم، إنه لا طاعة لمخلوق، في معصية الخالق.

وخرج على يزيد بن الوليد بشر بن الوليد بقنسرين وعمر بن الوليد ويزيد بن سليمان بفلسطين، ووجه الى الأردن أخاه إبراهيم ولي عهده، وقد أمروا عليهم محمد بن عبد الملك فاستمال الثائرين بالمال فتفرقوا، وكانت ولايته خمسة أشهر والفتنة في جميع المملكة عامة، وقتل أهل حمص عاملهم عبد الله بن شجرة الكندي وكانوا انتخبوه والياً على جندهم، ولما توفي يزيد بن الوليد ملك إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك فامتنع أهل حمص من البيعة فجاءهم الجند من دمشق وحاصرهم.

مروان بن محمد:

وقدم مروان بن محمد بن مروان من إرمينية خالعاً ليزيد بن الوليد، فلما صار بحران دعا الى نفسه فبايع له أهل الجزيرة سراً، وأقبل في جموع من أهل الجزيرة، فلقي بشراً ومسروراً ابني الوليد بن عبد الملك معسكرين بحلب فهزم عسكريهما وأسرهما، ثم مضى حتى أتى حمص، وبلغ إبراهيم الخبر فوجه إليه سليمان بن هشام، وكان سليمان في مائة وعشرين ألفاً،

فلقي مروان وكان في ثمانين ألفاً ومن معه من أهل الجزيرة وقنسرين وحمص فالتقوا بعين الجر فتناوشوا القتال (١٢٧) وانصرف بعضهم عن بعض،فلما كان من الغد انهزم سليمان بن هشام وأصحابه فلحقوا بإبراهيم وأقبل مروان فبايع له أهل دمشق ودخلها فخلع إبراهيم نفسه وبايع لمروان. وقد قتل في وقائع عين جر وما تقدمها وتأخر عنها ثمانية عشر ألف مقاتل.

وروى الطبري أنه لما قيل قد دخلت خيل مروان دمشق هرب إبراهيم بن الوليد وتغيب ، فأنهب سليمان ما كان في بيت المال وقسمه فيمن معه من الجند ، وخرج من المدينة ، وثار من فيها من موالي الوليد بن يزيد الى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه،ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية ، ودخل مروان دمشق فنزل دير العالية من ضواحيها .

ولما ملك مروان بن محمد كتب الى عمال البلدان فأتته كتبهم بالسمع والطاعة ، ولم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى أتاه الخبر أن أهل حمص مقيمون على المعصية،فسار إليهم فحاصرهم حتى فتح المدينة ، وقاتل الثائرين وقتل خمسمائة أو ستمائة صلبوا حول مدينة حمص ، وهدم من حائطها نحواً من غلوة . وثار أهل الغوطة فولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق وأميرها زامل بن عمرو،فوجه إليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر في عشرة آلاف،فلما دنوا من المدينة خرج عليهم من فيها فانهزموا واستباح أهل مروان عسكرهم وأحرقوا المزة وقرى من اليمانية ، وأخذ يزيد بن خالد فقتل ، وخرج ثابت بن نعيم الجذامي بناحية الأردن فوجه إليه جيشاً . وكان مروان عند دخوله دمشق ترك لأهل كل جند من أجناد الشام أن يختاروا عمالهم فوقع اختيارهم على هؤلاء العمال الذين ثاروا بهم بعدُ على مروان ، وممن ثار سليمان بن هشام في أهل حمص وقنسرين ، وقصد حمص فحصنها فبايعه أصحابه بالخلافة ، وخرجوا قاصدين مروان وكمنوا له في طريقه في قرية تعرف بتل مير من عمل معرة النعمان فالتقى العسكران وقتل منهما خلق كثير فانهزم سليمان الى حمص ، فجاء مروان

إليها وحاصرها ثانيةً عشرة أشهر ثم صالحها وتسلمها ، وكان سليمان بن هشام في سبعين ألفاً وقتل زهاء ثلاثين ألفاً .

إدبار الأمويين :

وما زالت الحال على ذلك حتى استقامت لمروان الشام كلها ، ثم قوي أمر أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية بخراسان ، ودعا علناً لبني هاشم وقتل عسكر الأمويين ، ولما بايعوا بالخلافة في الكوفة لأبي العباس سراً وجه عمه عبد الله بن علي لقتال مروان ، وكان مع مروان مئة ألف مقاتل ولا يكون مع عبد الله بن علي إلا الأقل من ذلك ، فلقيه بالزاب قرب الموصل ، فحاربه عبد الله بن علي فهزمه ، ثم لم يزل في إثره وهو منهزم لا يلوي على شيء حتى أخرجه الى الجزيرة ، ثم أخرجه من الجزيرة الى الشام ، فجعل مروان لا يمرُّ بجند من أجناد الشام إلا انتهبوه ، فلما اجتاز بقنسرين وحاضر حلب أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته ووثب أهل حمص وقالوا : مرعوب منهزم،فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه على أميال فناشدهم فأبوا إلا مكاثرته وقتاله ، فنشب القتال وأثار كمينين من خلفهم وكان قد نصبهما فهزمهم وقتلتهم خيله .

وسار مروان الى دمشق فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي ، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمر العنسي والمَذْحِجيون أي اليمانيون جميعاً ، ثم مرَّ بفلسطين فوثب به الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع لما رأوا من إدبار الأمر عنه . قال الدينوري : جعل مروان يستقري مدن الشام فيستنهضهم فيروغون عنه ويهابون الحرب فلم يسر معه منهم إلا قليل. قالوا : ولما صار مروان الى دمشق وهو مضمر أن يتحصن بها لولا ما انتهبه أهلها ووثب عليه من بها من قيس فدخلها عبد الله بن علي العباسي عنوة، ومضى مروان الى فلسطين هارباً حتى جاء مصر ، فقاتل مروان في قرية بوصير قرب القاهرة حتى قتل وذلك في ذي الحجة ١٣٢ ، وبموته انقرض ملك بني أمية في المشرق وهو الرابع عشر من خلفائهم . وكان من رأيه أن

يقطع الدرب وينزل بعض حصون الروم ويكاتب ملكها ويجمع عليه رجاله وشيعته الى أن يرتئي في أمره ، ولكن حُمّ القضاء ولا رادّ لحكمه .

دولة بني مروان وحسناتها :

انقضت دولة بني مروان ، وكانت دولة عربية صرفة سارت مع المدنية أشواطاً مع انشغالها بالفتح وقيام الخارجين عليها ، ولم يبطلوا في كل دور غزو الروم ، وكانوا على الأكثر يَسْبُون ويقتلون ويغنمون ويخربون حصونهم ، والروم يغزون الشام وآسيا الصغرى وقد يصلون الى أنطاكية ودُلوك (مرعش) . وكان أكثر ملوك الأمويين من الحزم والعلم وحسن السياسة والإدارة على جانب عظيم ، والسواس منهم معاوية وعبدالملك وهشام ، وليس كالوليد في باب الاضطلاع بإقامة المصانع ، ولا مثل عمر ابن عبد العزيز في تطهير المملكة من المظالم وإحياء سنن العدل والمراحم ، ولا كسليمان ببعد النظر ، وما منهم إلا العالم والشاعر والخطيب والسياسي ، وقد فتحت عليهم الأقطار فنشروا فيها اللغة والدين على أيسر سبيل ، وهذا مما لم يوفق إلى مثله غيرهم ، ووضعوا أسس النظام في الممالك التي دوخوها وعرفوا ما يصلحها ، وكانت إرادتهم أشبه باللامركزية في عهدنا ، يبعثون بالعامل فيحل المسائل باجتهاده على رأي أهل الشرف والمكانة في القطر الذي يتولاه ، ولا يفاوض مقر الخلافة إلا في عويص الأمور ، وقد نصب علم الأمويين الأبيض في المشارق والمغارب ، نصب في الصين كما نصب في بواتيه في فرنسا ، هذا وقد كثر المخلصون لدولتهم الى أواخر أيامهم وقل المنتقضون عليهم المتوثبون على خلافتهم .

للدول كما للأفراد أعمار طبيعية . وملك بني أمية لم يطل أكثر من ألف شهر كاملة لأنهم ملكوا تسعين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً ، يوضع من ذلك أيام الحسن بن علي وهي خمسة أشهر وعشرة أيام ، وأيام عبد الله بن الزبير الى الوقت الذي قتل فيه وهي سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام ، فيصير الباقي بعد ذلك ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر .

ذهب بنو أمية بالفضل في جمع الشمل ، ولولا قيامهم هذا القيام

المحمود يحدوه الانتباه لكل ما يعلي شأن دولتهم . لما ثبتت الدولة الإسلامية هذا الثبات الذي استغرب منه الخُبر والخبر . قال المقريزي : أظهر الرسول بني أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله مما فتح الله عليه من البلاد ، فقوي ظنهم وانبسط رجاؤهم وامتد في الولاية أملهم ، وضعف أمل بني هاشم وانقبض رجاؤهم وقصر أملهم . قال : وقد ظهر لي أن ولاية رسول الله بني أمية الأعمال كانت إشارة منه الى أن الأمر سيصير إليهم . قال: إنه عليه السلام توفي وثلاثة أرباع عماله منهم .

وطد مؤسس ملك الأمويين السلطان بالشام وبجند من أهله قاتل هو وأخلافه ، واشتهر جند الشام بالطاعة حتى تمنى علي بن أبي طالب لو يقايض على عشرة من جنده بواحد من جند معاوية ، فقال في إحدى خطبه : « لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم » . فتحت هذه الفتوح بنفس قوية وعقول راجحة وسياسة حازمة ، وقاتل زعماؤهم وأبناؤهم بل بناتهم ونساؤهم حتى فتحوا الشام . وكان من جملة توفيق معاوية أنه عرف طبائع هذا القطر وخصائصه من أبيه وآله وكانت لهم به علائق كثيرة في الجاهلية ، ثم درس أحواله بنفسه فكان يعرف قوته معرفة حقيقية ، ولذلك لم ينل منه علي بن أبي طالب منالاً لأنه كان أخذ لهذا الأمر عدته وتدبره ودبّره كان يأخذ بآراء أشراف القوم والنزول على حكم وفود الأرجاء، وكانت وفودهم تشبه ما يسميه الإفرنج بمجالس الولايات ، وكان لمعاوية وآل بيته مجالس يعقدونها في المسجد الجامع تدور حول سياسة الأمة في الأكثر ، وخطاب الخليفة يوم الجمعة بمثابة ما نسميه في عرف سياسة اليوم خطاب العرش ، ومجالسهم أشبه بمجالس النواب والشيوخ والولايات ، فلم يكونوا الى الاستبداد بالرأي في معظم حالاتهم .

وفي الحق أن معاوية بن أبي سفيان أورث الإسلام مجداً ، وأولى العرب عزّة ومنعة ، وكان العربي حيث نزل من الأرض محترماً ، مرعي الجانب آمناً على نفسه وحقه ، ولم يوفق الى ذلك إلا بحسن السياسة وصائب التدبير . ذكر المسعودي ، وهو من المنحرفين عن بني أمية ، أن

المسلمين غزوا في أيام معاوية فأسر جماعة منهم ، فأوقفوا بين يدي الملك فتكلم بعض أسارى المسلمين ، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حرّ وجهه فآلمه ، وكان رجلاً من قريش فصاح : والإسلاماه ، أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا ، وضيعت ثغورنا ، وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا وأعراضنا . فنمي الخبر الى معاوية وغضب وأقام الفداء بين المسلمين والروم وفادى بذلك الرجل ، فلما صار الى دار الإسلام دعاه فبرّه وأحسن اليه . وبعث الى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور وكان به عارفاً كثير الغزوات في البحر ، صُمُلّ[1] من الرجال مرطان بالرومية ، وأعطاه كل ما طلب ، وهيأ له مركباً وأوعز إليه أن يتظاهر بأنه يتاجر مع روم القسطنطينية، وما زال على ذلك سنين حتى أسر الصوريّ البطريقَ الرومي الذي كان لطم القرشي وأتى به الى معاوية في قصة طويلة . فقال معاوية : عليّ بالرجل القرشي فأتي به وقد حضر خواص المسلمين وقال له : قم واقتص من هذا البطريق الذى لطم وجهك على بساط معظم الروم فإنا لم نضيعك ولا أبحنا دمك وعرضك ، فقام القرشي ودنا من البطريق فقال له معاوية : انظر لا تتعدّ ما جرى عليك منه . وانقلب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها وقال : ما أضاعك من سوّدك ، ولا خاب فيك أمل من أمّلك ، أنت ملك لا تستضام ، تمنع حماك وتصون رعيتك . وأحسن معاوية الى البطريق وحمل معه هدايا الى الملك وقال له : ارجع الى ملكك وقل له : تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك ، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك ، فقال ملك الروم : هذا أمكر الملوك وأدهى العرب . ولهذا قدمته العرب عليها فساس أمورها والله لو همّ بأخذي لتمت له الحيلة عليّ .

قواد الأمويين وأسباب انقراضهم :

نشأ للأمويين رجال عظام في الحرب والسياسة والحكم ، مثل زياد بن

---

(١) الصمل: كعتل الرجل الشديد الخلق العظيم . والرطانة (بالفتح ويكسر) الكلام بالعجمية ورطن له رطانة وراطنه كلمه بها وتراطنوا تكلموا بها والمرطان الذي يتكلم بالعجمية .

أبي سفيان وعتبة بن أبي سفيان وموسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة بن مسلم وعقبة بن نافع الفهري وبُسْر بن أبي أرطاة وشرحبيل بن السمط وحبيب بن مسلمة ومسلمة بن عبد الملك وأسد بن عبد الله وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ومالك بن عبد الله الذي كان أميراً على الجيوش في غزوة الروم أربعين سنة أيام معاوية وقبلها وأيام يزيد وأيام عبد الملك بن مروان ولما مات كسر على قبره أربعون لواء لكل سنة غزاها لواء. وروح بن زنباع وزفر بن الحارث الكلابي والجراح بن عبد الله الحكمي وحُبَيْش بن دلجة القيني وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي وميمون بن مهران وخالد ابن عبد الله بن خالد بن أسيد وعمر بن عبيد الله بن معمر وخالد بن عبد الله القسري وعثمان بن الوليد ويزيد بن المهلب والمهلب بن أبي صفرة وعمرو بن هبيرة الفزاري وعبد الله بن أبي بكرة والقاسم بن محمد الثقفي والعباس بن الوليد ومروان بن الوليد وخالد بن كيسان وعبد الله ابن عقبة بن نافع ومعاوية بن هشام وعبد الرحمن بن معاوية بن حُديج وإسحاق بن مسلم العُقَيلي ونصر بن سيار وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ومعاوية بن حُديج وعبد الرحمن بن حبيب وزهير بن قيس البهلوي وحسان بن النعمان وميسرة بن مسروق العبسي وعبد الله بن قيس ومالك ابن هبيرة السكوني وفضالة بن عبيد الأنصاري وسفيان بن عوف وعبد الله ابن مسعدة الفزاري وجنادة بن أمية الأزدي ومحمد بن مالك وعمرو بن مرة الجهني وعلقمة بن يزيد الأنصاري والضحاك بن قيس ويزيد بن شجرة وعياض بن الحارث والمخارق بن الحارث الزُّبَيْدي وزامل بن عمر العذري وأبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان وسبيع بن يزيد الأنصاري ويزيد بن الحر العبسي وعلقمة بن حكيم الكناني ويوسف بن عمر ومحمد بن القاسم الثقفي ومالك بن عبد الله الخثعمي وحمزة بن مالك الهمداني وغيرهم .

دوّخ هؤلاء القواد الأقطار على بعد المواصلات مع مركز الخلافة وفتحوا الفتوح العظام بهمة لم تعرف الملل، وأدخلوا فيها نظامهم وعاداتهم وأداروها أي إدارة ، فامتد ملك الأمويين كما قال أحد كتاب الإفرنج من أقاصي جبال هملايا في الشرق الى أداني جبال الألب في الغرب ، ثم انحلت هذه

المملكة المساوية تقريباً لمملكة قياصرة رومية على وجه غريب من السرعة.
وكان مروان بن محمد الجعدي الذي لقب بالحمار لصبره على الحرب من أمثل خلفائهم وكان « سديد الرأي ميمون النقيبة حازماً ، فلما ظهرت المسوّدة ولقيهم كان ما يُدبّر أمراً إلا كان فيه خلل » . فما السر يا ترى في انحلال هذا الملك الضخم والقوة تدعمه وفيه أفراد أفذاذ مثلوا النبوغ العربي أجمل تمثيل لا تستطيع دولة من دول الحضارة الحديثة أن تقوم بأحسن منه، مع اعتبار الفرق بين عصر الدولة الأموية وهذا العصر ؟. نظن السر في ذلك أن بني العباس كانوا قد أجمعوا أمرهم وهيأوا أسباب قيام دولتهم على صورة متينة جداً ، وكان منشؤها من خراسان والعراق وهما القطران اللذان أفحش القتل فيهما الحجاج بن يوسف الثقفي حتى قتل من أهل العراق مئة وعشرين ألفاً مدة حكمه ، واشمأز الناس من بني أمية بسببه وسبب من يستسهلون من قوادهم إهراق الدماء فكثرت الأحقاد والحفائظ ونغلت نيات الأمة ، واختلف الأمويون بينهم وأصبحوا في هرج يقتل بعضهم بعضاً .

وقد نسب الخضري أسباب سقوط دولة بني أمية الى استيلائهم على الخلافة بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة ، فإن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته ، على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الأمر ورضي الناس عنه ، والقلوب منطوية على ما فيها من كراهية ولايته ، وكان في الأمة فريقان لا يرضيان عنه : الخوارج وشيعة بني هاشم ، واستعمل ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة فألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم . ومن رأيه أن معاوية زل زلة كبرى قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالغض من علي بن أبي طالب على منابر الأمصار هو وأمراؤه حتى تأججت النيران في صدور شيعته وأن عدة عيوب كانت سبباً في القضاء عليهم . الأول : مسألة ولاية العهد ، فإن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر ، فانشق بيتهم على نفسه . الثاني : إحياء العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام مشدداً النعي عليها . الثالث : تحكيم بعض الخلفاء من بني أمية آهواءهم في أمر قوادهم

وذوي الأثر الصالح من شجعان دولتهم ، ففسدت قلوب الناس ، حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية .

وعلل رفيق العظم سقوط الدولة الأموية بارتكاب الأمويين أغلاطاً منها المبالغة باضطهاد العلويين ، وتسميم أبي هاشم بأمر سليمان بن عبد الملك ، ومنها أنهم فقدوا أعاظم الرجال الذين كانوا يخدمون بإخلاص ، فأخرجوا خالد بن عبد الله وقتيبة بن مسلم ويزيد بن المهلب وموسى بن نصير ففقدت الدولة بفقدهم وفقد أمثالهم جانباً لا يقدر من قيمتها وانحطت هيبتها ، ومنها تباعد أطراف مملكتهم حتى تعذر ضبطها مع صعوبة المواصلات ، وأن الأمويين حافظوا على خشونتهم الى خلافة هشام،وأخذ الخلفاء بعد الوليد بن يزيد يميلون الى الترف والراحة ، يضاف الى ذلك انقسام العرب في خراسان الى مضرية ويمانية وتنازع رؤسائهم . قال:إن ما يقوله بعض المؤرخين من ظلم الدولة الأموية ويعزى إليه دمارها فمبالغ فيه وما كان منه صحيحاً فهو في نظر المؤرخ ثانوي . والحقيقة أن الخلفاء الأمويين كانوا أشداء على خصومهم دون سائر الناس ، وكانوا في منزلة من العناية بالرعية والاهتمام بالعدل بين الناس فوق منزلة كثير من الحكومات المطلقة .

سُئل بعض شيوخ بني أمية عقيب زوال الملك عنهم ، ما كان سبب زوال ملككم ؟ فقال : جار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخربت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم عدونا فظاهروه على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا .

قد يغتر بعض من لم يساعدهم الوقت أن يمحصوا الحقائق ليصلوا الى لباب التاريخ الصحيح،فيأخذون روايات بعض المؤرخين الذين كتبوا بعوامل المذاهب السياسية أو نقلوا الأخبار على علاتها كما رأوها في مصادر ضعيفة وأخذوها قضية مسلّمة ، من ذلك الطعن في أخلاق يزيد بن معاوية ، فإن الروايات المنقولة في هذا الشأن لو نُقدت نقداً صحيحاً لرأينا أنها مدخولة

على الأكثر أملتها أهواء الخصماء ، ولطالما رأينا الناس إذا أرادوا النيل من أحد العظماء ينخدعون بأقوال يلفقها عليهم خصومهم ، وربما نسبوا لبعضهم الفسق والفجور وأكل الأموال بالباطل ، وهم من أكمل الناس أخلاقاً وفضلاً . إذا سلمنا أن معاوية أخطأ بحسب ما يقوله الفريق المعتدل بتوسيده الخلافة الى يزيد وفي العرب يومئذ من هم أفضل منه فإنه كان يعتقد أن ابنه يصلح للخلافة وأن قوة الأمة مجتمعة على آل أبي سفيان . والدليل أنه كان إذا عرض لمعاوية مشكلة من المشكلات بعث الى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها واستسهال معضلاتها ، فلم يكن يزيد إذاً بالصورة التي صورها بها أعداؤه . خطب معاوية فقال : « اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وأنه ليس لما صنعت به أهلاً فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك » .

قال الطبري : إن يزيد كان صاحب رَسلة أي كسل وتهاون ، وإنه كف عن كثير مما كان يصنع أي لما وسدت إليه الخلافة . وقال غيره : إن يزيد كان يحب الصيد ويربي القرود والكلاب مما عدوه عليه . وهذا لا يقدح في العدالة ، بل ربما كان مما يعين على الجهاد لترويضه الجسم والذهن ، أما الفسق والفجور فلم يثبت من طريق مؤتمن ، فإذا فرضنا أن معاوية أخطأ في إعطائه ولاية العهد لابنه بطرق استعمل فيها بعض الشدة ، وأن يزيد ارتكب عماله من قتل آل بيت الرسول أمراً نكراً فلا يجوز من ذلك الطعن بشخصيات كبيرة ، والعقل يستبعد التصديق بما قاله خصوم بني أمية عنهم ، ولو كان يزيد شريباً خميراً كما يزعمون أو يرتكب أموراً لا تسمح بها الشريعة ولا تليق بشأن الملك ، والدين ، وأصحاب أصحاب رسول الله أحياء ، وأعداؤهم من العلويين بالمرصاد ، لقتلته أسرته نفسها، كما فعلت بالوليد بن يزيد بعد ستين سنة من مهلك يزيد بن معاوية . والغالب أن يزيد أدخل في العادات كأبيه أشياء أنكرها بعضهم ، ووجدوا السبيل الى الطعن فيه ، وكان تعلمها من عشرته بعض أبناء الروم في الشام .

سُئل عبد الله بن عباس عن معاوية فقال : سما بشيء أسرَّه واستظهر عليه بشيء أعلنه ، فحاول ما أسر بما أعلن فناله ، وكان حلمه قاهراً لغضبه ، وجوده غالباً على منعه ، يصل ولا يقطع ، ويجمع ولا يفرق ، فاستقام له أمره وجرى الى مدته . قيل:فأخبرنا عن ابنه قال : كان في خير سبيله ، وكان أبوه قد أحكمه وأمره ونهاه فتعلق بذلك وسلك طريقاً مذللاً له . وسئل علي (رض) عن بني أمية فقال : أشدنا حُجزاً (صبراً) وأطلبنا للأمر لا ينال فينالونه .

الخلاف بين الأمويين وخصومهم من العلويين ما زال يقوى ويضعف، وما هو إلا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك ، وليس من الدين في شيء . فليس إذاً من العقل أن تتسلسل هذه الأحقاد في الأمة وتتفرق شيعاً ، وتظهر بمظهر النصب أو التشيع ، ويزكي فريق من يحبهم حتى يخرجهم عن طور البشر ، ويطعن في آخرين حتى يسلخ عنهم كل ما يمتازون به من الصفات الكاملة ويخرجوهم عن الملة . أهل الإسلام يحبون الخليفة الرابع ، ويعرفون له صفات غرّاً يفاخرون بها على غابر الدهر ، ولكن من تحبه لا يجوز لك أن تغضي عن هفواته ، أو أن تذكر لخصمه مزاياه .

أريد أن أقول : إن مسألة الخلافة بين علي ومعاوية قد مضى عليها الزمن ، وكان لكل منهما اجتهاده ، وهي من المسائل المؤلمة في تاريخنا ينبغي لنا أن ندرسها بإنصاف لا أن نقول مع القائلين «ونسكت عما شجر بينهم» ، ولا أن نبالغ فيما وقع ونتعصب لفريق على آخر ، فالأمة يجب عليها أن تعرف مواطن الضعف والقوة من جسمها ، وتكشف حقائق ماضيها لأنها ابنة حوادث ماضية ، والواجب في البحث أن لا يثير في النفوس أحقاداً ، ولا ينشىء في أجزاء الأمة فرقة متلفة ، ولا يُرتكب معه سوء أدب مع عظماء أسسوا مجد الأمة على أمتن الدعائم ، ووضعوا بناءها على القومية العربية ، وكانوا مثال التساهل مع أبناء الأديان الأخرى .

أهل الإسلام في الشرق جديرون بأن يكونوا كأهل النصرانية في الغرب ، تحاربوا حروباً دينية سالت فيها الدماء أنهاراً بين البابوي والبرتستانتي ، ثم

جاءت القرون الحديثة فقضت على التحزبات ، وصاروا في المسائل الوطنية والقومية متلازمين تلازم اللام للألف ، وإذا ذكروا ما ارتكبه أجدادهم في هذا الشأن خجلوا ووجموا . الأمويون كالعلويين بشر يخطئون ويصيبون، فلا يليق بنا أن نغض من الأمويين لأنهم لم يتنازلوا عن ملكهم للعلويين ، ولا ننكر أن إصابتهم كانت كثيرة جداً في جنب خطيئاتهم ، وأهل الشام قبل كل شعب عربي يجب عليهم أن يفاخروا بتاريخ الأمويين ويمعنوا النظر فيه طويلاً ، ويعرفوا أن لكل دولة كما لكل فرد ما يعدُّ لها وعليها.

بنو أُمية أسسوا دولة عظيمة وفتحوا الفتوح ونشروا كلمة التوحيد وبثوا اللغة العربية في الممالك التي دوّخوها فماذا عمل خصومهم لو أنصف المتشيعون لهم ؟ لم يوفقوا من قبل ولا من بعد إلا ان يُدلوا على الأمة بشرفهم ، وأنهم خير من أُمية في الجاهلية والإسلام ، وأن الواجب على المسلمين أن يخضعوا لهم مهما كانت حالهم لشرف هذه النسبة فقط ، ولقد قامت لهم عدة دول في أقطار مختلفة وكان مصيرها كلها الانحلال ، ولذلك كان من المعقول أن لا يغضّ من قدر العاملين خصوصاً من كانت حسناتهم تربو على سيئاتهم ، إن كان هناك ما يتجوز في تسميته سيئات . الملك لا يقوم بالزهد والتقوى ولزوم المساجد والخطب والحماسة والإدلال بصفات طبيعية اتصف بها صاحبها . الملك يحتاج كما كان الأمويون الى بذل وتسامح وتماسك وعمل نافع بعيد عن الدعوى . في الصفات الأولى تتمثل حالة العلويين ، وفي الثانية تتمثل حالة الأمويين .

دور الدولة العباسية

الى ظهور الدولة الطولونية

من سنة ١٣٢ ـ ٢٥٤ هـ

مبدأ الدعوة العباسية :

كانت دولة الأمويين الشرقية ، كدولة الخلفاء الراشدين ، عربية إسلامية صرفة ، لم تنتشر كلمتها ، ولم تتوزع سلطتها ، أما الدولة العباسية فكانت دولة عناصر ، والحاكم فيها العنصر العربي أو من دخل في خدمته وطاعته من الفرس والترك والديلم والموالي ، ولقد قال المؤرخون: في دولة بني العباس افترقت كلمة الإسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، وصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام ، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ، ويملكهم بالقهر .

كان أهل البيت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام يعتقدون أنهم أحق بالأمر ، وأن الخلافة لرجالهم دون سواهم من قريش ، فكانوا يرون في بني أمية غاصبين حقهم في الخلافة ، فبدأوا يدعون سراً لذلك منذ وقعت الحرب بين علي ومعاوية في صفين وتنازل الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان على الخلافة . فكان معاوية على ما رزق من صدر رحب « يَرُوض من شماس أهل البيت ، ويسامحهم في دعوى تقدمهم واستحقاقهم ، ولا يهيج أحداً منهم بالتثريب عليه في ذلك » . وكان

خلفاؤه من صلبه أو من بني مروان يعمدون الى القسوة على القائمين بالدعوة لآل البيت تارة والى الإغضاء زمن العجز طوراً ، وكان شيعة عليّ مقهورين ، وأقاموا على شأنهم وانتظار أمرهم والدعاء لهم في النواحي ، يدعون للرضا من آل محمد ولا يصرحون بمن يدعون له حذراً عليه من أهل الدولة .

وكان شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت يرون أن الأمر بعده لابنه أبي هشام عبد الله وكان كثيراً ما يغدو على سليمان بن عبدالملك في الشام . فمرّ في بعض أسفاره بمحمد بن علي بن عبدالله بن عباس بمنزله بالحُمَيْمَة فنزل عليه وأدركه المرض عنده فمات وأوصى له بالأمر . وقد كان أعلَم شيعتَه بالعراق وخراسان أن الأمر صائر الى ولد محمد ابن علي هذا ، فلما مات قصدت الشيعة محمد بن علي وبايعوه سراً وبعث الدعاة منهم الى الآفاق فأجابه عامة أهل خراسان ، وبعث عليهم النقباء وتداول أمرهم هنالك ، وتوفي محمد سنة أربع وعشر ومئة وعهد لابنه إبراهيم وأوصى الدعاة بذلك ، وكانوا يسمونه الإمام وهو الذي دعا إليه أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة .

عند تمام المئة سنة صحت نية بني العباس على تأليف جمعية سرية تدعو لهم ، وبثت في الآفاق بغض بني مروان وبلفظ أعم بني أُمية . وكانت الدعوة مقبولة في العراق وخراسان عند كل من تعرض عليه . ورأس الدعوة في أرض الشام مهد عصبية الأمويين وفروعها في خراسان . فانبثت دعوة العباسيين من قطر وسط بين الأقطار العربية وهو الشام لقرب اتصالها مع الأقطار الأخرى ولا سيا بالعراق ثم بخراسان ، ولم تقم الدولة من الحجاز لأنه بعيد عن القاصية تحيط به من جهاته الثلاث صحارٍ وبوادٍ محرقة ، والاستناد على أهل الحجاز كالاستناد على أهل العراق لا يخلو من أخطار . فقد أراد أهل المدينة أن لا يبايعوا يزيد بن معاوية بالخلافة ، فضربهم ضربة قاضية ، ولم يستطع أن ينجدهم أحد من العراق أو اليمن لبعد الشقة . وخذل أهل العراق علياً وابنه الحسين ، فلم يتمكن أهل الحجاز واليمن أن ينجدوا آل البيت فوقع ما وقع .

كان دعاة آل البيت يغدون من الحُمَيمة وقيل: من كرار من جبال الشراة في الشام وبنو أُمية غافلون عنهم وخليفـة المستقبل الذي يدعى له على أيام من دار ملكهم كبعض الرعية ، والناس في خراسان يصدرون عن أمره ويقدسون خلافته ، وكأن الأقدار خصت الشام بقيام دولتين عظيمتين فيه الأموية والعباسية ، وكانت عصبية الأمويين أهل الشام وعرب الحجاز واليمن ، وعصبيـة العباسيين أهل خراسان والعراق وقيس ، ومن أهم العوامل في نجاح بني هاشم في دعوتهم الجديدة ، اتفاقهم مع الطالبيين على هذا المقصد ، وهو نزع الخلافة من بني مروان ، فكان البيتـان لأول الأمر كأنهما بيت واحد ، ولذلك أثمرت الدعوة سريعاً .

بعد نيف وثلاثين سنة من الدعوة لأبناء العباس وربما قبل ذلك بقليل انتبه الأمويون في الشام الى مقاصد أعدائهم،وأنهم في صدد تأسيس دولة للقضاء على دولة الأمويين ، وفي ذلك دليل ظاهر على ضعف أصحاب الأخبار في أيامهم،وعلى تساهلهم وعنايتهم بتدويخ الأقاصي والغفلـة عن أحوال الدواني ، أبلغ ذلك مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أُمية عامله على خراسان نصر بن سيار وقد كتب إليه :

أرى تحت الرماد وميضَ جمرٍ	ويوشك أن يكون له ضِرام
فإن النار بالعودين تُذكى	وإن الشر مبـدؤه الكلام
وقلت من التعجب ليت شعري	أأيقـاظ أُمية أم نيـام
فإن يقظت فذاك بقاءُ ملك	وإن رقدت فإني لا أُلام
فإن يك أصبحوا وثووا نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام

فكتب مروان الى عامله بدمشق الوليد بن معاويـة يأمره بتوجيه أحد ثقاتـه الى الحميمة أو كرار ليأتيه بإبراهيم الإمام ، فحملـه الى مروان فحبسه في المحرم من سنة ١٣٢ وقتل في محبسه بعد شهرين، وعهد بالأمر بعده الى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وهو ابن الحارثية أول خلفاء بني العبـاس نسبة الى جده الأعلى علي أبو محمد السجاد بن عبد الله بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم . قتل إبراهيم الإمام فكان قتله داعياً الى التعجل بالمناداة علناً بالخلافة العباسية . وذلك أن إبراهيم الإمام لما قبض

عليه مروان نعى نفسه الى أهل بيته ، وأمرهم بالسير الى أهل الكوفة مع أخيه السفاح وبالسمع له والطاعة ، وأوصى بالخلافة الى أخيه السفاح وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة ، وأن لا يكون له بعده بالحُمَيمة لُبث ولا عَرْجة حتى يتوجه الى الكوفة ، فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة ، وأنه بذلك أتتهم الرواية وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والنقباء ، رسم له في ذلك رسماً أوصاه أن يعمل عليه ولا يتعداه . فسار السفاح بأهل بيته منهم أخوه أبو جعفر المنصور وغيره الى الكوفة فأقام فيها شهراً مستخفياً ثم ظهر وسلموا عليه بالخلافة وعزوه في أخيه إبراهيم الإمام ودخل دار الإمارة . وفي خلال ذلك زاد نفور المتطلعين الى العباسيين من أهل خراسان والعراق ، وذكر الناس شدة بني مروان في الضرب على أيدي كل من خالفهم ، وكان الناس منذ أمد طويل يتمنون لو يديلهم الله بغيرهم وإن كانوا دونهم ، فكيف ببني العباس ومنزلتهم من الشرف منزلتهم . والبشر ميال الى التجدد ولكل جديد طلاوة .

ومن الغريب على ما قال الطقطقي أنه لما قدر انتقال الملك الى بني العباس ، هيئت لهم جميع الأسباب ، فكان إبراهيم الإمام بالحجاز أو بالشام جالساً على مصلاه مشغولاً بنفسه وعبادته ومصالح عياله ، وليس عنده من الدنيا طائل ، وأهل خراسان يقاتلون عنه ، ويبذلون نفوسهم وأموالهم دونه ، وأكثرهم لا يعرفه ، ولا يفرق بين اسمه وشخصه ، لا ينفق عليهم مالاً ، ولا يعطي أحدهم دابة ولا سلاحاً ، بل يجبون إليه الأموال ، ويحملون إليه الخراج كل سنة ، ولما خُذل مروان وأشرف ملك بني أُمية على الانقراض ، كان مروان خليفةً مبايَعاً ومعه الجنود والأموال والسلاح ، والدنيا بأجمعها عنده ، والناس يتفرقون عنه ، وأمره يضعف ، وحبله يضطرب ، فما زال يضمحل حتى هُزم وقتل .

والثوب إن أنهج فيه البلى أعيى على ذي الحيلة الصانع

فتح العباسيين عاصمة الأمويين :

اضطرب نظام المملكة الأموية على عهد مروان بن محمد ، وكانت

كلما عراها الضعف والانحلال ، يزيد خصوم الأمويين شدة وقوة . ولما بويع بالخلافة لأبي العباس بالكوفة كانت جيوش خراسان تطارد جيوش الأمويين مطاردة ، وينتثر سلك الملك على صورة مستغربة . ولم يكد العراق يدخل في طاعة العباسيين ، حتى ولى أبو العباس عمه عبد الله بن علي الشام فسار من حران الى منبج وقد سوّد أهلها ، وبعث إليه أهل قِنسرين ببيعتهم ثم سار حتى نزل حمص ثم سار الى بعلبك ثم جاء عين جر ، وكان مروان بن محمد آخر الأمويين لما انهزم على الزاب أتى من حرّان الى حمص بأهله ، فجاء عبد الله بن علي الى حمص فرحل مروان عنها الى دمشق ، فتبعه فهرب الى فلسطين في بقايا جيشه ، وهناك جيش جيشاً آخر ، وكان اجتمع للأمويين في دمشق جيش قدّر بخمسين ألف مقاتل . وكان جيش عبد الله بن علي لا يمر ببلد إلا ويخرج أهلها مسوِّدين أي حاملين شعار العباسيين وهو السواد يبايعونهم عن رضىً ، هذا وجيشه أقل من ثلث جيش مروان المنهزم وربما كان الربع . فلما جاء عبد الله بن علي دمشق من ناحية المزّة نزل بها يومين ، ثم جاءه أخوه صالح بن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح على طريق السماوة ، فنزل صالح بمرج عذراء ثم نزل على باب الجابية ، ونزل عبد الله بن علي على الباب الشرقي ، ونزل أبو عون على باب كيسان ، وبسام على الباب الصغير ، وحميد بن قحطبة على باب توماء ، وعبد الصمد ويحيى ابن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس ، فحاصروها أياماً ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان (١٣٢) ، أي بعد ستة أشهر من مبايعة أبي العباس السفاح بالخلافة في مدينة الكوفة .

أباح الفاتح دمشق ثلاث ساعات ، وقيل : أنهبها ثلاثة أيام ، ووضع السيف في أهلها ، ولم يزل جماعته يحزون الرؤوس في الطرق والمنازل ، ويأخذون الأموال ، حتى جاء الظهر فأمر برفع السيف ، وقتل والي المدينة فيمن قتل من الأمراء والعلماء في المسجد الجامع . وممن صلب عبد الله بن عبد الجبار . ودخلت أباعر العباسيين الى صحن الجامع الأموي وظل إصطبلاً لدوابهم وجمالهم سبعين يوماً ، وقتل يومئذ على رواية

المنبجي من النصارى واليهود خلق كثير ، ونبشت قبور بني أمية في دمشق وغيرها وأحرقوهم بالنار ، ولم يبقوا على غير قبر عمر بن عبد العزيز في دير سمعان ، اعترافاً بفضله وتقواه ، ونقضوا سور دمشق حجراً حجراً .

قيل : إن أهل دمشق لما حاصرهم عبد الله بن علي ، اختلفوا فيما بينهم ما بين عباسي وأموي ، وقيل:وقعت بينهم العصبية في فضل اليمن على نزار ، ونزار على اليمن ، حتى اقتتلوا ، فقتل بعضهم بعضاً ، وذكروا أنه قتل فيها في هذه المدة نحو من خمسين ألفاً . ولما جاءها عبد الله ابن علي وحاصرها فضيق حصارها، بلغ بالناس الجهدُ فاستغاثوا، ووجهوا إليه يحي بن بحر يطلب لهم الأمان ، فخرج إليه فسأله الأمان ، فأجابه إليه فدخل فنادى في الناس بالأمان ، ثم قال له يحي بن بحر : اكتب لنا أيها الأمير كتاب الأمان ، فدعا بدواة وقرطاس ، ثم ضرب ببصره نحو المدينة ، وإذا بالسور قد غشيه المسوّدة عسكر بني العباس فقال له: قد دخلتها قسراً . فقال يحي : لا والله ولكن غدراً . فقال عبد الله : لولا ما أعرف من مودتك لنا أهل البيت لضربت عنقك ، إذ استقبلتني بهذا ، ثم ندم فقال : يا غلام خذ هذا العلم فأركزه في داره ، وناد من دخل دار يحي بن بحر فهو آمن،فانحشر الناس إليها ، فما قتل فيها ، ولا في الدور التي تليها أحد ، ونادى المنادي بعد أن قتل خلق كثير : الناس آمنون إلا خمسة : الوليد بن معاوية ، ويزيد بن معاوية ، وأبان ابن عبد العزيز ، وصالح بن محمد ، ومحمد بن زكريا .

وصار عبد الله بن علي الى المسجد فخطبهم خطبته المشهورة، التي يذكر فيها بني أمية ، وجورهم وعداوتهم ، ويصف ما استحلوا من المحارم والمظالم والمآثم ، قال ما يقوله العدو في عدوه . وأي عداوة أعظم من عداوة المتنازعين على الملك والسلطان ، وبينهم الطوائل والأحقاد القديمة والجديدة ؟ وهذه الخطبة أشبه بكلام العلويين في الأمويين ، والأمويين في العلويين ، يقصد بها إثارة النفوس ، لينزع منها حب الدولة السالفة ، ويفسح مجال الأماني للناس ويرغبوا في الدولة الخالفة .

فتح فلسطين وإهلاك رجال الأمويين :

أقام عبد الله بن علي في دمشق خمسة عشر يوماً ، رويت خلالهـا سيوفه من أعداء دولته ، ثم سار وراء مروان بن محمد في خمسين ألف مقاتل ، وأخذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك ، فحملهما الى أبي العباس السفاح ، فقتلهما وصلبهما بالحيرة ، وأمر أبو العباس عمه عبد الله بن علي أن يجدّ السير نحوها ، وهنأه بما أصاب من أموال بني أمية ، فسار يريد فلسطين فنزل نهر الكسوة ووجه منها يحيى بن جعفر الهاشمي الى المدينة ، ثم ارتحل الى الأردن فأتوه وقد سودوا ، ثم نزل بيْسان ، ومنها سار الى مرج الروم فنهر أبي فُطرس ، ولما قدم فلسطين أظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاه ببني أمية ، وأمره بصلتهم وإلحاقهم في ديوانه وردّ أموالهم عليهم ، فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلاً ، وفي رواية الطبري أنهم كانوا اثنين وسبعين رجلاً وقد أعد لهم مجلساً على نهر العوجاء فيه أضعافهم من الرجال ومعهم السيوف والأجرزة ، فأخرجهم عليهم فقتلهم وسحبوا ، وطرحت عليهـم البسط وجلس عليها ، ودعا بالطعام فأكل وجماعته ، وما زال بعض القتلى يئن ، وقال : يوم كيوم الحسين بن علي ولا سواء. وكان في جملة قتلاه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وكان قـد بذّ العابدين في زمانه ، وسبق المجتهدين في عصره ، واتخذ أموالاً معجبة، تطرد فيها المياه والعيون ، فقتله ، ثم استقصى ماله ومال من قتل مـن سادات بني أمية وصناديدهم ، ومنهم من قتلوا لأنهم أبوا أن يصيروا أموالهم الى السفاح . وقد قتل في قلنسوة شمالي العوجاء بعض بني أمية . وقصارى القول أن فاتح الشام للعباسيين بطش في الأمويين ومن والاهم من أهل هذه الديار بطش الجبارين . وسار من الجور سيرة لم يسرهـا أحد قبله .

تتبع العباسيون بني أمية في الحجاز والعراق فقتلوا منهم أناساً كثيرين ولم يُفلت إلا أفراد ، منهم عبد الرحمن بن معاوية الذي فر الى الأندلس وهناك أقام الخلافة الأموية الغربية ، فدامت مائتين وثماني وستين سنة ،

ولم تطل إليه ولا إلى آله أيدي العباسيين حتى انقرضت دولتهم . ومنهم من فرّ الى الحبشة ، وبقي فيها هو وذريته الى خلافة المهدي العباسي . وبعد مقتل بني أمية واشتداد خوفهم ، وتشتت شملهم ، واختفاء من قدر على الاستتار منهم ، أصدر السفاح الى سليمان بن علي كتاباً عاماً الى البلدان يعطي فيه الأمان للأمويين . فكان هذا أول أمان بني أمية . وكان سليمان بن علي كتب الى السفاح أنه وفد وافد من بني أمية علينا، وأنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم ، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبلّ (توصل) ولا تقطع ، وترفع ولا توضع .

انتقاض الجنوب والشمال والاعتقاد بالسفياني :

لما أفنى بنو العباس بني أمية في فلسطين ندمت عرب الشام على ما فعلت لما ركبهم من العار ، وتسليط العجم من أبناء خراسان عليهم ، ينزلون منازلهم ، ويأخذون أموالهم ، فهاجت لذلك واضطربت ، وامتنعوا من البيعة . وفي السنة التي دخل فيها العباسيون أرض الشام ، بَيَّضَ حبيب ابن مرة المريُّ ، وأهل حوران والبَثَنَيّة ، ومدينتها أذرعات ، أي لبس شعار الأمويين وهو البياض ، ونصب رجلاً من بني أمية ، فقاتلهم عبد الله ابن علي بأرض البلقاء والبَثَنَيّة وحوران ، وكان بينه وبينهم وقعات . وحبيب بن مرة من قواد مروان وفرسانه . وكان سبب تبييضه الخوف على نفسه وقومه ، فبايعه قيس وغيرهم ممن يليهم من أهل تلك الكور، فلما بلغ عبد الله بن علي تبييضُ أهل قِنسرين في الشمال ، دعا حبيب بن مرة الى الصلح وأمنه ومن معه .

وكان الداعي الى خلع قِنّسرين طاعة بني العباس ، قائد من قواد مروان أيضاً اسمه أبو الورد الكلابي وكان دخل في طاعتهم ، ثم نزع الطاعة لما قدم أحد قواد عبد الله بن علي الى بالس والناعورة،وأنشأ يَعْبَث بولد مَسْلَمة بن عبد الملك ونسائهم ، فشكا بعضهم ذلك الى أبي الورد، وكان قد اجتمع معه جماعة من أهل قِنّسرين وكاتبوا من يليهم من أهل حمص وتدمر ، فقدم منهم ألوف عليهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن

خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ودعوا إليه . وقالوا هذا السفياني الذي كان يذكر .

والغالب أن أنصار الأمويين وضعوا بعد سقوط دولتهم ملحمة زعموا فيها أنهم يعرفون ما يحدث في المستقبل من الزمان والآتي من الأيـام ، من ظهور أمرهم ورجوع دولتهم ، وظهور السفياني في الوادي اليابس من أرض الشام ، في غسان وقضاعة ولخم وجُذام وغاراته وحروبه ، ومسير الأمويين من بلاد الأندلس الى الشام ، وأنهم أصحـاب الخيل الشهب والرايات الصفر ، وما يكون لهم من الوقائع والحروب والغارات والزحوف ، على ما نقله المسعودي . والاعتقاد بظهور السفياني كما قال صديقنا أحمد تيمور باشا يشبه الاعتقاد بظهور المهدي ويروون فيه أحاديث وأقاصيص الله أعلم بها . وفي البدء والتاريـخ أن الروايات بشأن السفياني فيها حشو كثير ومحالات مردودة . ومسألة السفياني تدبير للأمويين حتى لا ينقطع الأمل من رجوع دولتهم ويخيفوا أعداءهم على الدوام . وربما كانت دعوى قرب ظهور السفياني أيضاً واسطة لفتك العباسيين بكل من توهموا فيه شيئاً من الرائحة السفيانية ولم تكد تنقطع هذه النغمة في الشام. وفي سنة ٢٩٤ زعم رجل أنه السفياني فحمل هو وجماعة معـه من الشام الى باب السلطان فقيل إنه موسوس .

كان أتباع زياد في نحو أربعين ألفاً فعسكروا بمرج الأخرم بنواحي سَلَمْيَة ودنا منهم عبد الله بن علي ووجه إليهم أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف . وكان أبو الورد هو المدبر لعسكر قِنّسرين وصاحب القتال ، فناهضهم وكثر القتل في الفريقين ، وانكشف عبد الصمد ومن معه وقتل منهم ألوف ، ولحق بأخيه عبد الله فأقبل عبد الله معه وجماعته القواد،فالتقوا ثانيـة بمرج الأخرم فاقتتلوا قتـالاً شديداً وثبت عبد الله فانهزم أصحاب أبي الورد وثبت هو في نحو من خمسمائة من قومه وأصحابه فقتلوا جميعاً،وهرب أبو محمد ومن معه حتى لحقوا بتدمر،وأمَّن عبد الله أهل قِنّسرين وسوّدوا وبايعوه ودخلوا في طاعته،ثم رجع الى دمشق وكان قد خرج من بها عن الطاعة أيضاً ، ونهبوا أهل عبد الله بن علي ، فلما

دنا عبد الله من دمشق هربوا ثم أمّنهم ، قال المؤرخون : إن العباسيين قتلوا من الشاميين ما لا يحصى ، ثم أذكوا العيون على الأمويين يقتلون رجالهم ونساءهم ، وينبشون عن قبورهم فيحرقونهم ، فمن ثم سمي عبدالله ابن محمد بن علي السفاح وفيه يقول الشاعر :

وكانت أمية في ملكها تجول وتظهر طغيانها
فلما رأى الله أن قد طغت ولم تطق الأرض عدوانها
رماها بسفاح آل الرسول فجزّ بكفيه أذقانها

انتقاض العباسيين على أنفسهم :

هذا ما كان من أمر من خلعوا طاعة بني العباس من عصبية بني أمية في الجنوب والشمال ، ولم يكن أثر تلك العصبية قد زال على شدة العباسيين في قطع شأفة الأمويين . ولما هلك أبو العباس السفاح ، قام عمه عبد الله ابن علي عامل الشام ، يدعو الى نفسه بالخلافة ، وقد استمال من معه من جنود خراسان فمالوا معه ،وكان صالح بن علي بمصر على طاعة أبي جعفر ، فلما بلغه أن عبد الله بن علي ، قد خلع أبا جعفر وأنه قد عزم على حربه أقبل بمن معه من أهل خراسان ، منكراً لفعل عبد الله بن علي ، حتى لقي الحكم بن ضبعان الجذامي ، ومع الحكم خلق كثير من أهل الشام في طاعة عبد الله بن علي ، فهزمهم صالح باللجون وقتل منهم ناساً كثيراً وأفلت الحكم حتى أخذه بعدُ يزيد بن روح اللخمي بأرض بعلبك ، وكان يزيد عاملاً لصالح بن علي ببعلبك ، فضرب عنق الحكم وبعث برأسه الى صالح بن علي ، ونقل يزيد بن روح عند قتله الحكم بن ضبعان الى ولاية دمشق . هذه رواية ابن عساكر ، وقال غيره : إن صالح بن علي لما جاء فلسطين من مصر طلب أحياء العرب ، وجعل يذبحهم حتى أتى على آخرهم وانتهب أموالهم ومواشيهم .

وعلل صاحب البدء والتاريخ خروج عبد الله بن علي، على أبي جعفر بقوله : إنه لما مات أبو العباس ، ادعى الخلافة عبد الله بن علي وبايعه أهل الشام والجزيرة ، وذلك أن أبا العباس لما ظهر أمره ، وضع سيفاً

وقال : من تقلد هذا السيف وسار الى مروان فقاتله فله الخلافة بعدي ، فتحاماه الناس وقام عبد الله بن علي فتقلده ، وسار فقاتل مروان فقتله ، فلما مات أبو العباس قام بالخلافة وبايعه الناس على ذلك ، وكان أجلدهم وأشجعهم ، فهال ذلك أبا جعفر واستشار أبا مسلم فقال : الرأي أن تعاجله ولا تتأنى به ، وكان عبد الله بن علي في مائة ألف مقاتل ومائة ألف من الفعلة ، وحفر الخندق من جبل نصيبين الى نهرها ، وجعل فيه ما يحتاج إليه من العدة والآلة ، ونصب المجانيق والعرّادات وبث الحسك ، وسدّ الطريق على من يقصده من العراق ، وجعل الخصب والقرى وراءه .

ولما وجه أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني قال له : أيها الرجل إنما هو أنا أو أنت . فإما أن تسير الى الشام ، فتصلح أمرها أو أسير أنا . قال أبو مسلم : بل أسير أنا . فاستعد في اثني عشر ألفاً من أبطال جنود خراسان ، حتى إذا وافى الشام انحاز إليه من كان بها من الجنود جميعهم ،وبقي عبدالله بن علي وحده،فعفا أبو مسلم عنه،ولم يؤاخذه بما كان منه وقيل : بل أسره وحمله الى أبي جعفر،فخلّده الحبس الى أن مات، وهذا هو الأصح ؛ وأبو مسلم من أقرب الناس الى سفك الدماء ، وقد قتل في دولته ستمائة ألف إنسان ، ولكنه تحامى أن يقتل عم الخليفة ، واكتفى من عقوبة الثائر بالاستيلاء على خزائنه ، وكانت عظيمة ، لأنه استولى كما تقدم على ذخائر خلفاء بني أمية ونعمتهم ، وذلك بعد حروب كثيرة في أرجاء نصيبين في الموضع المعروف بدير الأعور ، وصبر الفريقان شهوراً على حروبها . ومع هذا تعاقب على حلب كثير من ولد عبد الله بن علي بن العباس نحو مئة سنة . وكان هوى أهل الشام مع عبد الله بن علي يوم قام على المنصور ، فلما هزم عبد الله عفا المنصور عن الشاميين ، وكان العباسيون كالأمويين يولون في مبدإ أمرهم الولايات لآل بيتهم وأولياء عهد الخلافة .

نزع اللبنانيين والفلسطينيين طاعة العباسيين :

ومن كوائن هذا الدور ما وقع في سنة ١٣٥ من نهب المقدم الياس في لبنان البقاع ونهب قراها وأهلها ، فأرسل والي الشام من قبل أبي العباس إليه رسلاً لعقد الصلح ، ثم هاجمه في قرية المرج وقتله ، وبعد رجوع عسكر الشام ، رجع أصحابه ودفنوه بقرب الجامع الذي في القرية. ثم أقيم مقدماً على الجيش سمعان ابن أخت المقتول فسارت إليه عساكر الشام ، وكانت الحرب بينهم في قرية الشوير ، فانكسر العسكر الشامي وارتد راجعاً ، ودام القتال على ما في تواريخ الموارنة بين عساكر المسلمين ونصارى تلك الكورة مدة طويلة .

ويقول البلاذري : إنه خرج قوم بجبل لبنان شكوا عامل خراج بعلبك، فوجه صالح بن علي من قتل مقاتلتهم وأقرَّ من بقي منهم على دينهم ، وردهم الى قراهم ، وأجلى قوماً من أهل لبنان . وقد كتب الإمام الأوزاعي الى صالح رسالة طويلة في تخطئته في طريقته التي سار عليها في مقاتلة اللبنانيين ، حفظ منها ما يأتي : وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ، ممن لم يكن لهم ممالئاً لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ، ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟ وحكم الله تعالى « أنْ لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى » وهو أحق ما وقف عنده ، واقتدي به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال : من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . ثم ذكر كلاماً .

روى ابن عساكر أن الروم دخلوا طرابلس في زمان واليها رباح بن عثمان لصالح بن علي أمير الشام ومصر ،ثم ظهر رجل من أهل المنيطرة، وذلك في سنة اثنتين أو سنة ثلاث وأربعين ومائة،وسمى نفسه الملك ، ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم ، ثم استفحل أمرهم فسبوا بعض قرى البقاع ، فقتلوا المسلمين وأخذوا ما وجدوا وكتب بندار[1]

---

(١) البنادرة : تجار يلزمون المعادن أو هم الذين يخزنون البضائع للغلاء جمع بندار بالضم رجل بندري ومبندر ومتبندر وهو كثير المال .

الملك الى أهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم ويأمرهم بقتالهم ، فتأهبوا وقاتلوهم في أسفل جبل لبنان ، ثم أظهروا الهزيمة فأمعنوا في الطلب ، فلما بعدوا عن الجبل كرّت عليهم خيل بعلبك ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانهزم بقيتهم ، ثم هاجموهم في قلعتهم فظهروا عليهم وامتلكوها منهم ، وهرب بندار الى ملك الروم ، فكتب حينئذ صالح بن علي يأمر بإخراج من بقي في الجبل ، وتفريقهم في كور الشام . وصالح بن علي من أعظم رجال العباسيين هو الذي كسر الروم في نوبة مرج دابق وكانوا في مئة ألف أو يزيدون . وبعد صالح بن علي وجه أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الى الشام ، وكتب إليه أن يخرج عمال صالح بن علي ، فجهزه وعقد له وضم إليه من قواده جماعة ، وكتب أمير المؤمنين الى صالح بن علي أن يسلم دمشق الى محمد بن الأشعث ، فأتاها فأقام بها مدة ، ثم أتاه كتاب أمير المؤمنين يأمره أن يسير الى الأردن ويخرج عمال صالح بن علي من الأردن والبلقاء وفلسطين فأخرجهم .

قيس ويمن والفتن الداخلية والخارجية :

وفي سنة ١٦٨ نقض الروم الصلح ، فوجه علي بن سليمان وهو يومئذ على الجزيرة وقِنّسرين يزيد بن بدر في سرية الى الروم، فغنموا وظفروا. ولم يغفل العباسيون عن غزو الروم الصوائف وغيرها على مثال بني أمية . وفي هذه السنة رد المهدي ديوان أهل بيته من دمشق الى المدينة . ومن الفتن فتنة سنة ١٧٦ هاجت بدمشق بين المضريين واليمانيين ، وكان على دمشق عبد الصمد ، فسعى الرؤساء في الصلح فأجاب بنو القين، واستمهلت اليمانية ثم ساروا الى بني القين وقتلوا نحو ستمائة، فاستنجدت بنو القين قضاعة وسليحاً فأبوا ، فاستنجدوا قيساً فساروا معهم الى الصواليك ، من أرض البلقاء ، فقتلوا من اليمانية ثمانمائة ، وكثر القتل منهم ، ثم عزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق ، وولاها إبراهيم بن صالح ، وكان هواه مع اليمانيين ، واستخلف إبراهيم على دمشق ابنه إسحاق فحبس جماعة من قيس وضربهم ، ثم وثبت غسان برجل من ولد قيس العبسي فقتلوه، واستنجد

أخوه بالزواقيل (اللصوص) من حوران فأنجدوه ، وقتلوا من اليمانية نفراً . قال ابن كثير في حوادث سنة ١٧٦ إنه وقعت فتنة بين النزارية واليمانية ، وهذا كان بدء العشران بحوران وهم قيس ويمن ، أعادوا ما كانوا عليه في الجاهلية في هذا الأوان ، فقتل منهم بشر كثير ، فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحي ومعه جماعة من القواد ورؤوس الكتاب ، فأصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة ، واستقام أمر الشام ، وحملوا جماعات من رؤساء الفتنة الى مدينة السلام ، فرد أمرهم الرشيد الى عامله خالد فعفا عنهم وأطلقهم ففي ذلك يقول بعض الشعراء:

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده
وصبّ موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشام لما أتى نسيج وحيده

دامت هذه الفتنة نحو سنتين ، وسببها فيما قيل أن رجلاً من بني القين قطع بطيخة من حائط بالبلقاء لرجل من لخم أو جُذام . وفي رواية أن الفتنة لما هاجت بالشام بين النزارية واليمانية ، وولى الرشيد سنة ١٧٦ موسى بن يحي الشام جميعه ، أقام به سنتين حتى أصلح بينهم . قال ابن الأثير : إن سبب هذه الفتنة بين المضرية واليمانية ، ورأس المضرية أبو الهيذام عامر بن عمارة أحد فرسان العرب المشهورين ، أن عاملاً للرشيد بسجستان قتل أخاً لأبي الهيذام فخرج أبو الهيذام بالشام وجمع جمعاً عظيماً . وهذا السبب أرجح إذ لا يعقل أن تنشب الفتنة بين قبيلين من أجل بطيخة قطعت من بستان . أما أبو الهيذام فاستولى على دمشق ، وقاتل في قومه فهزم أكثر الجيوش التي قابلته ، وكان معه فريق كبير من أعراب الشام .

وفي سنة ١٨٠ تفاقم أمر هذه الفتن ، فعقد الرشيد ، أيام عصبية أبي الهيذام ، لجعفر بن يحي البرمكي على الشام ، فأتاهم وأصلح بينهم وقتل المتلصصة منهم ، ولم يدع بها محارباً ولا فارساً ، فعادوا الى الأمن والطُّمأنينة وقال بعض الشعراء في ذلك :

لقد أوقدت بالشام نيرانُ فتنةٍ　　فهذا أوان الشام تخمد نارهـا
إذا جاش موج البحر من آل جعفرٍ　　عليها جنت شهبانها وشرارها
رماهـا أمير المؤمنين بجعفرٍ　　وفيه تلاقى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجـدٍ　　تراضى به قحطانها ونزارها

وفي سنة ١٨٧ ثارت العصبية أيضاً بالشام بين المضرية والنزارية وجمعوا جموعاً كثيرة ، وكانت بينهم في ذلك فتن قتل فيها من المضرية نحو من خمسمائة ، والوالي على دمشق شعيب بن حازم،قال ابن عساكر : وذكروا منه تعصباً فوجه أمير المؤمنين الرشيد محمد بن منصور بن زياد الى أهل دمشق ، وأمره بدعاء الفريقين جميعاً الى الرجوع عما هم عليه، على أن يحمل من بيت ماله ما كان بينهم من الدماء ويعفو عنهم ويولي من أحب الفريقان ، فأطفئت الفتنة . وفي سنة ١٨٨ كان غزو إبراهيم بن جبريل الصائفة ، أدرب [1] من درب الصفصاف فيما ذكر أربعون ألفاً وسبعمائة .

الحمصيون وفتنة السفياني :

وفي سنة ١٩٠ وثب أهل حمص بواليهم فخرج الرشيد نحوهم،فلما صار بمنبج لقيه وفدهم يعطون بأيديهم فعفا عنهم. وفي سنة ١٩١ خرج أبو النداء بالشام ، فوجه الرشيد في طلبه يحيي بن معاذ ، وعقد له عـلى الشام . وفيها نقض أهل قبرس العهـد فغزاهم معيوف بن يحيي فسبى أهلها . وفي سنة ١٩٤ اختلف أهـل حمص مع عاملهم إسحاق بن سليمان ، فانتقل عنهم الى سلمية فعزله الأمين ، واستعمل مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي ، فقاتل أهل حمص حتى سألوا الأمان فأمنهم ، ثم هاجوا فضرب أعناق عدة منهم . وفي سنة ١٩٥ أي في أيام الخليفة الأمين ، ظهر بالشام السفياني علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بأبي العَمَيْطر (كسفرجل) لأنه زعم أنها كنية الحرذون فلقبوه به . وكان من بقايا بني أمية بالشام ، ومن أهل العلم والرواية ، فدعا الى نفسه وسمي خليفة، وكان أصحابه يوم ادعى الخلافة يدورون في أسواق دمشق ويقولون للناس:

---

(١) أدرب : دخل الدرب. والدرب : كل مدخل الى الروم .

« قوموا بايعوا مهدي الله » . وكان يفتخر بقوله : أنا ابن شيخي صفين يعني علياً ومعاوية ، لأنه كان ينتسب لبني أمية من جهة أبيه ولآل أبي طالب من جهة أمه ، وكان أكثر أصحابه من كلب،وتعصب له اليمانية، وقاومه القيسية فنهب دورهم وأحرقها وقتلهم وفتك بأهل دمشق ، وطرد منها سليمان بن أبي جعفر المنصور عاملها بعد حصره إياه ، وكان عامل الأمين عليها ، فلم يفلت منها إلا بعد اليأس ، وأعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية ، وكان قد تغلب على صيدا ، وقاومه محمد بن صالح بن بيهس الكلابي فخرج الى قرية الحرجلة ، فقتل من ظفر به من بني سليم ونهبها وأحرقها ، وجعل يطلب من بدمشق من القيسية . وكان القرشيون وأصحابه من اليمن يمرون بالدار من دور دمشق فيقولون: ريح قيسي نشم من هذه الدار ، فيضربونها بالنار ، فهرب القيسية من دمشق ، وكان من لم يبايعه سمّر عليه بابه ، وكان إذا خرج من الخضراء وهو راكب يمشي بين يديه خمسمائة رجل على رؤوسهم القلانس الشاميات وفي أيديهم المقارع .

كتب أبو العميطر الى ابن بيهس الكلابي : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فالعجب كل العجب لتخلفك عن بيعة أمير المؤمنين ، (يعني نفسه) وجحدانك نعم آبائه عليك ، ولست ولا أحدٌ من سلفك إلا في نعمته ، وأنت تعلم مكان حرمتك بقرية تلفياثا ، وأن عشيرتك بالغوطة كرش منثورة ، وأمير المؤمنين يحلف لك بالله لئن سمعت وأطعت، ليبلغن بك أقصى غاية الشرف ، وليولينك ما خلف بابه ، ولئن تخلفت وتأخرت ليبعثن إليك ما لا قبل لك به من الزحوف ، التي تتلوها الحتوف، بشاهد السلاح المعدّ لأهل الخلاف والمعصية . وقد بعث إليك أمير المؤمنين شعراً فتدبره » وكتب في أسفل كتابه :

لئن كان هذا الجد منك لقد هوى بك الحين في أهوية غير طائل
أبعد اجتماع الشام سمعاً وطاعة اليَّ وإذلالي جميع القبائل
وتوجيهي العمال في كل بلدة وزحفي إليها بالقنا والقنابل
رجوت خلافي أو تمنيت جاهلاً إزالة ملك ثابت غير زائل

فإن تعط سمعاً أو تعلقْ بطاعة   تُقَلْ من ملمات شداد الزلازل
وإن تعص لاتسلم وفي السيف واعظ   لذي الجهل ما لم يتعظ بالرسائل

فلم يجبه ابن بيهس على كتابه ، وأقبل أبو العَمَيْطر على طلب القيسية فكتبوا الى ابن بيهس ، فأقبل إليهم في ثلاثمائة فارس من الضباب ومواليه ، واتصل الخبر بأبي العميطر فوجه إليه يزيد بن هشام في اثني عشر ألفاً فاقتتلوا ، فلم يزل القتل في أصحاب يزيد بن هشام حتى دخلوا أبواب دمشق ، فبلغ القتلى ألفي رجل وأسر ثلاثة آلاف ، فدعا بهم ابن بيهس فحلق رؤوسهم ولحاهم ، وأحلفهم بأنهم يصيرون الى باب أبي العَمَيْطَر فيصيحون نحن عتقاء ابن بيهس ، فاشتدت شوكته وتوهن أمر أبي العميطر السفياني ، فجعل ابن بيهس يغير كل يوم على ناحية فيقتل ويأسر . ولما فرغ ابن بيهس من حرب يزيد بن هشام ، نزل قرية سكا ، واجتمع الى أبي العميطر وزراؤه فقالوا له: لا يهولنك محاصرة ابن بيهس إياك فإن الحرب سجال ، فكتب أبو العميطر الى السواحل والبقاع وبعلبك وحمص فأتاه خلق عظيم ، واشتبكت الحرب بين شبعا وقرحتا وتقاتلوا قتالاً طويلاً . واجتمعت نمير على مسلمة بن يعقوب ، وبذلوا له البيعة بالخلافة ، فقبل منهم وجمع مواليه ودخل على السفياني أبي العميطر في الخضراء فقبض عليه وقيده ، وقبض على رؤساء بني أمية فبايعوه وأدنى قيساً وجعلهم خاصته .

وجمع ابن بيهس رؤساء بني نمير فقال لهم : قد كان من علتي ما ترون فارفقوا ببني مروان بن الحكم وألطفوا بهم ، وعليكم بمسلمة بن يعقوب فبذل له بنو نمير البيعة . وبعث مسلمة الى رؤساء بني أمية عن لسان أبي العَمَيْطر يأمرهم بالحضور فجعل كل من دخل يقال له : بايع ، والسيف على رأسه فيبايع . وأدنى مسلمة القيسية ، ولبس الثياب الحمر ، وجعل أعلامه حمراء ، وأقطع بني نمير ضياع المرج ، وجعل لكل رجل من وجوه قيس بمدينة دمشق منزلاً وولاهم ، ثم أقبل ابن بيهس حتى نزل قرية شبعا وأصبح منها غادياً الى دمشق ، وصاح الديدبان بالسلاح ، وخرج مسلمة وخرجت معه القيسية ، فتقاتلوا ذلك اليوم مع

مسلمة قتالاً شديداً وكثرت الجراحات في الفريقين ، وانصرف ابن بيهس وخاف القيسية على أنفسهم ، وذهبوا الى ابن بيهس وأحكموا الأمر معه، وصبح دمشق بالخيل والرجالة والسلالم ، ونشب القتال وصعد أصحاب ابن بيهس السور بناحية باب كيسان فلم يشعر بهم أصحاب مسلمة ، واستولى ابن بيهس على دمشق لعشر خلون من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، ولم يزل يحارب أهل المزة وداريا وبيت لهيا إلى أن صالحه أهل بيت لهيا، وأقام على حرب أهل المزة وداريا وهو مقيم بدمشق أميراً متغلباً عليها ، الى أن قدم عبد الله بن طاهر دمشق سنة ثمان ومائتين وخرج الى مصر ورجع الى دمشق سنة ست عشرة ومائتين ، وحمل ابن بيهس معه الى العراق . وولى الأمين (١٩٦) عبد الملك بن صالح بن علي على الشام ، وأمره بالخروج اليها . وفرض له من رجالها جنوداً يقاتل بها طاهراً وهرثمة . وعبد الملك هذا هو الذي كان يقول في أهل الشام : قوم قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وإن أهل الشام أجرأ من أهل العراق ، وأعظم نكاية في العدو . ووقعت فتنة في عسكره بين الخراسانيين وأهل الشام وكثر القتل ، وأظهر عبد الملك النصرة للشاميين ، وانتصر الحسين بن علي للخراسانيين وتنادى الناس بالرجوع ، فمضى أهل حمص وقبائل كلب فانهزم أهل الشام واتصلت الحروب (١٩٨) بين سكان الشام وجماعة العباسيين ، وكان يعقوب بن صالح الهاشمي يحارب الحاضر حاضر حلب ، فلم يبق منهم وافترقوا أيدي سبا ، فصار أكثرهم الى مدينة قِنَّسْرين ، وضرب يعقوب الحاضر وكان فيه عشرون الف مقاتل.

وذكر المسعودي أن عبد الملك بن صالح توفي بالرقة سنة ١٩٧، وكان العامل على الجزيرة وجند قنسرين والعواصم والثغور ، واضطربت البلدان بعد وفاته ، وتغلب كل رئيس قوم عليهم ، وصار الناس حزبين ، حزب يظاهر بمحمد ، وحزب يظاهر بالمأمون ، فلم يبق بلد إلا وفيه قوم يتحاربون ، لا سلطان يمنعهم ولا شيء يدفعهم . ولما أفضت الخلافة الى المأمون كان بقورس وما والاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالي ، وبالحيار وما والاها من كور قِنسرين عثمان بن عثامة العبسي ،

وبالحاضر الذي الى جانب حلب منيع التنوخي . وقد كـــان يعقوب بن صالح الهاشمي يحارب الحاضر ، فهرب أهل قنسرين ، وكان بمعرة النعمان وتل منس وما والاهـــا من إقليم حمص الحواري بن خيطان التنوخي . وبحماة وما والاها حراق البهرائي ، وبشيزر وما والاها بنو بسطام، وبمدينة حمص بنو السمط ، وأقام بدمشق والأردن وفلسطين جماعـــة من رؤساء القبائل حتى ولى المأمون عبد الله بن طاهر .

ولم تكد الشام تستريح من فتنة أبي العَمَيْطَر حتى قام في أول عهد المأمون بدمشق رجل من بني أمية أيضاً ، أسمه سعيد بن خالد الأموي العثماني الفَدَيْني ، وادعى الخلافة ، قام بعد أبي العَمَيْطَر وأغار على ضياع بني شهيب (شرنبث ؟) السعديين ، وتطلب القيسية وقتلهم ، وتعصب ليمن ، فجهز له محمد بن صالح ابن بيهس أخاه يحي بن صالح، فلما صار بالقرب من حصنه المعروف بالفَدَيْن هرب ، فوقف يحي حتى هدمه وخرب زيزاء ، وتحصن سعيد في قرية ماسوح ، ثم إنه جمع عليه جمعاً عظيماً زهاء عشرين ألفاً ، فلم يجد محاربه الى أن أجلاه عن مكانه وصار بعد ذلك الى حُسبان وفيه حصن حصين ، فأقام به وتفرق عنه أصحابه .

فتنة نصر بن شبث :

وهكذا لم يخل عهد السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون من خلفاء بني العباس من فتن في هـــذه الديار ، وبقيت نار العصبيات تتأجج . واليمانيون مـــع الأمويين ، والقيسيون مع العباسيين ، والدعوة للسفياني الذي وعد بإرجاع ملك بني أمية تهب وتنام، وقد ابتدأت أوائل خلافة المأمون بشيء من هذا القبيل . فقـــد عصى عليه نصر بن شبث العقيلي ، وكان يسكن كيسوم شمالي حلب ، وكان في عنقه بيعة للأمين وله فيه هوى ، فلما قتل الأمين أظهر نصر الغضب وتغلب عـلى ما جاوره من الكور ، وملك سُمَيْساط واجتمع عليه خلق كثير مـــن الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه ، وعبر الفرات الى الجانب الشرقي ،

وحدثته نفسه بالتغلب عليه . فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت عما كانت عليه وقوي أمره (١٩٩) بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا : قد وترت[١] بني العباس وقتلت رجالهم ، وأعلقت عنهم العرب فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك فقال : من أي الناس؟قالوا : نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب فقال : أبايع أولاد السوداوات ، فيقول إنه خلقني ورزقني . قالوا : فنبايع لبعض بني أمية فقال : أولئك قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ، ولو سلّم عليّ رجل مدبر لأعداني بإدباره ، وإنما هواي في بني العباس ، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدّمون عليهم العجم .

قوي أمر نصر فأرسل عليه المأمون أحد عظام قواده طاهر بن الحسين فلقيه نصر وكسره ، فسير إليه المأمون عبد الله بن طاهر القائد العظيم ابن ذاك القائد العظيم ، فحصره في كيسوم من مدن العواصم وأخذه بعد وقائع كثيرة ، واحتوى على الشام جميعه وهدم عدة أسوار من المدن المجاورة لحلب ومنها كيسوم . وسار عبد الله بن طاهر يستقري الشام بلداً بلداً ، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك اللصوص ، وهدم الحصون وحيطان المدن، وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً ، ونظر في مصالح البلدان ، وحط عن بعضها الخراج ، فلم يبق مخالف ولا عاص إلا خرج من قلعته وحصنه ، وعاد عبد الله بن طاهر الى مدينة السلام يحمل معه المتغلبين على الشام ، أمثال ابن السرج وابن أبي الجمل وابن أبي الصقر ، ودام عصيان نصر خمس سنين .

المأمون وحكمه على قيس ويمن :

لم يطفىء الفتنة التي أثارها نصر بن شبث في الشمال والتي أثارها غيره

---

(١) وتر الرجل : أفزعه وأدركه بمكروه ووتره ماله : نقصه إياه وقوله : أعلقت عنهم : دفعت عنهم .

في الوسط والجنوب غير أعاظم قواد بني العباس، أطفأوها بالعقل والتؤدة ، وقد رأينا أن عصبية الأمويين لم تنقطع على شدة العباسيين في استئصالها ، وكان كل حين يثور ثائر باسم السفياني ، ويثور معه جماعته ولا سيما من أهل القرى والبوادي . وكانت الأحوال أخذت تهدأ على عهد الرشيد والمأمون ، فتفرغا لإجراء الإصلاح . وكان الرشيد تولى شمال الشام أيام كونه ولياً للعهد ، والمأمون زار الشام ثلاث مرات يقيم فيها نصاب العدل ، ويوطد دعائم المدنية ، وعُدّ عهده وعهد أبيه من أجمل عصور التاريخ الإسلامي . المأمون الخليفة العادل ، وممثل التسامح المحمدي العجيب ، ومحكّم العقل في أحكامه ومعتقداته ، وقلما اجتمعت صفات كصفاته وعقل كعقله وعلم كعلمه لخليفة من خلفاء الإسلام .

وكأن ما وقع في أوائل عهد العباسيين من الغوائل التي غالت أهل البوادي والحواضر في هذه الديار كان عقوبة لأهلها عما قدمت أيديهم من خيانة عهد بني أمية ونفض أيديهم من مروان بن محمد لأول ظهور قوة خصمه وإدبار الأمر عنه ، حتى قاتلوه وطاردوه ، على مثل ما قاتله جيش خراسان العباسي وزيادة ، فتعجلوا انقراض دولة الأمويين معلقين آمالهم على الدولة الفتية . ولذلك زعم بعضهم أن الملك في الشام لا يثبت، لعدم الثبات المغروس في فطرة أهله ، ولتلون الطبائع فيه تلوّن أقاليمه وسمائه وهوائه . وكان من أثر العادة التي حملها العرب معهم من جزيرتهم ، وهي عادة الغزو المتأصلة في غير سكان المدن ، أن نشبت الثورات وكثر قتل الأنفس وغرست هذه الاضطرابات في أرض الشام فنمت ، خصوصاً وجبالها أكثر من سهولها على الأكثر ، وتصلح للدفاع والهزيمة والاستمرار على المشاكسة لصاحب القوة .

بالغ العباسيون في إهراق الدماء لأول أمرهم ، وقضوا على آثار بني أمية ، وهي كثيرة جداً ، ومع ذلك كان اسم الأموي والسفياني يرنّ في الآذان ، والمستعدون للثورة يمتشقون الحسام عند أول داعية يسمعهم صوته ، أو ثائر يستتبع الناس ويعدهم الوعود الخلابة . نعم إن التنازع بين القيسيين واليمانيين كان في هذا القرن على أشد حالاته ، وهذه العداوة

بين الفريقين العظيمين من العرب أضرت ضرراً بالغاً . وكان القيسيون حزب العباسيين على الأغلب واليمانيون حزب الأمويين والمنافسة بينهما على الملك والسلطان .

« تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال له : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال : أكثرت عليَّ يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً من ظهور الخيل إلا وأرى أنه لم يبق من مالي درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط . وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما ثائراً ، اعزُب فعل الله بك » .

سبب تباغض النزارية واليمانية وحكمة حكيم :

تأصلت البغضاء بين النزارية واليمانية منذ كان للعرب في الشام سلطان . وكثيراً ما تظهر بوادر هذه العداوة لسبب تافه . فقد ذكروا أن الكميت الشاعر المعروف ، مدح النزارية فأفحش في مدحه ، ففخروا بذلك على اليمانية ، وأغدق بنو هاشم المال على الكميت مكافأة له ، وقام دِعْبل الخزاعي يمدح اليمانيين ويعيب غيرهم ، فكان هذا أول الشنآن بين النزارية واليمانية ، ومنها تحزب الناس بالمناقب وثارت بينهم في البدو والحضر، الى أن قام محمد الجعدي متعصباً لقومه ، فانحرف الناس للدعوة العباسية وتقلقل الأمر الى انتقال الدولة من بني أمية الى بني هاشم ، ولم يبق معهم إلا من فرّ بنفسه مستخفياً .

وكان رجال الإدارة والسياسة إذا أحبوا نشر العدل بين هذين الحيين العظيمين من أحياء العرب يتعذر عليهم ذلك إلا بغمط حقوق الفريق الثاني، ولذلك عُدّ من حُسن سياسة إبراهيم بن محمد المهدي المنبوز بابن شكلة الهاشمي أخي الخليفة الرشيد لما ولي دمشق ، ما اتخذه أو ابتدعه من طريقة

جديدة أرضى بها قيساً ويمناً ، فإنه لما جاء غوطة دمشق وافاه الحيان من مضر ويمن ، فلقي كل من تلقاه بوجه واحد ، فلما دخل المدينة أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين وأمره بتسمية أشرافهم ، وأن يقدم من كل حي الأفضل فالأفضل منهم ، وأن يأتيه بذلك ، فلما أتاه به أمر بتصيير أعلى الناس من الجانب الأيمن مضرياً ، وعن شماله يمانياً ، ومن دون اليماني مضري ، ومن دون المضري يماني ، حتى لا يلتصق مضري بمضري، ولا يماني بيماني ، فلما قدم الطعام قال قبل أن يطعم شيئاً : إن الله عز وجل جعل قريشاً موازين بين العرب فجعل مضر عمومتها ، وجعل يمن خؤولتها وافترض عليها حب العمومة والخؤولة ، فليس يتعصب قرشي إلا للجهل بالمفترض عليه . ثم قال : يا معشر مضر كأني بكم وقد قلتم إذا خرجتم لإخوانكم من يمن: قد قدَّم أميرنا مضر على يمن ، وكأني بكم يا يمن قد قلتم وكيف قدمكم علينا ، وقد جعل بجانب اليماني مضرياً ، وبجانب المضري يمانياً ، فقلتم: يا معشر مضر إن الجانب الأيمن أعلى من الجانب الأيسر ، وقد جعلت الأيمن لمضر والأيسر ليمن ، وهذا دليل على تقدمته إيانا عليكم . ألا إن مجلسك يا رئيس المضرية في غد من الجانب الأيسر ومجلسك يا رئيس اليمانية في غد من الجانب الأيمن . وهذان الجانبان يتناوبان بينكما يكون كل من كان في جهته متحولاً عنه في غده الى الجانب الآخر . فانصرف القوم وكلهم حامد . وهذا من ألطف أساليب السياسة واستمالة القلوب بدون خسارة .

فافتخر إبراهيم بن المهدي بقوله : ما أعلم أحداً ولي جند دمشق فسلم من لقب يلقبه به أهل ذلك الجند غيري ، وذلك أن كل ملقب ممن ولي إمرة الشام ، لم يكن إلا ممن ينحرف عنه من اليمانية أو المضرية ، فكان إن مال الى المضرية لقبته اليمانية ، وإن مال الى اليمانية لقبته المضرية ، فعاملهم إبراهيم معاملة واحدة في الاجتماع وقضاء المصالح . فكانت الحاجة تعرض لبعض الحيين فيسأل قبل أن يقضيها له ، هل لأحد من الحي الآخر حاجة تشبه حاجة السائل ، فإذا عرفها قضى الحاجتين في وقت واحد . قال : فكنت عند الحيين محموداً لا أستحق عند واحد منهم ذماً

ولا عيباً ولا نبزاً أُنبز به . وقال إبراهيم : إنه ولي دمشق سنتين ثم أربع سنين بعدهما لم يقطع على أحد في عمله طريق . وأُخبر أن الآفة كانت في قطع الطريق في عمل دمشق من ثلاثة نفر : دعامة والنعمان موليان لبني أمية ، ويحيى بن أرميا من يهود البلقاء ، وأنهم لم يضعوا أيديهم في يد عامل قط ، فكاتبهم فارعوى الاثنان وأبى الثالث أداء الجزية فقتل في معركة ، وساد الأمن في القطر .

ولكن هذه السياسة لم يجر العمل بها دائماً ، فقد ذكروا أن إبراهيم ابن صالح والي دمشق في خلافة الرشيد لما خرج منها في الوفد الذي قدم به على الرشيد استخلف ابنه إسحاق على دمشق ، وضم إليه رجلاً من كندة يقال له الهيثم بن عوف ، فغضب الناس وحبس رؤساء من قيس، وأخذ أربعين رجلاً من محارب فضربهم وحلق رؤوسهم ولحاهم ، وضرب كل رجل ثلاثمائة ، فنفر الناس بدمشق وتداعوا الى العصبية ونشبت الحرب ورجعوا الى ما كانوا عليه من القتل والنهب فلم يزالوا على ذلك أشهراً .

قيس ويمن وفتنة المبرقع :

ولي دمشق بعد إبراهيم بن المهدي سليمان بن المنصور فانتهبه أهل دمشق وسبوا حريمه ، وولي بعده منصور بن المهدي ، وكانت على رأسه الفتنة العظمى ولم يؤد القوم طاعة بعد ذلك ، الى أن افتتح دمشق عبدالله ابن طاهر في سنة عشر ومائتين . ووقعت بدمشق فتن على عهد الأمين ، وسببها على ما ذكروه أنه كان يعجبه البلور فدس عامله فأخذ له قلة دمشق من جامعها فلما شعر الدمشقيون قالوا : « لا صلاة بعد القلة » فصارت مثلاً وافتتن الناس وامتدت فتنتهم ، ولما ولي المأمون أرجع القلة الى محلها . ولعل مسألة القلة أوجدها أنصار المأمون على الأمين حتى لا تبقى ناحية في المملكة إلا وتشعر بكراهة الأمين . وكتب المأمون في سنة ٢١٨ الى عامله على دمشق في التقدم الى عماله في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل محله . قال : فتقدم الى عمالك في ذلك أشد التقدمة ، واكتب الى عمال خراجك بمثل ذلك . وكتب بهذا الى جميع

عماله في أجناد الشام جند حمص والأردن وفلسطين .
وفي أيام المعتصم (٢٢٤) خرجت رجال دمشق على أبي المغيث الرافعي واليها في طلبهم محمد بن أزهر ، وكان قد عاث في مرج دمشق ونفّر أهلها وأجلاهم عنها ، فخرج رجل من بني حارثة اسمه يزيد في جماعة وغيرهم من يمن ، واجتمعت قيس بمرج دمشق وأقبل محمد بن أزهر ، فلما صار إليهم خرجوا عليه وجرح وقتل من الجند خلق ، ووثب ابن لمحمد بن صالح على بعض أمراء السلطان وأخذه في جماعة من قيس بحوران ، وأقبل الى مرج دمشق وصار مع يزيد وحاصر دمشق حصاراً شديداً ، وغلقت أبواب دمشق ولم يخرج أحد إلا اختطف . ولما مات المعتصم (٢٢٧) ثارت القيسية بدمشق وعلى رأسهم ابن بيهس الكلابي فعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم فبعث الواثق إليهم رجاء بن أيوب ، وكانوا معسكرين بمرج راهط ، فنزل بدير مران ودعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا ، فواعدهم الحرب بدومة فوافاهم فقاتلهم فهزمهم وقتل منهم نحواً من ألف وخمسمائة ، وقتل من أصحابه نحو من ثلاثمائة وهرب مقدمهم ابن بيهس وصَلُح أمر دمشق . وقال ابن عساكر : إن الذين ثاروا هم أهل الغوطة والمرج ، ومن قرى الغوطة الثائرة كفر بطنا وجسرين وسقبا وقرى جَرَش ومن انضوى إليهم ، وأصيب من ذلك جماعة كثيرة ، وقاتلهم العامل في مجمع عسكرهم بكفربطنا وهي لقيس ، وثار الناس من النواحي ، وقتلوا الأطفال وجرحوا النساء وهزمهم .

وسار رجاء الى فلسطين لقتال تميم اللخمي ، ويعرف بأبي حرب ويلقب بالمبرقع الخارج بها في لخم وجذام وعاملة وبلقين ، فقاتله فانهزم المبرقع وأخذ أسيراً سنة ٢٢٧ ، وكان المبرقع من أهل الغور خلع الطاعة ودعا الى نفسه فتبعه خلق كثير من الحراثين وغيرهم وقالوا : هذا هو السفياني المذكور أنه يملك الشام ، واستفحل أمره جداً واتبعه نحو مئة ألف فأنفذ المعتصم إليه جيشاً ، فلما قدم الأمير رأى أمة كبيرة قد اجتمعت حوله ، فخشي أن يناجزه والحالة هذه فانتظر حتى جاء وقت حرث الأرض ، فتصرّم عنه الناس الى أرضهم ، وبقي في شرذمة قليلة من

أصحابه فناهضه فأسره . وروى الطبري : أن سبب خروج المبرقع على السلطان أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها وفيها إما زوجته وإما أخته ، فمانعته ذلك فضربها بسوط أصاب ذراعها فأثر فيها ، فلما رجع أبو حرب الى منزله بكت وشكت إليه ما فعل بها وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه ، فأخذ أبو حرب سيفه ومشى الى الجندي وهو غارٌ فضربه حتى قتله ، ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يعرف ، فصار الى جبل من جبال الأردن ، ولما كثرت غاشيته من الحراثين استجاب له جماعة من رؤساء اليمانية وأرباب البيوت منهم . وروى أيضاً أن خروجه كان في سنة ٢٢٦ بالرملة وصار في خمسين ألفاً من أهل اليمن وغيرهم ، وأن القائد العباسي قاتله بالرملة فقتل من أصحابه في وقعتين خمسة وعشرون ألفاً حتى أسر .

فتن أهلية وعصبيات حمصية ولبنانية ودمشقية وفلسطينية ومعرية :

في سنة ٢٣١ جرى بين الأمير هانىء والمردة حروب في جبل لبنان ، انتصر عليهم ولُقب بالغضنفر أبي الأهوال ، وبلغ خبره خاقان التركي خادم الرشيد ، فكتب كتاباً يشكره على ما فعل ويحثه على الحرب ، ويخبره أنه بلغ حسن سلوكه الى مسامع الخليفة . ومن أهم الأحداث في سنة ٢٤٠ وثوب أهل حمص بعاملهم ، فوجه المتوكل محمد بن عبدويه عاملاً عليهم ، فسكنهم وأقام بديارهم عدة شهور ، ثم وثبوا فشغبوا عليه ، فسكنهم ومكر بهم وأخذ جماعة منهم ، فحملوا الى باب المتوكل ثم ردوا إليه فضربهم بالسياط حتى ماتوا ، وصلبهم على أبواب منازلهم، وتتبع رجال الفتنة فأفناهم .

ووثب أهل دمشق بعامل المتوكل سالم بن حامد لظلمه وعسفه فيهم وقتله جماعة من أشرافهم ورؤسائهم ، فقتلوه على باب الخضراء . قال ابن عساكر : إن سالماً كان سيء السيرة أذلّ قوماً من أهل دمشق ، كان بينه وبينهم طائلة ودماء في أول دولة بني العباس وآخر دولة بني أمية . وكان لبني بيهس والجماعة من قريش دمشق وسائر العرب من

السكون والسكاسك وغيرهم قوة ونجدة، فقتلوه على باب الخضراء وقتلوا من قدروا عليه من رجاله ، وسلطوا الموالي على رجالهم وأموالهم فسلبوها .

وغضب المتوكل لمقتل عامله وقال : من لدمشق وليكن في صولة الحجاج ؟ فقيل له : أفريدون التركي . فأمره وجهزه إليها في سبعة آلاف ، وأحلّ له القتل والنهب ثلاثه أيام ، فنزل بيت لهيا فبات بها ، فلما أصبح قال : يا دمشق إيش يحل بك اليوم مني . فقدمت له بغلة وهمّ ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب ضربته بالزوج في صدره ، فسقط ميتاً . وبعد ثلاث سنين جاء المتوكل ليسكن دمشق هرباً مما كان يحاذره من شدته على العراقيين فنقل دواوين الملك إليها ثم رجع بعد أشهر وهناك قتل .

وفي سنة ٢٤٨ شغب أهل حمص على عاملهم أيضاً ، فوجه الخليفة إليهم عاملاً آخر فأخذهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وحمل مئة رجل من عيونهم الى سامرّا . وفي هذه السنة غزا الصائفة وصيف ، وكان مقيماً بالثغر الشامي ثم دخل أرض الروم وفتح بعض الحصون . وفي السنة التالية كان غزو جعفر بن دينار الصائفة ، فافتتح حصناً ومطامير ، ثم غُلب وقتل جماعة كثيرة من جيشه . وفي سنة ٢٥٠ وثب أهل حمص بعاملهم فقتلوه ، فوجه إليهم المستعين من حاربهم فهزمهم بين حمص والرّستن، وافتتح حمص وقتل من أهلها وفيهم خلق من نصارى المدينة ويهودها ، فقتل مقتلة عظيمة وأحرقها . وكان المتوكل أمر بإخراج النصارى من حمص ، لأنهم كانوا يعينون الثوار . ووثب أيضاً أهل حمص بعاملهم مرة أخرى فقتلوه . وخافوا عامل دمشق فزحفوا إليه فوجه إليهم بعسكر من البابكية وغيرهم فهزموهم وانصرفوا الى حمص . وثاروا مرة فأرسل عليهم الخليفة عاملاً آخر فدخل بلدهم عنوةً وأباحها ثلاثة أيام وطرحت النار في منازلها . وكان الواثب بحمص العطيف بن نعمة الكلبي في خلق عظيم من عشيرته وغيرهم . وكثر وثوب أهل حمص ، وبعبارة أعم ، وثوب أهل جند حمص بعمالهم ، لأنهم يمانية نزاع الى الثورة ، ونار الإحن بينهم وبين القيسية لا تزال موقدة ، ثم إنه كان لهم من السكان

الأصليين من غير المسلمين من كانوا يحرضونهم على شق عصا الطاعة ، فلذلك كثرت ثوراتهم وما برحوا يثورون حتى أيام المهدي . فقد ثاروا بمحمد بن إسرائيل ، فخرج هارباً ولحقه ابن عكار ، فكانت بينهما وقعة قتل فيها ابن عكار ، ورجع ابن إسرائيل على البلد .

وفي أيام المستعين وثب بالأردن رجل من لخم ، فطلبه صاحب الأردن فهرب ، فقام مكانه رجل يعرف بالقطامي وكثف جمعه ، فجبى الخراج وكسر جيشاً بعد جيش أنفذهم إليه عامل فلسطين . فلم تزل هذه الحالة حتى قدم مزاحم بن خاقان التركي في جمع من الأتراك وغيرهم ، ففرق جمعهم ونفاهم . ووثب بالمعرة المعروف بالقصيص وهو يوسف بن إبراهيم التنوخي فجمع جموعاً من تنوخ ، وصار الى مدينة قنسرين فتحصن بها ، فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد مولى أمير المؤمنين فاستماله ، واستعمل عُطَيْف بن نعمة وصار إليه ، ثم وثب بعطيف بن نعمة فقتله ، وهرب القصيص فصار الى الجبل الأسود واجتمعت قبائل كلب بناحية حمص على الامتناع على المولد ، فسار إليهم فواقعهم فكانت عليهم ، ثم ثابوا عليه فهزموه وقتلوا خلقاً عظيماً من أصحابه ، وانصرف الى حلب في فَلّه ، ورجع القصيص الى قنسرين والتحم مع كلب ، وعُزل المولد وولي أبو الساج الأشروسي وكتب الى القصيص يؤمنه وصير إليه الطريق والبذرقة ثم ولاه اللاذقية ونحوها .

وفي سنة ٢٥٢ عُقد لعيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني على الرملة فأنفذ خليفته أبا الغراء إليها واستولى على فلسطين جميعها ، وتغلب على دمشق وأعمالها وامتنع من حمل المال الى العراق ، فحمل ابن مُدَبّر ، صاحب خراج مصر الى العراق سبع مائة ألف وخمسين ألف دينار فنهبها عيسى بن الشيخ في الطريق . وفي سنة ٢٥٦ عزل عيسى عن الشام ، وولي أماجور الشام فسار واستولى عليه بعد قتال بينه وبين أصحاب عيسى على باب دمشق وانتصر أماجور واستقر ، وكان عيسى يومئذ في زهاء عشرين ألفاً ، وأماجور في مائتين الى أربعمائة وقيل ألف ، فتغلب قليله على كثير خصمه . وكان أماجور أميراً مهاباً ، ضابطاً لعمله ، حشماً شجاعـاً ،

لا يتجاسر أحد على أن يقطع الطريق في جميع أعماله ، وله في باب تأديب العصاة وسلبة الطرق حكايات أثرت عنه .

الحكم على الدور الأول للعباسيين :

مضت اثنتان وعشرون ومائة سنة على الشام بعد انقراض دولة بني أمية ، وهو لا يخلو من فتن وتسمع فيها اسم السفياني والأموي العثماني أو غيرهم من أرباب العصبيات من العرب ، قيس ويمن . فتن أهلية يثور بركانها ، ثم يهمد الى حين ، ونُزّاع الى الملك والسلطان ، ولم يسد السلام إلا على عهد الرشيد والمأمون وكانت الفتن في أيامهما لا شأن لها لأنهما كان يوليان على الشام أقدر رجالها . والشاميون يرضيهم من الخلفاء حسن سياستهم ، والنظر بعطف على مصالحهم .

ولقد كانت الشام أوائل الفتح العباسي تتناوبها يدا عبد الله بن علي وصالح بن علي العباسيين وأولادهما ، ثم أخذ عقلاء الخلفاء منهم يولون أولادهم وإخوتهم شؤونها . فقد رأينا المهدي ولى ابنه هرون الرشيد أيام كونه ولياً للعهد ولاية قنسرين أو شمالي الشام ، ورأينا الرشيد ولى أخاه إبراهيم بن المهدي دمشق ، ورأينا الرشيد ندب أحد عظام رجاله يحيى البرمكي الى دمشق ، كما رأينا ابنه عهد الى طاهر بن الحسين بولاية مصر والشام، وسوّغه خراج مصر سنة وهو ثلاثة آلاف ألف دينار ففرقه على الناس وهو على المنبر ، ولم ينزل منه إلا وقد اقترض عشرة آلاف دينار ليعطيها لرجل جاء متأخراً والمصلحة تقتضي برّه .

وقد رأينا حسن أثر السياسية التي اتبعها إبراهيم بن المهدي في وضع التوازن بين القيسيين واليمانيين في الشام ، فدل على عقل راجح ، وإرادة هاشمية قوية ، وكان بسياسته حائلاً دون المشاغبات الباطلة ، ونشر الأمن مدة ست سنين ، وكانت الشام من قبل تأجج فيها نيران العصبيات الجاهلية . ولكن المتوكل الخليفة المحمق ، أوسع مجال الخلف بينه وبين رعيته ، وأكبر أمر فتنة حدثت في دمشق ، فأباحها لعامله التركي ، فأطلّ الشعب في بغداد دمه لحرقه ، وهلك عامله قبل أن يباشر بجبروته فتكه

وسبيه ونهبه ، على نحو ما ارتكب العمال قبله في المتوثبين على العمال من أهل حمص .

وأهم الأغلاط التي ارتكبها المعتصم إدخال الأتراك في جنده ، فكان الاعتماد عليهم في الجيش العباسي كالاعتماد على أهل خراسان الأعاجم لأول الفتح من أهم الدواعي في إغضاب العرب ، فأدى هذا الإيثار الى نزع الحكم من العباسيين ، حتى دخل الوهن بدخول الأتراك على الدولـة ، فآضت الخلافـة العباسية بصنيعهم اسمية دينية فقط لا تتعدى قرى بغداد إلا قليلاً ، وغدا الحكم الفصل لمن قويت شكيمته من الدخلاء واستجاش الأنصار والأعوان . وبعد أن كانت بغداد ترسل الى الشام أولاد خلفائها وأعاظم قوادها من الأصول أصبحت ترسل إليهـا من الفروع أفريدون التركي وخاقـان التركي ومحمد المولد من الموالي فظهر الفرق في صورة الحكم ، لأن الحكم كان في الغالب فردياً لا علاقة للجماعة به إلا اذا أحبَّ صاحب الأمر استشارة أهل الرأي استشارة خاصة ودية وله الحرية أن يعمل بما ارتأوه ، ولا أحد يكرهه على قبول رأيه . فمن ثم اقتضى أن يكون العامل في الغاية أصالة ونبالة وعلماً ونزاهة .

أفضى هذا التساهل مع الأعاجم والاعتماد عليهم ، الى جر البلاء على الخلفاء من بني العباس ، وبعد أن كانت وصية إبراهيم الإمام الذي مات في سجن مـروان الجعدي الى أبي مسلم الخراساني صـاحب الدعوة : « انظر الى هذا الحي من اليمن فالزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار ، واقتل من شككت فيه وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأيمـا غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله » أصبحت تفتح للأتراك أبواب دار الخلافة ولكل دخيل على العرب ولم يعد حكم لقيس ولا يمن بـل للأعـاجم من الفرس والترك والديلم . وفي أيام المأمون نشأت الدعوة الشعوبية أي الحط من قدر العرب وتفضيل العجم عليهم ، فتبدلت روح الدولـة ، وأخذ العربي يبغض العجمي والعجمي ينال من العربي ، منذ كانت السلطة لأبناء خراسان، أما بدخول

الأتراك فالمسألة بلغت أقصى حدودها الخطرة ، وكادت مقـاليد الخلافة تخرج من أبناء هاشم بعد عصر المعتصم .

كانت مسألة دخول الأتراك في الدولة بادىء بدء لا شأن لها في الظاهر وهي أن المعتصم جمع الأتراك وشراهم من أيدي مواليه فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج ، والمناطق والحلية المذهبة ، وأبانهم بالزي عن سائر جنوده واصطنع قوماً من اليمن وقيس وسماهم المغـاربة وأعدّ رجال خراسان من الفراعنـة وغيرهم والأشروسية — فلما تم هذا كثرت شكاية الناس أولاً من إيـذاء الأتراك لعوام بغداد ، وكلما زادت الشكاية توغل الأتراك في جسم المجتمع العباسي . وحاول من جـاء بعده مثل المعتز أن يتخلص منهم،ولكنهم كانوا تأصلوا في جسم الدولة وأفسدوا عليها أمرها ، ولكل أجل كتاب .

ظهور الدولة الطولونية وانقراضها

من سنة ٢٥٤ الى ٢٩٢

بداية الطولونيين :

ظهرت بوادر الضعف في العباسيين ، وكادت تصبح سلطتهم اسمية ، وخلافتهم دينية لا دنيوية ، ساعد على ذلك اشتغال الخلفـاء بعد المعتز بأنفسهم ، وتغلب كثير من الأمراء على الأطراف ، وأصبحت البـلاد رهن أيدي المتغلبـة من العمال ، وكان معظم الخلفاء الأول الى ما بعد المعتصم على غاية من العلم والأخلاق وحسن السياسة ، ومن النـادر أن يتسلسل هذا الرقي في الأخلاق في آل بيت واحد على اطراد جميل ، كما تسلسل في بني هـاشم لأول أمرهم ، ولكن منهم من ساعدهم الطالع ومنهم من خانه ، والسعادة أكثر من الشقاء في الجملة .

وبينما كانت دولة الأمويين في الأندلس في إبان عزّها في القرن الثالث ، كانت دولة العباسيين تضطرب وتضيق بقعتهـا في هذا الشرق القريب ، خصوصاً في النصف الثاني من المئة الثالثة ، وعمـال فارس ومصر والشام وغيرهـا يقطعون الخراج عن دار الملك ، ويستبدون بالأمر ، وليس للخليفة العباسي إلا الخطبة والسكة ، وقد يقرن المتغلب على قطر اسمه الى اسم الخليفة في الدعاء ، ويضرب السكة باسمه أو باسميهما معاً . وكانت الدولة الى هذا العهد لا تقوم لها قائمة إلا إذا جمعت بين السلطتين الدينية والدنيوية ، فإذا ضعفت إحداهما في القائم بأمر المسلمين ، أصاب القوة الثانية ضعف عطلها عن العمل النافع .

وكلما اعتمد خلفاء بني العباس على الأعاجم ، في ولايـة عمالاتهم ومقاطعاتهم وقيادة جيوشهم ، كانت الدولة العباسية تقترب من الانقراض، فسدت عصبية العرب كما قـال ابن خلدون في بني العباس لعهد دولة المعتصم وابنـه الواثق ، لاستظهارهم بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية أي التركمان وغيرهم ، ثم تغلب الأولياء على النواحي ، وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلائف في حكمهم . وقـال المقريزي : اختص المعتصم الأتراك ووضع من العرب وأخرجهم من الديوان وأسقط أسماءهم ومنعهم العطاء ، وجعل الأتراك أنصار دولته وأعلام دعوتـه ، وكان من عظمت عنده منزلته قلده الأعمال الجليلة الخارجـة عن الحضرة ، فيستخلف على ذلك العمل الذي تقلده من يقوم بأمره ويحمل إليه ماله ويدعى له على منابره كما يدعى للخليفة ، وقصد المعتصم ومن بعده من الخلفاء بذلك العمل مع الأتراك محاكاة ما فعله الرشيد بعبد الملك بن صالح والمأمون بطاهر بن الحسين ، ففعل المعتصم مثل ذلك بالأتراك فقلـد اشناس ، وقلـد الواثق إيتاخ ، والمتوكل بغا ووصيف ، وقلد المهتدي أماجور وغير من ذكرنا من أعمال الأقاليم،فضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال،وتغلب على الخليفة فيها الأولياء والقرابة والمصطنعون ، وصـار تحت حجرهم من حين قتل المتوكل فتغلب على النواحي كل متملك .

احمد بن طولون وسيما الطويل وأحداث أخرى :

وكان من أهم من فتوا في عضد الخلاف أحمد بـن طولون في مصر والشام،وكان في ظاهره يظاهر الخليفة،فهو أول متغلب ظفر حقيقة بالانفراد بالسلطة،فما وسع العباسيين إلا مصانعته بعد أن حاولوا محاربته فعجزوا ، كانت ديار مصر قد أقطعها بايكباك من قواد الأتراك وكان مقيماً بالحضرة أي في عاصمة الملك فاستخلف بها من ينوب عنهـا ، وكان طولون والد أحمد بن طولون أيضاً من الأتراك ومن أنسبائه ، وقد نشأ بعد والده على طريقة مستقيمة ، وسيرة حسنة ، فالتمس بايكباك من يستخلفه بمصر فأشير

عليــه بأحمد بن طولون فولاه المعتز بالله سنة ٢٥٤ مصر . وفي سنة ٢٦٤ توفي أماجور بدمشق واستخلف ابنه علي، فحرك ذلك أحمد بن طولون على فتح الشام فكتب الى عليّ يخبره بانه سائر اليه وأمره بإقامة الأنزال والميرة لعساكره،فرد علي بن أماجور أحسن جواب ، وخرج ابـن طولون في المطوعة من مصر وفلسطين فبلغ الرملة فتلقاه محمد بن رافع خليفة أماجور عليها وأقام له الدعوة بها فأقره عليها ، ومضى الى دمشق فتلقاه علي بن أماجور وأقام له بها الدعوة واحتوى على خزائن أماجور وأقام بهـا أحمد حتى استوثق له أمرها ،ثم استخلف عليهـا احمد بن دوغباش،ومضى الى حمص فلقيه عيسى الكرخي خليفة أماجور عليها فسلمها إليه، ثم بعث الى سيما الطويل التركي وهو بأنطاكية يأمره بالدعاء له فلم يجبه سيما ، فتحصن بأنطاكية في جيش من الأتراك وغيرهم ،وامتنع،فحاصره أحمد ورمى حصنها بالمنجنيق ، وطال حصاره لها فاشتد ذلك على أهلهـا فبعثوا الى أحمد بن طولون فخبروه بالموضع الذي يمكنه أن يدخل إليها منه فقصده ، وعاونه أهلهـا على سيما فدخلها في المحرم سنة خمس وستين ومائتين فقتل سيما واستباح أمواله ورجاله . وكان قبل نزول ابن طولون على أنطاكية (٢٦٤) وقع بـين سيما وبين أحمد المؤيد حروب كثيرة ببـلاد جند قنّسرين والعواصم ، وكان سيما قد عم أذاه أهلها فعاث ابن طولون ساعة بأنطاكية ثم ارتحل يؤم الثغر الشامي،وبهذا استولى ابن طولون على الشام أجمع والثغور وامتد حكمه من مصر الى الفرات ، ومن مصر الى المغرب ، وكان ذلك مدة اشتغال لموفق أبـي أحمد طلحة بن المتوكل بحرب الزنج .

كان ابن طولون أول من اقتطع جزءاً من المملكـة الإسلامية عن الخلافة ، وجمع بين ملك مصر والشام في الإسلام ، فكان لمن بعده من المستبدين بالنواحي قدوةً ومثـالاً . وأخذ يستكثر من مشترى المماليك والديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك وأربعين ألفـاً من الزنج،واستكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف . وذكر بعض المؤرخين أن ابن طولون كان أعد بأمر الخليفة جيشاً مؤلفاً من مئة ألف إنسان لقتال أحد الخوارج على الخلافة في الشام،وكانت هذه الكتلة من

الجند سبباً في قوته وسلطانه فأخذ ملك الروم يهاديه ويطلب رضاه لاتساع مملكته ومكانتها بين مملكة الشرق ومملكة الغرب الإسلاميتين ، ولم يلبث أحمد بن طولون أن أخذ على الجند والشاكرية والموالي وسائر الناس البيعة لنفسه ، على أن يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه ويحاربوا من حاربه من الناس جميعاً . وانفرد بخراجها ، وأدرك رجال السياسية في بغداد أن ابن طولون التركي لم يقضِ على دولة سيما الطويل التركي حباً بسواد عيون الخلفاء ، بل ليستأثر بالأمر دونهم عندما تسنح الفرص .

وكان ابن طولون لعدله وحسن سياسته يفضله الناس على بعض الخلفاء، وفي الحق أنه كان على جانب من العدل ، وحسن السيرة ، وعلو الهمة وبعد النظر،والتفكر في عمران مملكته حتى زاد خراجها،وكان هديه في ذلك هدي المعتصم العباسي ، وكان هذا يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة أولها عمران الأرض التي يحيى بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش ، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه . فاستعان ابن طولون بما تدر عليه مصر من الخراج على تقوية سلطانه وكثرت صدقاته ، وما يجريه على القراء والفقهاء ، حتى كان يرسل كل سنة مائة ألف دينار لفقراء بغداد عدا كساوي الصيف والشتاء وعدا ما يرسل به الى الثغور والى الحرمين .

وجاء المعتضد الى الخلافة وهو من أعقل خلفاء العباسيين فعرض عليه أبو الجيش خمارويه بن طولون أن يصهر الى ولي عهد الخلافة ويزوجه ابنته قطر الندى ، فقال الخليفة: بل أنا أتزوجها وقال : ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار بني طولون لأنهم يضطرون أن يجهزوها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل ، وكان الأمر كما قال، فإنها جهزت بما استفرغ خزائن صاحب مصر والشام . قيل:إنه كان في جهازها ألف هاون ذهباً .. وكانت قطر الندى من أجمل بنات عصرها ، وأكثرهن أدباً وفضيلة . وقد عقد لها على المعتضد سنة ٢٨١ وشرط المعتضد على أبيها أن يحمل كل سنة بعد

القيام بجميع وظائف مصر وأرزاق أجنادها مائتي ألف دينار . وفي رواية أن المعتضد جعل لخمارويه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل في كل عام مائتي ألف دينار عما مضى ، وثلاثمائة ألف للمستقبل، وأن وزير المعتضد عبيد الله بن سليمان سعى مع أبي الجيش خمارويه ، على أن يقتصر على حمص ودمشق والأردن وفلسطين ومصر وبرقة وما والاها ، وينجلي عما كان في يده من ديار مضر وقنسرين والعواصم وسقي الفرات والثغور ، فأجاب الى ذلك وكتب سجلاً أشهد فيه على المعتضد وعلى خمارويه .

دام ملك أحمد بن طولون في مصر والشام اثنتي عشرة سنة ، ومات لست عشرة سنة من ولايته مصر ، ولولا سفكه الدماء لعدّ بعدله وعقله وسخائه من أفراد العالم . ومن الأحداث في عهده ما وقع من العصبية بفلسطين (٢٥٧) بين لخم وجذام فتحاربوا حرباً أخذت من الفريقين . وما وقع بين الأمير نعمان الذي حصن سور مدينة بيروت وقلعتها وبين المردة في لبنان من قتال على نهر بيروت دام أياماً حتى انهزموا ، وقتل بعضهم وأسر بعضاً ، فأرسل الرؤوس والأسرى الى بغداد ، فعرض الأمر على الخليفة وأكرموا رُسُله ، وكتب المتوكل إليه كتاباً يمدح شجاعته ويحرضه على القتال ، وأقره على ولايته هو وذريته ، وأرسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود ، وكتب إليه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها فاشتد أمره وعظم شأنه ، وفي بعض الروايات أن القتال على نهر الكلب دام سبعة أيام ، فانكسر عسكر المسلمين وقتل المقدم سمعان وأقيم مكانه خاله المقدم كسرى وهو الذي ذهب الى القسطنطينية ثم عاد الى بلاده ، وكانت خربت من تواتر الغارات عليها فعمرها وسميت باسمه كسروان . ومنها خروج رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشمي ، يقال له بكار بين سَلَمْيَة وحلب وحمص فدعا سنة ٢٦٨ لأبي أحمد الموفق ، فحاربه ابن عباس الكلابي فانهزم الكلابي ، ووجه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائداً في عسكر كثيف ، فرجع وليس معه كثير أحد .

ومنها مخالفة لؤلؤ غلام ابن طولون على مولاه سنة ٢٦٩ وكان في يد لؤلؤ

حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة وسار الى بالس ونهبها ، وكاتب ابن طولون الخليفة المعتمد في المصير إليه ، فمنعه الموفق واشتد الخلاف بين الموفق ولي عهد الخلافة وبين ابن طولون ، فخلع ابن طولون الموفق من ولاية العهد في مدينة دمشق وأقبل يلعنه على منابر مصر والشام والموفق يلعنه على منابر العراق وما إليها، وابن طولون يوهم أنه ينصر الخليفة.

وفي سنة ٢٦٩ غزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية خلف الفرغـاني عامل ابن طولون ، فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً وغنم الناس . وبلغ ابن طولون قدوم عرب مـن الحجاز الى حوران ، فأرسل الى صحراء أذرعات نحو خمسين ألفاً فتلقاهم الأمير عامر الملقب بالأذرعي بخمسة عشر ألفاً فكسرهم . والأمير عامر هو من نسل الحارث بن هشام المخزومي ، الذي أرسله الخليفة الثاني الى الشام مع أبـي عبيدة بن الجراح أميراً على بني مخزوم فسكن ولده حوران وتولوا الأعمـال للأمويين ، ثم للعباسيين وسموا ببني شهاب نسبة للأمير شهاب المخزومي والي حـوران المتوفى سنة ١٧٣ .

عهد أبـي الجيش خمارويه وجيشه :

خلف أحمد بن طولون ابنه أبو الجيش خمارويه ، وكان على قـدم أبيه في الاستكثار مـن العَدد والعُدد وترتيب الرواتب الدارة والمشاهرات والجرايات لجيشه وغيره . وقد بلغ جيشه في الشام ومصر نحو أربعمائة ألف فارس على مـا روى بعض أصحاب السير ، وهو عدد مبالغ فيه كثيراً والغالب أن جيشه لم يتجاوز المئة ألف ، ولا شك أن مثل هذا الجيش، وما يلحقه من الرجالة والمتطوعة تفتح به ممالك الخلافة العباسية كلهـا . وربما كان جيشه وجيش أبيه من قبله أول جيش جعل على الدوام تحت السلاح .

ولما بايع الجند أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بعد وفاة أبيه، أمر بقتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته، وعقد لأبـي عبد الله أحمد الواسطي على جيش الشام ، وعقد لسعد الأعسر على جيش آخر ، وبعث بمراكب

في البحر لتقيم على السواحل الشامية ، فنزل الواسطي فلسطين وهو خائف من خمارويه أن يوقع به لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه العباس ، فكتب الى أبي أحمد الموفق يصغر أمر خمارويه ويحرضه على المسير إليه ، فأقبل من بغداد وانضم إليه إسحاق بن كنداج ومحمد بن أبي الساج ، ونزل الرقة فتسلم قنسرين والعواصم وسار الى شيزر ، فقاتل أصحاب خمارويه وهزمهم ودخل دمشق ، فخرج خمارويه في جيش عظيم ، فالتقى وأحمد ابن الموفق بنهر أبي فُطرس واقتتلا ، فانهزم أصحاب خمارويه وكان في سبعين ألفاً وابن الموفق في نحو أربعة آلاف ، واحتوى على عسكر خمارويه بما فيه ومضى خمارويه الى الفسطاط ، وأقبل كمين له ، عليه سعد الأعسر ، ولم يعلم بهزيمة خمارويه فحارب ابن الموفق حتى أزاله عن المعسكر وهزمه اثني عشر ميلاً ومضى الى دمشق فلم يفتح له ، وسار سعد الأعسر والواسطي ، فملكا دمشق ، وخرج خمارويه من مصر فوصل الى فلسطين ، ثم عاد إلى مصر ، ثم خرج سنة ٢٧٢ فقتل سعداً الأعسر ودخل دمشق .

قال ابن عساكر : وسعد الأعسر ويقال الأعسر التركي ولي إمرة دمشق من قبل أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٢) ، ولما قتل في قصر نخلة فيما بين الرملة وبيت المقدس اضطرب الناس بدمشق . وكان سعد الأعسر قد فتح طريق الشام للحاج ، لأن الأعراب كانوا قد تغلبوا على الطريق قبل ولايته ، وكان قد بطل الحج من طريق الشام قبل ثلاث سنين ، فخرج سعد الى الأعراب وواقعهم وقتل منهم خلقاً عظيماً وفتح الطريق للحاج ، وكانت وقائعهم في المحل المعروف بالقسطل ، فأحبه أهل دمشق ، واغتموا لقتله ، فصاح الناس بدمشق وضجوا في المسجد الأموي ودعوا على من قتله ، وافتتن البلد حتى وافاهم أبو الجيش ابن خمارويه فمهد الأمور وبعث الى طريق الحاج من أصلحها ، وفرق في دمشق مالاً عظيماً على الفقراء والمساكين والمستورين وأهل العلم ، ومال إليه أهل دمشق وأحبوه . ولما تغلب الأعراب على بعض النواحي وجه

إليهم طباره جي ، فقتل منهم مقتلة عظيمة .

ثم سار أبو الجيش خمارويه لقتال ابن كنداج ، ثم اصطلحا وتظاهرا وكاتب خمارويه أبا أحمد الموفق في الصلح فأجابه الى ذلك ، وكتب له كتاباً بولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات ، أي أنه ولاه من الفرات الى برقة،فأمر خمارويه بالدعاء لأبـي أحمد الموفق، وترك الدعاء عليه بعد أن كان خلعه أبوه من ولاية عهد الخلافة . ثم بلغ خمارويه مسير محمد بن أبـي الساج الى أعماله الشمالية ، فخرج إليه ولقيه في ثنية العقاب من دمشق فانهزم أصحاب ابن أبـي الساج وثبت هو ، فحاربه حتى هزمه أقبح هزيمة ، واستبيح عسكره قتلاً وأسراً ، واتبعه جيش الى الفرات . وفي ذلك يقول البحتري :

وقد تولت جيوش النصر منزلة   على جيوش أبـي الجيش بن طولونا
يـوم الثنية إذ ثنى بكرته   خمسين ألفاً رجالاً أو يزيدونا

عهد جيش بن خمارويه وظهور القرامطة الطولونية :

وفي أيام خمارويه بن طولون استقامت شؤون الديـــار المصرية ، ومع أن أيام المعتضد العباسي كانت أيام فتوق فقد حمدت سيرته . ولي والدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته ، وكثرت الأموال ، وضبطت الثغور ، وكان قوي السياسة ، شديداً على أهل الفساد ، حاسماً لمواد أطماع عساكره عن أذى الرعية ، محسناً الى بني عمه من آل أبـي طالب . وفي سنة ٢٨٢ ذُبح أبو الجيش خمارويه في دمشق على فراشه، ولما بلغ المعتضد ذلك قتل من خدمه الذين باشروا قتله نيفاً وعشرين خادماً. وكان مقتل خمارويه في قصره بسفح قاسيون ، بعد أن فتح الشام كله ، ولم يسع الخليفة إلا إقراره على عمله والاكتفاء بمال يحمل إليه في بغداد ، وخلفه ابنه جيش بن خمارويه فخلعه طغج بن جف أمير دمشق سنة ٢٨٣ واختلف جيش جيش عليه لتقريبه الأراذل وتهديده قـــواد أبيه ، فثاروا عليه وقتلوه ، ونهبوا داره ونهبوا مصر وأحرقوها ، وأقعدوا هارون بن خمارويه في الولاية، وعصى هارون بن خمارويه على الخليفة ، وبعد حروب

كثيرة عقد الصلح بين الخليفة العباسي وبين هارون سنة ٢٨٦ ، فبقيت حلب للخليفة وما زالت الدولة بالفعل بالشام ومصر لبني طولون وبالاسم لبني العباس حتى سنة ٢٩٢ ، وقد بعث المكتفي العباسي ، مع محمد بن سليمان جيشاً فاستولى على دمشق ، ثم سار الى مصر وذبح بني طولون وهم عشرون إنساناً ، ذبحهم بين يديه هم وقوادهم كما تذبح الشياه ، وأشخص من أبقى عليه من آلهم وقوادهم الى بغداد ، فانقرضت بذلك الدولة الطولونية .

لا جرم أن روح الطولونيين هي روح العباسيين تطورت بتطور الأقطار التي استولوا عليها . وعلى كثرة ما بذل الطولونيون من أسباب التقرب من خلفاء بغداد لم يسكت العباسيون عنهم . تقربوا إليهم بالصهر والأموال والطاعة فلم يرضوا عنهم . ولما قوي جيش العباسيين قرضوهم وقتلوا قوادهم . وفي استيلاء الطولونيين على الشام شعرت الأمة أنها مستقلة عن العباسيين ، وأن في استطاعتها إذا جهزت لها جيشاً عظيماً كجيش أحمد ابن طولون وابنه خمارويه أن تستقل ، لأن قوة بني العباس لم تعد كما كانت ، بمعنى أن ابن طولون هتك ستر الخلافة ، فطمع فيها عمال الأطراف . والدولة الطولونية دولة عمران ، عمرت الأرجاء في أيامها ، ورأت مصر والشام أنهما إذا ألفتا حكومة واحدة تصبحان دولة قوية يرهب بأسها . وقد أكثر الشعراء من رثاء الدولة الطولونية ومما قاله بعضهم :

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله لفقدهم فليبك حزناً على مصر
ليبك بني طولون إذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر

دور الدولة العباسية الأوسط

« الإخشيدية والحمدانية والفاطمية »

٢٩٢ - ٣٦٤

القرامطة والبوادي والخوارج [١] :

اشتدت شوكة القرامطة (٢٨٩) في الشام جاءوها من المطرق ، وهزموا جيش طغج بن جف أمير دمشق للأمويين بوادي القردان والأفاعي ثم حاصروا دمشق فاجتمعت عليهم العساكر وقتلوا مقدمهم يحيى المعروف بالشيخ فقام في القرامطة أخوه الحسين وتسمى بأحمد وأظهر شامة بوجهه زعم أنها آيته فسمي بصاحب الشامة، وكثر جمعه فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه، وتقرمط أكثر من حولها من أهل الغوطة وغيرها وعاضدوه، ثم انصرف عن دمشق الى حمص فغلب عليها وخطبوا له من منابرها وتسمى بالمهدي أمير المؤمنين، ثم سار الى حماة والمعرة وغيرهما وقتل أهلها حتى الأطفال والنساء وأخذ سَلَمْيَةَ بالأمان فبدأ بمن فيها من بني هاشم وكانوا جماعة فقتلهم أجمعين، ثم قتل البهائم وأباد أهل بعلبك ، وعندها صحت

---

(١) القرامطة منسوبون لحمدان قرمط ، لقب بذلك لقرمطته أي تقريبه في خطه أو خطوه وقيل: إن لفظ القرامطة محرف عن كرميتة ومعناه بالنبطية أحمر العينين وذلك أن القرمطي الأول مرض مرة فأخذه الى بيته رجل اسمه كرميتة لقب بذلك لحمرة عينيه فسمي باسم مضيفه ، ودعوة القرامطة من الدعوات الباطنية وهؤلاء دهرية يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها يميلون كما قالوا الى استباحة كل ما يميل إليه الطبع وشعارهم : ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم فمن آنست منه رشداً فاكشف له الغطاء .

عزيمة الخليفة المكتفي فـأرسل من العراق جيشاً ، والى الطولونيين فأرسلوا من مصر جيشاً آخر فواقعوهم في كناكر وكوكب ، فأصبح القرامطة بين جيشين جيش الطولونيين من أمامهم وجيش الخليفة من ورائهم . وكان من أمر جيش العراق أن وصل من طريق الموصل الى وادي بُطنان قرب حلب وفي جملة قواده أبو الأغر فنزع فيما ذكر جماعة من أصحابه ثيابهم ، ودخلوا الوادي يتبردون بمائه ، وكان يوماً شديد الحر ، فبينما هم كذلك إذ وافى جيش القرمطي فكبسهم على تلك الحالة فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وانتهب العسكر وأفلت أبو الأغر في جماعة من أصحابـه ، فدخل حلب وأفلت معه مقدار ألف رجل ، وكان في عشرة آلاف بين فارس وراجل ، وكان قد ضمّ إليه جماعـة ممن كان على باب السلطان من قواد الفراغنة ورجالهم ، فلم يفلت منهم إلا اليسير ، ثم صـار أصحاب القرمطي الى باب حلب فحاربهم أبو الأغر ومن بقي معه من أصحابـه وأهل البلد ، فانصرفوا عنه بما أخذوا من عسكره من الكراع والسلاح والأموال والأمتعة ، ومضى المكتفي بمن معه من الجيش حتّى انتهى الى الرقة فنزلهـا وسرّح الجيوش الى القرمطي جيشاً بعد جيش .

وفي سنة ٢٩٠ أيضاً تحارب القرمطي صاحب الشامـة وبدر مولى ابن طولون ، فانهزم القرمطي وقتل من أصحابه خلق كثير ومضى من سلم منهم نحو البادية فوجه المكتفي في أثرهم الحسين بن حمدان وغيره من القواد .

وكان المكتفي عهد بإمـارة الشام الى أحمد بن كَيَغْلَغ سنة ٢٩١ وصار هذا الى مصر لقتال الخليجي الثائر ، فواقعه بالقرب من العريش فانهزم أقبح هزيمة فطمعت القرامطة في دمشق لغيبة ابن كَيَغْلَغ عنها ، فنهبوا فيها وساعدهم أن بعض السكان دانوا بمذهبهم ، ثم سار القرامطة الى طبرية (٢٩٣) وقتلوا أكثر أهلهـا رجالاً ونساء وأولاداً . وقال المسعودي : إن القرمطي الذي خرج يكنى أباغانم وقد خرج في جمع من كلب وقوي أمره وكثر أتباعه ، فوجه الخليفة الى القرامطـة الحسين بن حمدان بن حمدون فحاربهم الى أن ظفر بهم وأحضر رأس صاحبهم الى بغداد ، وكان القرمطي في طريقه الى طبرية مرّ بمدينتي بصرى وأذرعات

فحارب أهلها ثم أمّنهم ، فلما استسلموا له قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم واستاق أموالهم ، ثم نهض الى دمشق فخرج إليه من كان بقي بها مع صالح بن الفضل خليفة أحمد بن كيغلغ ، فقتل صالحاً وفض عسكره، ولم يطمع في دمشق إذ دافعهم أهلها عنها .

وبالحزم الذي أظهره المكتفي في قتال القرامطة بالشام وبالجيوش التي سرحها من بغداد وسرّحت له من مصر اضمحل أمر الباطنية ، ولم يبق لهم أمل في ملك ، وانفض عنهم الأعراب والمتلصصة ومن قال بقولهم وشايعهم على قيام أمرهم : ولولا الحزم لأوشكوا أن ينشئوا لهم ملكاً بالشام ، كما حاول الزنج في العراق أن ينشئوا لهم دولة لولا قيام الموفق ولي عهد الخلافة العباسية ذلك القيام المحمود في قمع شأفتهم . وكان ادعى القائمون بالقرمطة الشرف وأنهم يمتون بالقرابة الى آل البيت . قال بعض المؤرخين : إن القرمطي في الشام المكنى أبا القاسم كان ينتمي الى آل أبي طالب .

وفي سنة ٢٩١ سار نائب طرسوس المعروف بغلام زرافة نحو بلاد الروم ففتح مدينة أنطاكية وقتل خمسة آلاف وأسر مثلهم واستنفد من الأسارى خمسة آلاف وأخذ لهم ستين مركباً فحمل فيها ما غنم من الأموال والمتاع والرقيق وقدر نصيب كل رجل ألف دينار فاستبشر المسلمون بذلك. عاث بنو تميم في أعمال حلب وأفسدوا إفساداً عظيماً وحاصروا واليها زكا ابن الأعور . فكتب المقتدر بالله الى الحسين بن حمدان في إنجاد زكا بحلب ، فكانت وقعة بين الحسين بن حمدان وأعراب كلب والنمر وأسد وغيرهم (٢٩٤) فاجتمعوا عليه وهزموه حتى بلغوا به باب حلب ثم أسر منهم وقتل . وفي سنة ٢٩٨ كان دخول الروم الى ساحل الشام فافتتح صاحبهم حصن القبة بعد حروب طويلة وعدم مغيث يغيثهم من المسلمين وافتتح مدينه اللاذقية فسبى منها خلقاً كثيراً .

ومن أهم الأحداث ما وقع من الهيج بدمشق في زمن وصيف البكتمري الذي ولي إمارة دمشق في أيام المقتدر بعد هلال بن بدر (٣١٦) وفي أيامه خلع المقتدر المرة الثانية ثم رجعت إليه الخلافة فطلب الأولياء من

البكتمري البيعة لـــه بدمشق فامتنع عليهم ، فركبوا الى داره بالسلاح والنفاطات . وكانت دار الإمارة في تلك الأيام خارج لؤلؤة الصغيرة على نهر بانياس فأحرقوهـــا وبقيت عرصته . وفي هذا الدور سار (٣١٩) طريف بن عبد الله السبكري الخادم والي حلب الى بني القصيص التنوخيين وحاصرهم في حصونهم باللاذقية وغيرها فحاربوه حرباً شديدة ثم نزلوا على الأمان .

ومن أهم الكوائن في خاتمة القرن الثالث ظهور ابن الرضا وهو محسن ابن جعفر بن علي بن محمد بن عـــلي بن موسى بن جعفر بن محمد في أعمال دمشق ، وكانت له مع أبي العباس أحمد بن كَيَغْلَغ وقعة فقتل صبراً ، وقيل قتل في المعركة وحمل رأسه الى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي ذكر ذلك المسعودي . ولو تم الأمر لابن الرضا لقامت دولته قبل دولة الفاطميين .

الدولة الإخشيدية :

ظن بنو العباس أنهم نجوا من ثائر ينـــاصب دولتهم العداء في الشام ومصر يوم قضوا على أبناء طولون وقوادهم وقرضوا الدولة الطولونية آخر الدهر ، وقتلوا ابن الرضا القائم بتأسيس دولة علوية جديدة ، كما قتلوا القرمطي القائم بدعوة متدرعة بالعلوية ، وقضوا على صـــاحب الزنج في البصرة ، وما كانوا يظنون أن تظهر لهم في الحال دولة أُخرى قامت على أنقاض الطولونية وإن لم تكن مثلها استعداداً وعدلاً فليست دونها من أكثر الوجوه والاعتبارات . ظهرت لهم الدولة الإخشيدية أو دولة بني طُغج . والإخشيد كلمة فارسية معناهـــا ملك الملوك ومعنى طُغج عبد الرحمن ، ورأس هذه الدولة أبو بكر محمد بن طغج بن جفّ بن بلتكين بن فوري ابن خاقان . وكان جُفّ جد الإخشيد قد سار من فرغانـــة الى المعتصم العباسي ، فأكرمه وأقام معه الى أن توفي المعتصم ، فصحب ابنه الواثق الى أن توفي ، ثم صحب أخاه المتوكل الى أن توفي جُفّ . ولما توفي ابن طولون صار طغج مع ابنه أبي الجيش فولاه دمشق وطبرية الى أن

قتل أبو الجيش . ولما بويع هارون بن أبي الجيش ، ولى طغج دمشق وطبرية ، وتولى طغج قتال صاحب الخال القرمطي سنة تسعين ومائتين الى أن ظفر به . وكان لطغج من الولد سبعة ذكور الإخشيد أحدهم .

ولم يزل طغج على دمشق وطبرية وابنه محمد المعروف بالإخشيد يخلفه على طبرية . وكان بطبرية أبو الطيب محمد بن أبي حمزة العلوي،وكان وجه طبرية شرفاً وملكاً وقوة وعفافاً . فكتب الإخشيد الى أبيه طغج يذكر له أنه ليس له أمر ولا نهي مع أبي الطيب العلوي ، فكتب إليه أبوه: أعز نفسك . فأسرى محمد بن طغج على أبي الطيب في بستان له فقتله . ولم يزل طغج أيام أبي الجيش على دمشق وطبرية وأيام جيش وأيام هرون ابن أبى الجيش الى أن قتل هرون وانقرضت الدولة الطولونية . فمات طغج في حبس العباس بن المحسن وزير العباسيين ، ونجا من محبسه بعد مدة ابنه الإخشيد ، وهرب الى الشام قاصداً أحمد بن بسطام عاملها ، وبقي معه يخدمه ثم تقلد ابن بسطام مصر فسار معه الإخشيد ، وكان معه الى أن توفي سنة سبع وتسعين ومائتين ، فصار مع ابنه أبي القاسم علي وحضر الإخشيد مع تكين الخاص وقعة حسن فيها أثره ، فولاه تكين عمَّان وجبل الشراة . واتفق له وهو على عمان والشراة في سنة ٣٠٦ أن حاج الشام ، وفيهم جماعة من أهل العراق قعد له جمع من لخم وجذام فجمع عسكره ولقيهم ومعه أخوه علي بن طغج فهزمهم فصار له شأن في العراق وذاعت كفايته وأمانته .

وتقلد محمد بن طغج الملقب بالإخشيد مصر من جهة الراضي ، وكان قبل ذلك تولى مدينة الرملة سنة (٣١٦) من جهة المقتدر وأقام بها الى سنة ٣١٨ فوردت إليه كتب المقتدر بولايته دمشق فسار إليها وتولاها ، وكان حينئذ المتولي على مصر أحمد بن كيغلغ ، فلما تولى الراضي عزل أحمد بن كيغلغ وولى ابن طغج مصر وضم إليها البلاد الشامية ، فاستقر ابن طغج بها سنة ٣٢٣ وما نشب — وهو يتولى أعمال المعاون في الشام علاوة على أعمال المعاون في مصر ، وقلد بدراً الخرشي دمشق ، وأحمد بن سعيد الكلابي شيخ قبيلة بني كلاب حلب ، حتى كثر بذلك الكلابيون

وزاد نفوذهم ـ أن خلع طاعة الخليفة العباسي، فندب الخليفة محمد بن رائق الى الشام وأقطعه إياها على أن يستخلصها من الإخشيدية، فاستولى ابن رائق سنة ٣٢٨ عليها وطرد بدراً نائب الإخشيد وولي إمرة دمشق محمد بن يزداد الشهرزوري ، فلم يزل عليها الى أن قتل محمد بن رائق بالموصل (٣٣٠) فقدم الإخشيد محمد بن طغج فاستأمن إليه محمد بن يزداد فأقره على إمرة دمشق خلافة له . وبلغ ابن رائق العريش يريد مصر ، فخرج إليه الإخشيد واقتتلا فانهزم ابن رائق الى دمشق .

ثم جهز الإخشيد الى ابن رائق جيشاً مع أخيه واقتتلوا ، فانهزم عسكر الإخشيد وقتل أخوه ، فأرسل ابن رائق يعزي الإخشيد في أخيه ويقول له : إنه لم يقتل بأمري ، وأرسل ولده مزاحم وقال له : إن أحببت فاقتل ولدي به . فخلع الإخشيد على مزاحم وأعاده الى أبيه . فاستقرت مصر للإخشيد الى حد رملة فلسطين ، والشام لابن رائق من طبرية . وفي السنة التالية بعث الإخشيد من مصر قائده كافوراً الى الشام في جيش عظيم ، فهزم عامل ابن رائق واستولى على حلب ، وأفسد أصحابه في جميع النواحي وقطعت الأشجار التي كانت بظاهر حلب وكانت عظيمة جداً ، ونزل عسكر الإخشيد على الناس بحلب وبالغوا في أذاهم .

وبعد سنة عقد الصلح بين الإخشيد وابن رائق ، فاستأثر هذا بولاية حلب ، وانفرد الإخشيد بدمشق يصادر أغنياءها ويستصفي أموالها، وكان ظالماً مستبداً . وقد وجد بداره قبل مسيره عن مصر الى الشام رقعة مكتوب عليها : « قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووُسّع عليكم فضيقتم ، وأدَرّت عليكم الأرزاق ، فقطعتم أرزاق العباد ، واغتررتم بصفو أيامكم، ولم تتفكروا في عواقبكم ، واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات ، وتهاونتم بسهام الأسحار وهن صائبات ، ولا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها، وأكباد أجعتموها ، وأجساد أعريتموها ، ولو تأملتم في هذا حق التأمل لانتبهتم ، أوَما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقي ، فكفى بصحبة ملك يكون في زوال ملكه فرح للعالم ، ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى

منهم أحد ، ويبقى المنتظر به ، افعلوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا بالله مستجيرون ، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فإنا بالله واثقون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

قالوا : وقد بقي الإخشيد بعد سماع هذه الرقعة في فكر ، وسافر الى دمشق فمات فيها سنة ٣٣٤ ولم تطل دولته غير سنتين ، فهو في الحقيقة مؤسسها سنة ٣٢٣ وأيام حكمه من حيث المجموع كانت إحدى عشرة سنة سافر فيها خمس مرات من مصر الى أعداء يقاتلهم . لما زحف عليه سيف الدولة بن حمدان فخف إليه واقتتلا بقنسرين ثم اصطلحا وتصاهرا وتقاربا .

وفي أواخر أيام الإخشيديين (٣٥٢) خرج في برية الشراة خارجي من بني سليم يسمى محمد بن أحمد السلمي ، واجتمع إليه خلق كثير من العرب ومن غيرهم ومن أهل الطمع ، وقوي أمره وكثر جمعه ، فبلّغ كافور الإخشيد خبره وكان الشام يومئذ بيده ، فأنفذ عسكراً خوفاً من حادث يحدث ، وتقدم الى أصحابه أن لّا يبتدئوه بحرب ولا قتال ، وطال مقامه وإياهم على تلك الحال ، فأسرى إليه في بعض الليالي رجل من العرب يعرف بثمال الخفاجي من بني عقيل وأخذه أسيراً وحمله الى مصر فشهر بها راكباً فيلاً ، واعتقل مدة ثم عفي عنه وخلي سبيله .

ولما تفرد كافور بالأمر (٣٥٥) جعل الحسن بن عبيد الله بن طغج على الشام مستخلفاً من قبله ، وكان في بيت المقدس وال يعرف بمحمد ابن إسماعيل الصنهاجي اضطهد بطريق القدس ، وكان أبىً مقابلته فهجم عليه الوالي في أشياعه وأحرق أبواب كنيسة القيامة ، وسقطت قبتها ، ونهبوا كنيسة صهيون وأحرقوها . قال ابن بطريق : وهدم اليهود وخربوا أكثر من المسلمين ، ثم قتل البطريق ولما مات كافور (٣٥٦) ونصب مكانه أحمد بن علي الإخشيد ، وكان عمره إحدى عشرة سنة ، على أن يخلفه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج وكان بالشام ، فوقع الخلاف بين الإخشيدية ، وصار كل واحد يتسمى بالأمير وكثر التحاسد، فكتب جماعة منهم الى المعز الفاطمي صاحب المغرب يستدعون منه إنفاذ

جيشه الى مصر ليتسلمها ، وضمنوا له المعونة ، وعلى هذا انتهت أيام الإخشيديين .

الدولة الحمدانية :

بعث الخليفة العباسي محمد بن رائق لينقذ الشام ومصر من الإخشيد محمد بن طغج ، فلم يضرب ابن رائق ابن طغج ضربة قاسية ، واكتفى بأن ترك له مصر الى الرملة ، رملة فلسطين (٣٢٩) وقعد في القسم الأكبر من الشام — مقابل جزية سنوية قدرها مئة وأربعون ألف دينار — أميراً يحاول أن يقيم له فيه دولة ، عصى بالشام فقام يناجزه ناصر الدولة ابن حمدان القتال ، وكان هذا استأثر بالموصل والجزيرة ، فقتل ابن رائق (٣٣٠) وكتب بالأمر الى الخليفة المتقي بالله ، فحل ذلك من نفسه محلاً عظيماً ، ولقبه ناصر الدولة ولقب شقيقه علياً سيف الدولة وهذا هو صاحب الدولة التي اشتهر أمرها في حلب وما إليها . وبنو حمدان بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية .

سار سيف الدولة (٣٣٣) الى حلب فلقي فيها يأنس المؤنسي ، ففارقها يأنس ، واستأمن إليه في قطعة من الجيش ، فاستولى عليها سيف الدولة ، وسار الى دمشق وأقام الدعوة للمستكفي ولأخيه ولنفسه . فخلع المستكفي على سيف الدولة وعلى الإخشيد لأن هذا أقام الخطبة له بمصر وما تحت حكمه من الأصقاع . ولما بويع للمطيع بالخلافة سار مع الإخشيد وابن حمدان بسيرة المستكفي على قدم التوازن السياسي ،فكتب الى الإخشيد بالتقليد،فتكافأ الإخشيد وسيف الدولة ، وهدأت الفتن واستقامت الطرق .

ولما بلغ الإخشيد أن سيف الدولة سار الى حمص جرد عسكراً كبيراً وجعل عليه أربعة قواد ، فساروا الى دمشق وعبوا عساكرهم ، ثم ساروا الى حمص ، فالتقوا مع سيف الدولة بالرَّستن من أرض حمص فهزمهم سيف الدولة ، فعادوا الى دمشق ثم خرجوا عنها يريدون الرملة ، ثم قصدوا الى مصر وسار سيف الدولة في إثرهم يريد دمشق ، وكتب الى

جماعة الأشراف والعلماء والأعيان والمستورين كتاباً قرىء على منبر جامعها وفيه :

وقد علمتم أسعدكم الله ، تشاغلي بجهاد أعدائي وأعداء الله الكفرة ، وسبيهم وقتلي فيهم ، وأخذي أموالهم ، وتخريبي ديارهم ، وقد بلغكم خبر القوانين (؟) في هذه السنة ، وما أولانا الله وخولناه ، وأظفرنا به ، واستعملت فيهم السُّنّة في قتال أهل الله فما أتبعت مدبراً ، ولا ذففت على جريح ، حتى سلم من قد رأيتم ، وقد تقدمنا الى وشاح بن تمام بصيانتكم وحفظكم ، وحوط أموالكم ، وفتح الدكاكين ، وإقامة الأسواق ، والتصرف في المعاش ، الى حين موافاتنا إن شاء الله .

كتب الرجحان لجيش سيف الدولة على جيش الإخشيدية ، وسار كافور بعساكر مولاه الى مصر. فأقام سيف الدولة بدمشق وجبى خراجها ، وجعل يطالب أهلها بودائع الإخشيد وأسبابه ، وكان أحداث دمشق قد نهبوها في يوم موت الإخشيد ، وظن ابن حمدان أن الأمر تم له فجمع الى ملكه في الجزيرة ملك الشام ، وربما تطالّ بعد ذلك الى مصر ولم يعرف ما خبأته له الأقدار حتى زحزحته عن ملك دمشق ، واقتصرت دولته على حلب وما إليها . وذلك أنه اتفق أن كان يسير هو والشريف العقيقي بضواحي دمشق ، فقال سيف الدولة : ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد . فقال له العقيقي : هي لأقوام كثيرة فقال سيف الدولة : لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرأوا منها .

فأعلم العقيقي أهل دمشق بذلك ، فكاتبوا كافوراً يستدعونه من مصر ، فجاءهم ومعه أنوجور بن الإخشيد فخرج سيف الدولة الى اللَّجون ، وأقام أياماً قريباً من عسكر الإخشيدية بقرية أكسال وكان في خمسين ألفاً ، وتفرق عسكر سيف الدولة في الضياع لطلب العلوفة ، فعلم به الإخشيدية فرجعوا ، وركب سيف الدولة فرآهم زاحفين في تعبية ، فعاد الى عسكره فأخرجهم فنشبت الحرب فقتل من أصحابه خلق وأسر كذلك ، وانهزم سيف الدولة الى دمشق وسار من حيث لم يعلم أهل دمشق بالوقعة (٣٣٥) وجاء الى حمص وجمع جمعاً لم يجتمع له قط مثله من بني عقيل وبني نمير وبني

كلب وبني كلاب ، وخرج من حمص ، وشَخَص عساكر الإخشيدية من دمشق ، فالتقوا بمرج عذراء على ساعتين من دمشق ، وكانت الوقعة أولاً لسيف الدولة ثم آخرها عليه ، فانهزم وملكوا سواده ، وتقطع أصحابه فهلكوا وتبعوه الى حلب فعبر الرقة .

لم يستطع سيف الدولة بعد وقعة أكسال ومرج عذراء أن ينال من الإخشيدية ، وبقيت لهم دمشق وما وراءها حتى مصر لأن أهل دمشق خافوا من مصادرات سيف الدولة ، يوم طالبهم بودائع الإخشيد وأحب أن يملك غوطتهم ، فقلبوا له ظهر المجن ، ولم يغنه جيشه العظيم لانصراف القلوب عنه ، فاقتضى له أن يقاتل جيشين: جيش الطامعين في تلك الديار وجيش البلاد نفسها ، وظلت حلب لسيف الدولة لأنه لم يأت فيها بادىء بدء ما أتاه من أفعال الظلم . وحلب أقرب الى مهد عصبيته وهي الثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار بكر . واصطلح سيف الدولة والإخشيد وصاهره وتقرر لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية ، ومن الأحداث في هذه الحقبة أن شبيب بن جرير العقيلي تقلد عمان والبلقاء وما بينهما من البر والجبال — على عهد كافور فعلت منزلته واجتمعت إليه العرب وكثرت حوله وسولت له نفسه أخذ دمشق والعصيان بها،فسار إليها في نحو عشرة آلاف وقاتله أهلها وسلطانها واستأمن إليه جمهور الجند الذين كانوا بها وغلقت أبوابها،فنزل بعض أصحابه على الثلاثة الأبواب التي تلي المصلى يشغلهم بهم،ودار هو حتى من الحميريين على القنوات حتى انتهى الى باب الجابية وحال بين الوالي وبين المدينة ليأخذها فهلك وانهزم أصحابه لما رأوا مصرعه فخالفوا الى الموضع الذي دخلوا منه فأرادوا الخروج منه فقتل أربعمائة فارس وبضعة عشر . وكانت علائق الإخشيديين كصلات الحمدانيين اسمية مع خلفاء بغداد ، واشتهر الإخشيديون وهم عجم بشحهم ، والحمدانيون العرب بكرمهم ، وكان الإخشيديون من أهل السنة ، والحمدانيون يرون رأي الشيعة .

مغازي سيف الدولة :

كان سيف الدولة يحمل بين جنبيه نفساً عظيمة ، ولطالما حارب الروم وغزاهم ، ومن الأحداث في أيامه إحراق حصن فامية سنة ٣٣٨ نازله الدوقس في ثلاثين ألفاً وحاصره سبعة أشهر وأشرف على أخذه فدفعه عنه صمصامة والي دمشق فقتل الدوقس وقتل من عسكره أربعة عشر ألفاً وأُسر منهم خلق كثير وكسروا بعد أن ظهروا . ومنها أخذ سيف الدولة حصن برزويه من الأكراد بعد أن قاتلهم مدة . وفي السنة التاليـة خرج بسيل ملك الروم الى الشام وفتح شيزر بالأمان لقلة رجالها . وفي سنة ٣٤٥ سار سيف الدولة الى الروم فغنم وسبى وفتح عدة حصون ورجع الى أذنة فأقام بها ثم ارتحل الى حلب . ومن غزواته غزوة سنة ٣٤٩ ، أوغل في الروم وفتح حصوناً ، فلما أراد الخروج من أرضهم أخذوا عليـه الدرب الذي أراد الخروج منه ، فقطعوا الأشجار وسدوا بها الطرق ودهدهوا الصخور في المضايق على جيشه ، والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون . وكان مع سيف الدولة أربعمائه أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم ، وعقر جماله وكثيراً من دوابه . وأحرق الثقل وقاتل قتال الموت ونجا في نفر يسير قيل في ثلاثمائة من غلمانه ، واستباح الدمستق أكثر الجيش وأسر الأمراء والقضاة ، ووصل سيف الدولة الى حلب ولم يكد ، وكان جيشه ثلاثين ألفاً . وأرسل الدمستق الى سيف الدولة يطلب الهدنة فلم يجبه إليها مع ما حلّ به منـه ، ثم جهز سيف الدولـة جيشاً فدخلوا بلد الروم من ناحيـة حران فغنموا وأسروا ، وغزا أهل طرسوس أيضـاً في البر والبحر ، ثم سار سيف الدولة من حلب الى آمد (ديار بكر) فحارب الروم وخرب الضياع . قال مسكويه في وقعة ٣٤٩ : وخرج أهل طرسوس من طريق آخر فسلموا ، والسبب في سلامتهم ومصـاب سيف الدولة ، أن هذا الرجل كان معجباً ، يحبُّ أن يستبد برأيه ، وألا تتحدث نفسان أنه عمل برأي غيره ، وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم ، لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذي يريد الخروج منـه

وشحنوه بالرجال ، فلم يقبل منهم ولجّ فـأصيب المسلمون بأرواحهم ، وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه .

وأغار الروم مرة على أطراف الشام فسبوا وأسروا ، فساق وراءهم سيف الدولة ولحقهم فقتل منهم مقتلة واسترد ما أخذوه . واستولى الروم سنة ٣٥١ على حلب دون قلعتها وعلى الحواضر ، وحصروا المدينة وثلموا السور ، وقاتل أهلها الروم أشد قتال فتأخر الروم الى جبل جوشن ، ثم وقع بين الحلبيين نهب فلم يبق على السور أحد ، فهجم الروم على البلد وفتحوا أبوابه وأطلقوا السيف وسبوا بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا كثيراً وأحرقوا ما بقي . وكان سيف الدولة غائبـاً وقاتل الدمستق عند عودته فقتل غالب أصحابه ، وظفر الدمستق بدار سيف الدولة في الدارين من أرض حلب فأخذ منها ثلاثمائة وخمسين بدرة [١] من الدنانير ما عدا السلاح والدواب . وكانت عدة عسكر الروم مـائتي ألف رجل منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن [٢] ، وثلاثون ألفاً للهدم وإصلاح الطرق من الثلج، وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد . وفي رواية أن جيش الروم كان ثمانين ألف فارس ما عدا السواد وهو كثير جداً ، وأن سيف الدولة نادى في حلب من لحق بالأمير فله دينار ، وأنه انهزم الى ناحية بالس بعد أن قتل من جيشه من أهل حلب مدة ستة أيام جملة كثيرة من الناس . قال الذهبي : وقتلوا الأسرى ثم عادوا الى القلعة فـإذا طلائع قد أقبلت نحو قنسرين ، وكانت نجدة للروم ، فتوهم الدمستق أنها نجدة لسيف الدولة فترحل خائفاً .

وفي سنة ٣٥٥ سار صاحب الروم الى الشام فعاث وأفسد ، وأقام به نحو خمسين يوماً فنزل على منبج وأحرق الرَّبض وخرج إليه أهلهـا ، فأقرهم ولم يؤذهم ، ثم سار الى وادي بُطنان وسار سيف الدولة متأخراً الى قنسرين ، وقد ضيق رجاله والأعراب الخناق على الروم ، وأخذت

(١) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار .

(٢) الجواشن : الدروع .

الروم أربع ضياع بما حوت ، فراسل سيف الدولة ملك الروم وبذل له مالاً يعطيه إياه في ثلاثة أقساط فقال : لا أجيبه إلا أن يعطيني نصف الشام ، فإن طريقي الى ناحية الموصل على الشام . فقال سيف الدولة : لا أعطيه حجراً واحداً . ثم جالت الروم بأعمال حلب ، وتأخر سيف الدولة الى ناحية شيزر ، وأنكب العرب في الروم غير مرة وكسبوا كثيراً، ونزل عظيم الروم على أنطاكية يحاصرها ثمانية أيام ثم رحل عنها .

قل المنتقضون على سيف الدولة لبطشه،وممن خالفه بنو كلاب (٣٤٣) فحاربهم وكان اصطنعهم حتى استطالوا على العرب،وأوقع ببني عقيل وقشير وبني العجلان وبني كلاب حين عاثوا في عمله وخالفوا عليه . وهذه الغزوات تعد في باب المناوشات لا الحروب مثل غزوة سيف الدولة للمبرقع الذي دعا الناس الى نفسه ، والتفت عليه القبائل ، وافتتح مدائن من أطراف الشام وأسر أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان ، وهو خليفة سيف الدولة على حمص ، وألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل وجملة من المال ، فأسرى سيف الدولة من حلب حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق فأوقع به ووضع السيف في أصحابه فلم ينج إلا من سبق فرسه ، وعاد سيف الدولة الى حلب ومعه أبو وائل وبين يديه رأس الخارجي على رمح . وممن خالفه أهل أنطاكية سنة ٣٥٤ وعليهم رشيق النسيمي فسار الى جهة حلب وحاصر قلعتها ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، وقاتل قرعويه غلام سيف الدولة وعامله قتالاً شديداً ، وكان هذا بميافارقين ، فأرسل عسكراً مع خادمه بشارة فقتل رشيق وهرب أصحابه الى أنطاكية ، ولما عاد سيف الدولة اجتمع على حرب ابن الأهوازي والديلمي اللذين قاما مقام رشيق،فقتل هذا الثائران،وقتل من ولاتهما وقضاتهما وشيوخها خلق .

وذهب قرعويه الى أنطاكية فجرت بينه وبين الديلمي وقعة انهزم فيها قرعويه وعاد الى حلب ، وسار الديلمي في أثره الى حلب ، فلقيه أصحاب قرعويه ودفعوه الى أنطاكية . قال ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٣٥٥: إن أهل أنطاكية خرجوا عن طاعة سيف الدولة لاشتغاله بنفسه ، فتفرغ لهم وقاتلهم قتالاً شديداً ثم انتصر وأسر خلائق من أهلها ، فصادر أعيانهم

وأخذوا خطوطهم بأموال عظيمة وقتل خلقاً منهم ، حتى قيل : إنه قتل نحو خمسة آلاف رجل ، وكتب الى ولده أبي المعالي كتاباً يبشره بذلك وقال فيه : ما شاهدت عسكراً ، على كثرة مشاهدي للحرب ، استولى على جميع رؤسائه وأتباعه مثل هؤلاء ، ولا غنم عسكر مثل ما غنم منهم.

وسار ملك الروم بجيوشه الى الشام (٣٥٥) فعاث وأفسد ، وقيل: إن أهل أنطاكية راسلوه وبذلوا له الطاعة وأن يحملوا إليه مالاً ، وكان الذي حركه وأحنقه إحراق بيعة القدس ، وكان البطريق كتب الى كافور صاحب مصر يشكو قصور يده عن استيفاء حقوق البيعة ، فجاءه من الناس ما لم يطق دفعه وقتل البطريق ، وأُحرقت البيعة وأخذوا زينتها ، فراسل كافور ملك الروم بأن يرد البيعة الى أفضل ما كانت فقال : بل أنا أُعيدها بالسيف . فلما خرج ملك الروم أصعد سيف الدولة أهل المدينة الى قلعة حلب ، وأنجفل الناس وعظم الخطب ، وأُخليت نصيبين ، ونزل صاحب الروم على منبج وأحرق الربض ، وخرج إليه أهلها فأقرهم ولم يؤذهم ، وأنكت العرب في الروم غير مرة وكسبوا ما لا يوصف، وحاصر الروم أنطاكية ثمانية أيام ليلاً ونهاراً ، وبذل الأمان لأهلها فأبوا فقال : أنتم كاتبتموني ووعدتموني، فردوا عليه رداً قبيحاً وحاربوه أشد حرب .

محاسن سيف الدولة ومقابحه :

توفي سيف الدولة بن حمدان سنة ٣٥٦ بعد أن غزا الروم أربعين غزوة له وعليه ، فحفظ بغزواته بيضة العرب والإسلام ، ولولاه لتقدم الروم في الشام ، وربما استصفوها كلها بعد ما ثبت من ضعف العباسيين . وكان جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله لبنة بقدر الكف ، وأوصى أن يوضع خده عليه في لحده فنفذت وصيته في ذلك . ترجمه الأزدي بقوله : « كان معجباً برأيه ، محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً في السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه ، والعجب بآرائه ،

سعيداً مظفراً في حروبه ، جائراً على رعيته ، اشتد بكاء الناس عليه ومنه ».

نعم كان سيف الدولة جائراً على رعيته يخرب قرية ليجيز شاعراً ، ولما تربع في دست الملك بحلب استكثر من القصور له ولآله وقواده ، وجعلها كحضرة بني العباس كعبة العلم والأدب ، فوافاه الشعراء والعلماء من الأقطار ، وكان كريماً مفضلاً خصوصاً على مداحه . ينفق نفقات طائلة على علماء بغداد ومهاداة وزرائها وأرباب النفوذ فيها ، فكان حماته في دار الخلافة كثاراً استمال بهم الرأي العام البغدادي ، فرضي الخلفاء ولم يخالفوه لأنه أبقى لهم الخطبة وإن ضرب السكة باسمه .

ولقد استحل سيف الدولة للقيام بهذه الأبهة الضخمة في مملكته الصغيرة مصادرة رعيته،فكان قاضيه أبو الحصين يقول : « كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك » ولذلك كثرت مصادرة كل غني من التجار وغيرهم ، فخربت الأصقاع الشمالية في أيامه . وذكر المؤرخون أن أبا الحصين الرقي قاضي حلب قتل في إحدى المعارك ، فداسه سيف الدولة بحصانه وقال : « لا رضي الله عنك فإنك كنت تفتح لي أبواب الظلم » . على أن هذا لا ينجي سيف الدولة من المؤاخذة لأنه كان يتيسر له صرفه عن القضاء، وليس أبو الحصين من أرباب العصبيات، حتى يخافه . ومن كثرة مظالم سيف الدولة أن بني حبيب وهم أبناء عم بني حمدان ، كانوا ينزلون نصيبين « فأكبّ عليهم بنو حمدان بصنوف الجور،حتى خرجوا بذراريهم في اثني عشر ألف فارس الى الروم . وتنصروا بأجمعهم ، ثم عادوا الى بلاد الإسلام على بصيرة بمضاره ، وعلم بأسباب فساده وقلوبهم تضطرم حقداً » على ما قال ابن حوقل،وأخذوا يخربون القرى في الجزيرة والشام وأطمعوا صاحب الروم بأنطاكية وحلب .

وكانت لسيف الدولة طرق غريبة في الرحمة،من ذلك أنه سار مرة بالبطارقة الذين في أسره الى الفداء، وكان في أسر الروم ابن عمه أبو فراس وجماعة من أكابر الحلبيين والحمصيين فأخذ بالفداء ، ولما لم يبق معه من أسرى الروم أحد اشترى الباقين كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتى نفد ما معه من المال ، فاشترى الباقين ورهن عليهم بدنته (درعه) الجوهر المعدومة

المثل . ثم لما لم يبق أحد من أسرى المسلمين كاتب نقفور ملك الروم على الصلح . قال ابن الوردي : وهذه من محاسن سيف الدولة . ومن حسناته أنـــه أنفق في سنة ٣٥٥ على فداء الأسرى خمسمائة ألف دينار ، وكان ورث هذا المبلغ من أخته .

وذكر المؤرخون أنه كان يقف على مائدة سيف الدولة أربعة وعشرون طبيباً ، لينصحوا له بتناول ما ينفع مزاجه ، وأنه كان من أهل الأدب وغيرهم من يتناول رزقين وثلاثة . وفي باب كرمه واسرافه غرائب، منها أنه أنفق تسعمائة ألف دينار في جهاز ابنته وعرسها، وضرب دنانير في كل دينار ثلاثون ديناراً وعشرون وعشرة. قال الأزدي: ويقال إنه جاد بما لم يجد به أحد . قالوا: إنه كان لا يملك نفسه ، ويجود بكل ما لديه إذا قصده من يريد إكرامه ، كل هذا على ما فيه من المفاخر يحمل في مطاويه الظلم وإعنات الرعية . فسيف الدولة ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وحسناته أكثر .

ابتداء الدولة الفاطمية :

كان كافور آخر ملوك الإخشيديين مملوكاً حبشياً ذا عقل ودراية وحسن إدارة ، استولى بالفعل عـــلى زمام الحكم في مصر والشام على عهد أبـي القاسم أنوجور محمود وأبـي الحسن علي ، ولدي محمد بن طغج الإخشيدي رأس الدولة الإخشيدية ، ثم تولاه مستقلاً بنفسه ، وقـــام بالأمر بعده أبو الفوارس أحمد ، بمعنى أن الدولة الإخشيدية امتدت أربعاً وثلاثين سنة من سنة ٣٢٣ الى ٣٥٧ ولمـــا آذنت شمسها بالأفول انتشرت الفوضى في المملكة ، فرأى عقلاء مصر أنه لا ينجيها مما صارت إليه إلا إلقاؤها في أحضان دولة قوية فتية تنقذ الأمة من بلائها ، وكـــان للقائم بالدولة الفاطمية أو العُبَيدية التي نشأت في المغرب وامتد سلطانها هوى في هبوط مصر ففاوضوه في أمرها ، وكان حاول غير مرة أن يستولي عليها فرده عنها جيش بني العباس .

وبلغ المعز الفاطمي اختلاف الأهـــواء وتفرق الآراء ، فجهز العسكر

إليها بإشارة المصريين ، فهربت العساكر الإخشيدية من القائد جوهر الذي جاء مصر في مئة ألف محارب وألف وخمسمائة جمل تحمل الذهب والفضة، واتفق أن ورد القرامطة الى دمشق ، وأتوا عليها وعلى سائر أعمالها ، وساروا الى الرملة ولقيهم الحسن بن عبيد الله بن طغج ، ووقع بينهم حرب عظيمة بظاهر الرملة في ذي الحجة سنة ٣٥٧ ، فانهزم ابن عبيدالله من الشام ودخل الى مصر ، فاستولت القرامطة على الرملة واستباحوها ، فقاطعهم أهلها على مائة وخمسة وعشرين ألف دينار ، شروا بها أنفسهم منهم وأخذوا من أعمالهم بشراً كثيراً . وإذ رأى الروم أن مصر قد عبثت بها الفوضى ، وأن الشام في ضعف ووهن ، أغاروا على الشام (٣٥٨) فقتلوا وسبوا في حمص والثغور وقتلوا خلائق وسبوا نحو مائة ألف إنسان ، وخاف المسلمون ، ولم يشكوا في أن الروم يملكون الشام ومصر والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع عن المانع . فأقام جوهر الخطبة للمعز الفاطمي . قال المسبّحي : لما استقر المعز بمصر انفرد بها ولم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية وادعى الخلافة لنفسه بمصر وقال : نحن أفضل من الخلفاء العباسية لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله . ولما استقرت قدم جوهر بمصر ، سير جمعاً كثيراً مع جعفر بن فلاح الى الشام فبلغ الرملة وبها الحسن بن عبيد الله بن طغج ، وجرت بينهما حرب أسر عقيبها ابن طغج واستولى جعفر على فلسطين ، وجبى أموالها ثم سار الى طبرية ، فوجد أهلها قد أقاموا الدعوة للمعز قبل وصوله ، فجهز منها من استمال من بني مرة وفزارة لحرب بني عقيل بحوران والبثنية وأردفهم بعسكر من أصحابه ، فواقعوا بني عقيل وهزموهم الى أرض حمص ، وسار هو من طبرية الى دمشق ، فقاتله أهلها فظفر بهم وملكها بعد فتن وحروب ونهب بعضها وأحرق الآخر . وأقام الخطبة للمعز سنة ٣٥٩ وقطعت الخطبة العباسية ، واستقرت دمشق للمعز الفاطمي . وأصبح بنو عبيد الفاطميون خلفاء مصر والشام والمغرب .

وكان رئيس الثورة بدمشق سيدها وصدرها في عصره أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي العباسي . فأخذه جعفر بن فلاح وشدّه على جمل ،

وفوق رأسه قلنسوة . وفي لحيته ريش ، وبيده قصبة وبعث به الى مصر . وضرب الفاطميون على دمشق دية عم الناسَ البلاء في جبايتها ، وتطلب حمال السلاح فظفر بقوم منهم ، وضرب أعناقهم وصلب جثثهم ، وعلق رؤوسهم على الأبواب .

وفي سنة ٣٦٠ أنفذ جعفر غلامه فتوحاً على عسكر الى أنطاكية ، وكان لها في أيدي الروم نحو من ثلاث سنين ، وسير الى أعمال دمشق وطبرية وفلسطين فجمع منها الرجال ، وبعث عسكراً بعد عسكر الى أنطاكية ، وكان الوقت شتاء فنازلوها حتى انصرم الشتاء وهم مُلِحُّون في القتال ، فلم يظفر بطائل ، وانهزم عسكره آخر الأمر وقتل منهم كثيرون . وبلغ جعفر بن فلاح مسير القرامطة الى الشام وقد أمدّهم صاحب بغداد لقتال جيش الفاطميين فاستهان بهم وواقعهم . فانهزم منهم قرب دمشق وقتل في المعركة ، وملك القرامطة دمشق وأمنوا أهلها ثم ساروا الى الرملة فملكوها واجتمع اليهم كثير من الإخشيدية . قتل القرامطة جعفر بن فلاح مخافة أن يفوتهم حمل المال الذي كان تقرر بينهم وبين ابن طغج ، وهو ثلاثمائة ألف دينار في السنة ، وساروا يريدون الرملة ، وعليها سعادة بن حيان فالتجأ الى يافا ، ونزل عليه القرمطي ، وقد اجتمعت إليه عرب الشام فناصبها القتال حتى أكل أهل المدينة الميتة وهلك أكثرهم جوعاً ، وسير جوهر من مصر نجدة الى أصحابه المحصورين بيافا ، ومعهم ميرة في خمسة عشر مركباً ، فأرسل القرامطة مراكبهم إليها فأخذوا مراكب جوهر ولم ينج منها غير مركبين غنمتها مراكب الروم .

اصطلح قرعويه (٣٦٠) مولى سيف الدولة بن حمدان متولي حلب وأبا المعالي شريف بن سيف الدولة ، فخطب له قرعويه بحلب ، وخطبا في معاملتيهما للإمام المعز الفاطمي بحلب وحمص . بمعنى أن بني حمدان وهم شيعة أسرعوا في نزع أيديهم من أيدي العباسيين ، ووضعوا أيديهم في أيدي الفاطميين الشيعة ، بيد أن الفاطميين لم يجدوا نصيراً قوياً في الشام ، لأن السواد الأعظم من أهل السنة والجماعة كانوا يخالفونهم في مذهبهم ، وقد بلغهم ما صارت إليه مصر من تغيير مذهب أهلها ومصطلحهم في

أذانهم وصلواتهم ، فشق عليهم ذلك وعزموا أن يقفوا للفاطميين بالمرصاد. ومن ذلك ما وقع سنة ٣٦١ من التقاء سعد أمير عرب الشام بحسان بن جراح الطائي في عربه ، واتفقا على أن ينتزعا حكم مصر من الشام ، وكان جيش المعز حارب عرب الشام في حوران حرباً دامية ، فأرسل المعز الى حسان ووعده بمائة ألف دينار إن خذل أمير الشام . ولما دارت الحرب بينهما انهزم حسان بالعرب فضعف جانب سعد وقوي عليه المعز وكسره . وقطعت خطبة المعز من دمشق أيام القرامطة وبقيت الى أن استردها سنة ٣٦٣ وأرسل المعز قائده ظالم بن موهوب والياً على دمشق فعظم أمره وكثرت جموعه ثم وقع بينه وبين أهلها فتن دامت الى سنة ٣٦٤ .

وتفصيل ذلك أن المعز سير القائد أبا محمود يتبع القرامطة فنزل بظاهر دمشق ، وأمتدت أيدي أصحابه بالعيث والفساد وقطع الطرق ، فاضطرب الناس وخافوا ، فوقعت فتنة عظيمة بين عسكره وبين العامة ، وجرى بين الطائفتين قتال شديد وظالم بن موهوب مع العامة ،فأحرق جانب من المدينة وهلك جماعة من الناس ، وعادت الفتنة بعد أن اصطلح المتقاتلون الى شدتها بينهما (٣٦٤) واتفقوا على إخراج ظالم من البلد ، ووليه جيش بن الصمصامة ، وعاد المغاربة أي جيش الفاطميين وعاثوا وأفسدوا فثار العامة وقاتلوهم ، ثم زحف جيشه في العسكر الى البلد وقاتله أهله فظفر بهم وهزمهم ، وأحرق من المدينة ما كان سلم ، ودام القتال بينهم أياماً،فاضطرب الأهلون وخافوا وخربت المنازل وانقطعت المواد ، وانقطع الماء والميرة عن البلد ، وهلك الفقراء على الطرقات جوعاً وبرداً ، ووصل الخبر الى المعز فأنكر ذلك واستبشعه ، فأرسل الى القائد ريان الخادم والي طرابلس يأمره بالسير الى دمشق لمشاهدة حالها وكشف أمور أهلها .

واتفق أن أفتكين غلام عضد الدولة انهزم في خلال هذه الأيام من المدائن فنزل على حمص في طائفة من الترك والأعراب ، وكان الأحداث قد غلبوا على دمشق وليس للأعيان معهم حكم ، فخرج أشرافها وشيوخها يظهرون السرور بمقدم أفتكين ويبايعونه على الطاعة لينقذهم من المصريين ، فنزل على دمشق وأخذها من ريان الخادم ، وأقام العدل في الناس وكف

أيدي الأعراب الذين كانوا عاثوا في الأرض فساداً ، وأخذوا عامة المرج والغوطة ، ودخل البلد وخطب للطائع العباسي ، وأبان في جميع مواقفه عن شجاعة وقوة نفس وحسن تدبير ، فأذعنت له العرب ، وأقطع الأرضين ، وكثر جمعه ، وتوفرت أمواله وثبتت قدمه ، وكاتب المعز يداريه ويظهر له الانقياد .

دور الفاطميين

« من سنة ٣٦٤ ـ ٣٩٤ »

الدول الثلاث وغزوات الروم :

تقلبت على الشام ثلاث دول في مُدَد متقاربة ، وهي الإخشيدية والحمدانية والعبيدية . انبثقت الدولتان الأوليان من أصل الدولة العباسية، بمعنى أن الإخشيديين والحمدانيين كانوا كالطولونيين من عمال العباسيين ، قوي أمرهم فاستبدوا بالشام . وأنشأوا لهم ملكاً لم يتعاقب فيهم عدة بطون وأجيال . أما دولة العبيديين فعلى خلاف هذا ، كانت دولة شيعية قامت سنة ٢٩٦ بالمغرب ، وأول من ولي منهم أبو محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، دعا الدعاة أولاً بالمغرب الى محمد والد المهدي عبيدالله وكان أولاً بسَلَمْيَة من الشام، ولما توفي أوصى الى ابنه عبيد الله المهدي وأطلعه على حال الدعاة . وشاع ذلك في أيام المكتفي فطُلب فهرب عبيد الله وابنه أبو القاسم محمد الذي ولي بعد المهدي وتلقب بالقائم، وتوجها نحو المغرب ونزل تاهرت ، وعظم شأنه في القبائل واستجابت لدعوته ، وملك ومن بعده معظم شمالي إفريقية وجزائر البحر المتوسط مثل صقلّية وساردنية ومالطة وغيرها . والخليفة المعز الذي فتح مصر والشام هو رابع خلفائهم .

نشأت الدولة العبيدية أو الفاطمية أو العلوية كالدولتين الأموية والعباسية

بالشام،وقامت بالمغرب،ونمت في مصر، وماتت فيها . ولم تكن على نسبة تينك الدولتين بقوة سلطانها وتأثيراتها ، ولذا ظلت دولة أخرى في أقصى الشام تقاسمها السلطة ، وهي الدولة الحمدانية ، اتفقت معها سياسةً اتفاقها معها مذهباً .

وفي سنة وفاة كافور (٣٥٧) جرت بين فنك بن عبد الله مولى كافور الإخشيدي ، وكان جهزه مولاه لأخذ دمشق ثانية ، وبين أهل هذه المدينة مناوشة وقتال وإحراق ونهب ، وبلغه خبر الروم وأخذهم حمص فنادى في دمشق بالنفير الى ثنية العقاب بسبب الروم فخرج الناس الى دومة وحرستا وانتهز الفرصة في خلو دمشق ورحل عنها وتوجه بأثقاله نحو عقبة دمر متوجهاً الى الساحل ، فنهب أهل دمشق بعض أثقاله وقتلوا من بقي من رجاله .

لما هلك كافور وهلك سيف الدولة وتولى الفاطميون أمر مصر وفتحوا الشام بقي سعد الدولة (٣٥٦) ابن سيف الدولة في مملكة حلب ، ولم يكن كأبيه عقلاً وتدبيراً فعصى عليه جند حلب سنة ٣٥٧ ، فنازلها وبقي القتال عليها مدة واستولى الرعيلي على أنطاكية،وجاءت الروم فنزلوا عليها وأخذوها وهرب الرعيلي من باب البحر هو وخمسة آلاف إنسان ناجين بأنفسهم من الروم ، فأسر هؤلاء أهل أنطاكية وقتلوا أناساً من أكابرها . وقال عظيم الروم لما ضيقوا عليه : أرحل وأخرب الشام كله وأعود اليكم من الساحل ، ورحل في اليوم الثالث ونازل معرة مصرين ، فأخذها وغدر بهم وأسر منهم أربعة آلاف ومائتي نسمة ، ثم سار الى عرقة فافتتحها ، ثم سار الى طرابلس فأخذ ربضها ، وأقام في الشام أكثر من شهر ورجع فأرضاه أهل أنطاكية بمال عظيم . وأحرق حمص وقد أخلاها أهلها وملك ثمانية عشر منبراً ، وعاد الى بلاده بالأسرى والأموال .

وقال الأنطاكي : إن نقفور لما توجه الى الشام ، خافه سعد الدولة ، فخرج عن حلب الى بالس ، واستخلف فيها قرعويه الحاجب ، ونزل الملك على أنطاكية وأقام يومين ورحل في اليوم الثالث ، ونزل على معرة مصرين وأمن أهلها من القتل ، وكانت عدتهم ألفاً ومائتي نفس وسيرهم

الى بلد الروم ، وفتح معرة النعمان وحماة وحمص ، وأخذ منها رأس القديس يوحنا المعمداني ، ونزل على طرابلس ، وأحرق ربضها وحاصر مدينة عرقة تسعة أيام ، وكان لها حصن منيع ففتحه بالسيف وأخذ منها خلقاً كانوا التجأوا إليه من الأقاليم المجاورة وأخذ منه مالاً كثيراً ، وكان في الحصن أمير طرابلس أحمد بن نحرير الأرغلي ، وكان أهل طرابلس قد طردوه لجوره ، وكان مأسوراً ومعه مال جزيل ، فأسره وأخذ جميع ماله ، ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها ، وحصل في يده من السبي ما لا يحصى عدده ، وفتح حصن انطرطوس ومرقبة وحصن جبلة، وصالح أصحاب اللاذقية عليها ، وخرب كثيراً من القرى ، وعبر بأنطاكية وميز السبي الذي معه وأعتق عليها من الشيوخ والعجائز زهاء ألف نفس ، وبنى حصن بغراس مقابل أنطاكية في فم الدرب ورتب فيه رئيساً يقال له ميخائيل البرجي ، ورسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته ورتب معه ألف رجل ورجع الى القسطنطينية .

وفي تاريخ العلويين أن اليهود كانوا يقطنون في القرن الرابع في أرجاء صهيون ، وينزل النصارى في اللاذقية،والنصيريّة في الجبل ، ولما استولت الروم على أرجاء اللاذقية في سنة ٣٥٧ شعر العلويون – أي النصيرية – بالتنظيمات الإدارية والعسكرية وأعلنوا الثورة على الروم وكان يرأسهم حسن ابن إسحاق الضلعيني العلوي ففاز واستقل باللاذقية سنة ٣٦٨ ، ثم حكم محمد بن إسحاق التنوخي ثم أخوه إبراهيم .

وفي سنة ٣٥٩ ملك الروم أنطاكية بالسيف ، وقتلوا أهلها وسبوا وقصدوا حلب فتحصن قرعويه بالقلعة ، وملكوا المدينة بعد حصارها ٢٧ يوماً ، ثم اصطلحوا على مال يحمله قرعويه كل سنة وقدره ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض ، وسبعة قناطير ذهب عن خراج حلب وقنسرين وحمص وحماة وجوسية وسلمية والمعرة وكَفَرْطاب وأفامية وشيزر وجبل السماق ومعرة مصرين والأثارب وغيرها ، وعن كل حالم دينار في السنة سوى ذوي العاهات ، وأن يكون لملك الروم صاحب يقوم بحلب يستخرج أعشار الأمتعة الواردة إليها ، فرحلت الروم ومعهم الرهائن على ذلك ،

وقد عقدوا هدنة مؤبدة وصارت الكور سائبة لا مانع للروم عنها ، فطمع نقفور ملك الروم في ملك الشام جميعه ، ولم يعترف سعد الدولة بالمعاهدة التي جرت بين قرعويه وبين الروم ، وظـل في معرة النعمان ، فأخرب الروم حمص حتى يضطروه الى الإذعان ، ولكن جاءته نجدات فعمرها . وفي سنة ٣٦٣ سار أبو محمود بن جعفر بن فلاح الى الشام ، في عسكر يقال إنه عشرون ألفاً ودخل دمشق وتمكن بها ، وغـادر الروم أرض الشام سنة ٣٦٤ بعد أن فتحوا بعلبك وأخربوها وأخذوا جماعة من أهلها وصالحتهم صيدا وافتتحوا بيروت عنوة وسبوها ونهبوهـا ، وجرى مثل ذلك على جبيل . وقاطعوا أهل دمشق على ستين ألف دينار يحملونها إليهم في كل عام ، وكتبوا عليهم بذلك كتاباً وأخذوا فيه خطوط أشرافهم وأخـذوا جماعة منهم رهينة وأنفذوا إليهم صليباً بالأمان فتلقوه بالإكرام . ثم انقطع حمل المال المفروض على الشام للروم ، فأغضوا عن ذلك لاشتغالهم بالحرب في آسيا الصغرى .

وفي سنة ٣٦٥ وصل بارقطاش مولى سيف الدولة الى شريف ابنه وهو بحماة من حصن برزويه وخدمه وعمر له حمص بعد خراب الروم، وتقوى بكجور مولى قرعويه ونائبه ، وقبض على قرعويه بحلب وحبسه بالقلعـة واستولى عـلى حلب ، فكاتب أهلها أبا المعالي شريفاً فجاءهم ، وأنزل بكجور بالأمان وولاه حمص واستقر أبو المعالي بحلب . ومن الأحداث في هذا الزمن أن وشاح السلمي ولي إمارة دمشق من قبل الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم ، وكـان الوالي إذ ذاك بها صالح بن عمير العقيلي البدوي فخرج صالح عنها ، فلما رجعت القرامطة الى الأحساء رجع صالح بن عمير الى دمشق وتعصب له أحداثها فأخرجوا وشاحاً عنها قهراً وسلموها الى صالح (٣٦٨) . ومنها أن بسيل الملك ردّ ولاية اللاذقية الى كرمروك لشنه الغارة على طرابلس وما يليها وقتله وأسره من أهلهـا ومن المغاربة خلقاً كثيراً . وورد عسكر المغاربة الى عمل أنطاكية مع أمير لهم يعرف بالصنهاجي ، فاستظهر عليه كرمروك وقتل جماعة من أهله ، فسار نزال وابن شاكر من طرابلس الى اللاذقية (٣٧٠) وحاصر حصنها

وسار الدمستق (الدومستيقس) الى حلب (٣٧١) ووقع الحرب على باب اليهود في اليوم الثاني من نزوله . وطالب سعد الدولة بمال الهدنة على أن يحمل للروم في كل سنة أربعمائة ألف درهم فضة نقية صرف كل عشرين درهماً بدينار .

وخالف مفرج بن دغفل بن الجراح على العزيز بالله وجاهر بخلع الطاعة فسير الى الشام رشيقاً العزيزي (٣٧١) فطرده عنها وهزمه . وسار ابن الجراح بعد هزيمته يريد الحجيج ليقطع عليهم الطريق عند رجوعهم ، فأنفذ العزيز مفلح الوهباني في عسكر ليلقاهم ويدفع عنهم ، فأوقع به ابن الجراح بأيلة وقتله وجميع من معه ، وعاد الحجيج الى مصر فعاود ابن الجراح الشام فلقيه رشيق الحمداني دفعة ثانية وهزمه ودخل الى البرية والتجأ الى بكجور في حمص فأجاره ، وقصد أنطاكية ملتمساً من بسيل الملك النجدة فأطلق له صلة ودفعه الى الشام والتمس من العزيز الأمان فأجابه إليه .

ولما تفرغ الروم من مشاكلهم قصدوا الى الشام سنة ٣٧١ فاضطر سعد الدولة الى تمديد الهدنة معهم معترفاً لهم بالسيادة ، ومتعهداً بأداء الجزية ليتخلص من حكم الفاطميين (٣٧٣) . ثم عاد فأبى أداءها ، فاستولوا على كليس وأوقعوا بجماعة من الحمدانية وحاصروا أفامية وقاتلوها أشد قتال ، وجاءوا الى حلب ، وسار قرعويه الى دير سمعان فحاصره ثلاثة أيام وفتحه بالسيف وقتل جماعة من رهبانه ، وسبى خلقاً التجأوا إليه من أنطاكية ودخلوا بهم الى حلب وأشهروا بها وأنفذ الدومستيقس سرية من عسكره الى كفرطاب فأوقعت بجماعة العرب والحمدانية ، واستولى المغاربة على حصن بانياس ولم يقبل الروم بالصلح مع صاحب حلب سنة ٣٧٦ إلا على شرط أن يدفع ما تأخر عليهم من الجزية لهم ، ورحل بسيل ملك الروم الى الشام فحاصر حلب وفتح حمص وشيزر وأقام على طرابلس ، ودامت معاهدة صاحب حلب مع الروم الى حين وفاته سنة ٣٩٢ . وهكذا أصبحت الدولة الحمدانية بعد عزها على عهد سيف الدولة ، ذليلة خاضعة لسلطان غيرها في عهد خلفه .

تجاذب السلطة بين العباسيين والفاطميين :

هلك المعز الفاطمي وتولى ابنه العزيز (٣٦٥) فقصد أفتكين المستولي على دمشق سواحل الشام وعمد الى صيدا فحاصرها وبها ابن الشيخ ومعه رؤوس المغاربة ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي فقاتلهم ، وكانوا في كثرة فطمعوا فيه وخرجوا إليه فاستجرهم حتى أبعدوا ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو أربعة آلاف ، وطمع في أخذ عكا ، فتوجه إليها وقصد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا وعاد الى دمشق .

ثم أرسل العزيز القائد جوهراً في العساكر الى الشام ، فلما سمع أفتكين بمسيره جمع أهل دمشق وعاهدهم فبايعوه على الطاعة وبايعهم على الذب عنهم ، فوصل جوهر الى دمشق (٣٦٥) ورأى من قتال أفتكين ومن معه ما استعظمه ، ودامت الحرب شهرين قتل فيها عدد كثير من الطائفتين، فلما رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة عليهم أشاروا على أفتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد القرمطي ملك القرامطة واستنجاده ، فجاءهم القرمطي واجتمع إليه من رجال الشام والعرب نحو من خمسين ألفاً ، فرحل جوهر من دمشق خوفاً من أن يبقى بين عدوين ، وتبعه أفتكين والقرمطي والتقوا بيافا وحصروه في عسقلان فعاين الهلاك هو وأصحابه من الجوع نحو سبعة عشر شهراً ، فبذل لأفتكين مالاً ليمنّ عليه ويطلقه ، فرحل أفتكين عنه وسار جوهر الى مصر ، وأعلم العزيز بالحال ، فسار العزيز بنفسه الى الشام في سبعين ألف مقاتل ، ووصل الرملة ، فقاتله أفتكين والقرامطة بظاهرها قتالاً شديداً ، فنُصر العزيز وقتل وأسر كثيراً (المحرم ٣٦٧) وقد قتل من المغاربة جيش الفاطمي نحو من عشرين ألفاً .

وجعل العزيز لمن يحضر أفتكين مائة ألف دينار ، وطلب أفتكين في هزيمته بيت صاحبه مفرج بن دغفل الطائي ، فأسره مفرج في بيته وأعلم العزيز به فأعطاه الجعل ، وأحضر أفتكين (٣٦٨) فأطلقه العزيز وأصحابه، وبقي عنده معظماً حتى مات بها . وبعث العزيز الى الأعصم زعيم القرامطة وهو منهزم فأدركه بطبرية وأعطاه عشرين ألف دينار فسار الى الأحساء .

ودلّ العزيز بكفه عن قتل أفتكين على بعد نظره ، وانه أثر فيه ما أسداه من الجميل لقائده جوهر في نوبة عسقلان بإطلاقه سراحه وسراح من معه ، فقابل العزيز أفتكين على جميله بمثله. خصوصاً وأن أفتكين لم يقصر منذ استولى على دمشق بمجاملة خليفة مصر العلوي ، وإن كان من جهة ثانية نزع خطبته وأرجع الخطبة العباسية في كثير من مدن الشام ، وأكرم العزيز ملك القرامطة الذي ندبه الدمشقيون على لسان أفتكين أن يعاونهم على الخلاص من الدولة المصرية لظلم عمالها ومخالفتها لهم في المذهب ، وذلك ليستميل قلبه حتى لا يعود ثانية الى نصرة أحد من أهل بلاده عليه .

سوء حالة دمشق واضطراب الأحكام المصرية :

لما فارق أفتكين دمشق الى فلسطين قدّم على أهلها رجلاً اسمه قسام الحارثي من الأبطال المعروفين،وقيل:من أرباب الدعارة العيارين،كان أصله من قرية تلفيتا في سَنير ، يعتاش بنقل التراب على الحمير ، وتنقلت به الأحوال حتى صار له ثروة وأتباع ، وغلب على دمشق وما إليها من الأصقاع ، بحيث لم يبق معه لنوابها من الفاطميين أمر ولا نهي ، ودام ذلك سنين. وكان القائد أبو محمود بن إبراهيم المغربي قد عاد الى البلد والياً عليه للعزيز فلم يتم له مع قسام أمر ، وامتدت أيدي أصحاب أبي محمود بالعيث والفساد وقطع الطرق فاضطرب الناس وخافوا ، وانتزح أهل القرى منها لشدة نهب المغاربة أموالهم وظلمهم لهم ، ووقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبي محمود وبين العامة ، فألقى عسكره النار من باب الفراديس فأحرقوا تلك الناحية ، وكانت فيها أجمل قصور دمشق ، وحرق كثير من أحياء البلد ، وهلك فيه جماعة وما لا يعد من الأثاث والأموال ، ثم صالحوا القائد أبا محمود ثم انتقضوا ولم يزالوا كذلك الى سنة ٣٦٤ .

ولما خاف الفاطميون عاقبة قسام الحارثي ؛ إذا استلذ طعم الانتصار غير مرة ، سيروا لحربه الأمير الأفضل فحاصر دمشق وضاق بأهلها الحال ، فخرج قسام متنكراً فأخذته الحرس فقال : أنا رسول . فأحضروه الى

الأفضل فقال له : أنا رسول قسام اليك لتحلف له وتعوضه عن دمشق بلداً يعيش به وقد بعثني اليك سراً ، فحلف الأفضل ، فلما توثق منه قام وقبل يديه وقال : أنا قسام . فأعجب الأفضل ما فعله وزاد في إكرامه ورده الى البلد وسلمه إليه ، وقام الأفضل بكل ما ضمنه وعوضه موضعاً عاش به ، فلما بلغ ذلك العزيز أحسن صلته . ذكر هذا القفطي وأورد الذهبي رواية أخرى في أمر قسام قال : إنه تقدم لقتاله سليمان بن جعفر بن فلاح الى دمشق فنزل في ظاهرها ولم يمكنه دخولها فبعث إليه قسام بخطه أنا مقيم على الطاعة ، وبلغ العزيز ذلك فبعث البريد الى سليمان يرده فترحل سليمان من دمشق وولى العزيز عليها أبا محمود المغربي ولم يكن له أيضاً مع قسام أمر ولا حل ولا عقد . قال ابن تغري بردي : ولعل الذي ذكره الذهبي كان قبل توجه عسكر أفتكين والأفضل ، فإن الأفضل لما سار بالجيوش أخذ دمشق من قسام وعوضه بلداً آخر وهو المتواتر .

وكان من سياسة قسام الحارثي أن كان يدعو للعزيز بالله العلوي على المنابر . وقبل أن يحاربه المصريون وصل إليه أبو تغلب بن حمدان صاحب الموصل وحط رحاله في حوران ، فمنعه قسام من دخول دمشق ، فاستوحش أبو تغلب وجرى بين أصحابه وأصحاب أبي تغلب شيء من قتال ، فرحل أبو تغلب الى طبرية ، وورد من عند العزيز القائد الأفضل في جيش فقاتله وجماعته حتى قتل في الرملة (٣٦٩) وخلت الديار ، وأتت بنو طيء على الناس وشملهم البلاء منهم .

خوارج على دولة الجنوب ودولة الشمال :

كان مفرج بن الجراح أمير بني طيء وسائر العرب في فلسطين قد كثرت جموعه وقويت شوكته ، وعاث في فلسطين وخربها ، وهلك من فيها فكان الرجل يدخل الى الرملة يطلب فيها شيئاً يأكله فلا يجده ، ومات الخلق بالجوع وخربت الأعمال ، فخاف العزيز عاقبة أمره بعد أن رأى ما أتعب دولته من أمر الخوارج أفتكين والأعصم وقسام وابن حمدان، فجهز العساكر لحربه مع قائده بلتكين التركي فسار الى الرملة ، واجتمع

إليه العرب من قيس وغيرهم ، ولقي ابن الجراح وقد كمن لهم بلتكين من ورائهم ، فانهزم ومضى الى أنطاكية فأجاره صاحبها . وصادف خروج ملك الروم من القسطنطينية الى الشام فخاف ابن الجراح وكاتب بكجور عامل حمص لأبي المعالي بن سيف الدولة ولجأ إليه فأجاره . وكان بكجور والي حمص يمد دمشق أيام هذه الفتن والغلاء ويحمل الأقوات من حمص إليها . وكانت دمشق في هذا العهد قد خربها العرب وأهل العيث والفساد ، وانتقل أهلها الى حمص فعمرت . وربما كان هذا القرن أشأم القرون السالفة في الشام ودمشق خاصة ، وكان كل أذى ينزل بها وبأهلها . قال ابن بطريق : سار بكجور الى أبي المعالي بن سيف الدولة من حلب وهو يومئذ بحمص فخلع عليه أبو المعالي وولاه حلب ، وعاد بكجور الى حلب وأقيمت له الدعوة فيها وفي سائر أعمالها ، ووافق بكجور سائر غلمان الدولة على القبض على قرعويه ، وسار أبو المعالي إلى حلب وأخرجه من حمص وقبض على قرعويه ، وسار أبو المعالي من حلب وفتح المعرة وما يليها في شوال سنة ٣٦٦ ، ونزل الى حلب ومعه بنو كلاب ، ووقع القتال بينه وبين بكجور ، واستظهر أبو المعالي عليه واستقر الأمر بينه وبين بكجور على ولاية حمص . ثم عصى بكجور على سعد الدولة واستدعى جيوش العزيز فسارت معه ونزل على حلب وتحاربوا يومين ، سار الدمستق الى حلب ، وورد خبره على بكجور فرحل إليه ، فوقع القتال وجرى بينه وبين سعد الدوله مراسلة واستقر الحال بينهم على أن يحمل إليه سعد الدولة مال سنتين أربعين ألف دينار ، وسار الدمستق وقصد حمص وسبى أهلها ، وأحرق بها جماعة اعتصموا في المغاور وسار بكجور الى دمشق وتقلدها .

وكان بكجور يكاتب العزيز الفاطمي بما يقوم به من الخدم فاستنجز وعد العزيز إياه بولاية دمشق فولاه إياها سنة ٧٣ إلا أنه أساء السيرة في أهلها وقتل أناساً وصادر آخرين وجمع الأموال لنفسه ، فجهزت العساكر عليه من مصر مع منير الخادم وكتب الى نزّال عامل طرابلس بمظاهرته . وجمع بكجور العرب وخرج للقائه فانهزم ، ثم خاف من وصول نزال

فاستأمن إليه ، وتوجه الى الرقة فاستولى عليها ، ودخل منير دمشق واستقر في ولايتها وأحسن السيرة في أهلها ، وارتفعت منزلته عند العزيز وجهزه لحصار سعد الدولة بحلب .

وكان بكجور بعد انصرافه من دمشق سأل سعد الدولــة العودة الى ولايته حمص فمنعه لأنه كان نزع يده من الدولة الحمدانية ووضعها في يد الدولة الفاطمية ، فلما أخفق عاد الى دولته الأولى فرفضتــه وأجلبت عليه ، فاستنجد بكجور الملك العزيز لحرب سعد الدولة فبعث الى نزّال بمظاهرته ، فسار إليه بالعساكر ، وخرج سعد الدولــة من حلب للقائه وقد أضمر نزال الغدر ببكجور ، واستعد سعد الدولة للقــائهم ، وقد استمد عامل أنطاكية للروم فأمده بجيش كبير ، وداخل العرب الذين مع بكجور في الانهزام عنــه وكانوا وعدوه ذلك من أنفسهم ، فلما تراءى الجمعان وشعر بكجور بخديعة العرب استمات وحمل عــلى الصف بقصد سعد الدولة فقتل لؤلؤاً الكبير مولاه ، ثم حمل عليه سعد الدولة فهزمه، فسار الى بعض العرب ثم حمل الى سعد الدولة فقتله ، وسار الى الرقـة فملكها وقبض جميع أمواله وكان شيئاً كثيراً .

وزاد مسكويه في تفاصيل هذه الحادثة ما يلي : كان لبكجور رفقــاء بحلب يوادونه فكاتبوه وأطمعوه في الأمر ، وأعلموه تشاغل سعد الدولة باللذات ، فاغترّ بأقوالهم وكتب الى صاحب مصر يبذل له فتح حلب ، ويطلب منه الإنجاد والمعونة ، فأجابه الى كل ملتمس ، وكتب الى نزّال الغوري والي طرابلس بالمسير إليـه متى استدعاه من غير معاودة . وكان نزّال هذا من قواد المغاربة وصناديدهم ، فتلكأ نزّال،وكاتب سعد الدولة بسيلَ ملك الروم يعلمه عصيان بكجور عليه ، وسأله إنجــاده بالبرجي صاحبه بأنطاكية فسار إليه ، وبرز سعد الدولة في غلمانه وطوائف عسكره، ولم يكن معه من العرب إلا خمسمائة فارس إلا أنهم أولو بأس . وتقارب العسكران ووقع الطراد ، وكان الفارس من أصحاب سعد الدولة إذا عاد

إليه وقد طعن أو جرح خلع عليه وأحسن إليه . وكان بكجور شحيحاً فإذا عاد إليه رجل من رجاله على هذه الحال أمر بأن يكتب اسمه لينظر مستأنفاً في أمره . فقضى شح بكجور عليه حتى أسلمه الى خصمه فقتله .

وقد أعطى سعد الدولة سلامة الرشيقي عهداً بالإبقاء على آل بكجور وأموالهم على أن يسلمه حصن الرافعة ، وهو بلد متصل بالرقة ، فخرجوا منها ومعهم من الأموال والزينة ما كثر في عين سعد الدولة ، فإنه كان يشاهدهم من وراء سرادقه ، وبين يديه ابن أبي الحصين القاضي . وقال له : ما ظننت أن حال بكجور انتهت الى ما أراه من هذه الأثقال والأموال . فقال ابن أبي الحصين : إن بكجور وأولاده مماليكك وكل ما ملكه وملكوه فهو لك ، لا حرج عليك فيما تأخذه منهم ، ولا حنث في الأيمان التي حلفت بها ، ومهما كان من وزر وإثم فعليّ ، فلما سمع هذا القول أصغى إليه ، وغدر بهم وقبض جميع ما كان معهم .

قال مسكويه : فما كان أسوأ محضر هذا القاضي الذي حسن لسعد الدولة تسويل الشيطان ، وأفتاه بنقض الأيمان ، ثم لم يقنع بما زين له من غدره ، ولبّس عليه من أمره ، حتى تكفل له بحمل وزره ، وهل أحد حامل وزر غيره ، أما سمع قول الله تعالى في أهل الضلالة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون » .

حملة الفاطميين على الحمدانيين واستنجاد هؤلاء بالروم :

مات سعد الدولة فقام بعده ابنه أبو الفضائل ووصيه لؤلؤ فأخذ هذا العهد على الأجناد لأبي الفضائل ، وتراجعت العساكر الى حلب ، فرأى العزيز أن الوقت قد حان لاستصفاء الشام بأسرها وإنقاذها من هذا التذبذب بين الدولتين ، جنوبها للعزيز وشمالها للحمدانيين ، ولا يفتأ كل فريق يدس للآخر ، فسير جيشاً كثيفاً على حلب وعليه منجوتكين أنفق عليه ألف ألف دينار ونيفاً ، فلما وصل الى دمشق تلقاه أهلها وقوادها وعساكر الشام كلها ، فأقام بها مدة ثم رحل الى حلب . قال ابن ميسر :

بل كانت بينه وبين أهل دمشق حروب آلت الى ظفره . وقـد استعد واحتشد ونزلها في ثلاثين ألف رجل ، وتحصن بها أبو الفضائل ولؤلؤ .

ووقع القتال بين منجوتكين والحمدانية على أفاميــة فانهزم الحمدانية (٣٨٢) وقتل وأسر جماعة منهم ، ونزل منجوتكين على حلب ووقع الحرب في جميع جوانب المدينة ودخل الى أعمـال الروم بسبب اعتقال البرجي لرسوله ، ونزل على حصن عم ضيعة البرجي في بلد أرتاح فقاتله وفتحه وسبى وقتل وسار الى أنطاكية فرشقه الأنطاكيون بالنشاب وعـاد منجوتكين الى منازلة حلب وراجع القتال . وعصى المسلمون في اللاذقية فسار البرجي إليهم وسباهم وحملهم الى الروم ، وعاد منجوتكين من دمشق ونزل على أفامية فسلمها إليه وفاء خادم سيف الدولة (٣٨٣) ورحل الى شيزر وقاتلها وتسلمها من سوسن غلام سعد الدولة وعاد الى منازلة حلب .

وكان أبو الفضائل كتب الى بسيل ملك الروم يستنجده وهو يقـاتل البلغار ،فأرسل بسيل الى نائبه بأنطاكية ميخائيل البرجي يأمره بإنجاد أبي الفضائل ؛ فسار في خمسين ألفاً حتى نزل على الجسر الحديد بالعاصي ،فلما سمع منجوتكين الخبر سار الى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل ، وعبر إليهم العاصي وأوقع بالروم فهزمهم وولوا الأدبار الى أنطاكية وكثر القتل فيهم ، وجمع مـن رؤوس قتلاهم نحو عشرة آلاف رأس وحملت الى مصر . قال الأنطاكي : قتل من الروم في هذه الوقعـة التي دعيت بوقعة المخاضة (٣٨٤) زهاء خمسة آلاف ويمم منجوتكين الى أنطاكية ونهب رساتيقها وأحرقها،وكان وقت إدراك الغلة فأنفذ لؤلؤاً وأحرق ما يقارب حلب منها إضراراً بالعسكر المصري . وعاد منجوتكين الى حلب فحصرها وأقام عليها ثلاثة عشر شهراً. فقلت الأقوات فيها وعاد صاحب حلب الى مراسلة ملك الروم والاعتضاد به،فلما قلّت الأقوات آلى العزيز على نفسه أن يمدّ عسكره بالميرة من غلات مصر ، فحمل مئة ألف تلّيس[1] في

---

(١) التليس : قفيزان بالمعـدل ، والقفيز مكيال ثمانية مكاكيك ، والمكوك يختلف باختلاف مصطلح كل بلد .

البحر الى طرابلس ومنهـــا على الظهور الى أفاميـــة . فكان يوقع للغلمان بجراياتهم وقضيم دوابهم الى أفاميـــة على خمسة وعشرين فرسخاً فيمضون ويقبضونها ويعودون بها . وبنى وأصحابه الحمامات والخانات والأسواق .

وعاد منجوتكين الى منازلة حلب ومحاصرتها وفتح حصن إعزاز وملك سائر أعمال حلب وولى عليها وبنى حصناً مقابل حلب، وأنجد ملك الروم صاحب حلب وكان قد استنجده وأرسل إليه ملكوثا السرياني،فقطع المسافة من بلاد البلغار الى حلب وهي ثلاثمائة فرسخ في بضعة أيام . ولما أقبل الروم أحرق منجوتكين الخزائن والأسواق والأبنيـــة التي كان استحدثها ورحل في الحال منهزماً ووافى بسيل فنزل على باب حلب ، وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ولقياه ، ثم عـــاد ورحل في اليوم الثالث الى دمشق وفتح حمص ونهب ، ونزل على طرابلس فمنعت جانبها منه ، فأقـــام نيفاً وأربعين يوماً فلما أيس منها عاد الى الروم ، وعاد منجوتكين غازياً الى أنطاكية،ثم سار الى حلب ورحل عنها الى أنطرطوس،وقاتل الحصن أياماً وسار عامل الروم الى أنطرطوس ليدفع عنها،وأرسلت مصر أسطولاً مؤلفاً من أربعة وعشرين مركباً مشحوناً بالرجال فكسر الأسطول بريح عاتية ، وخرج رجال المراكب الى البر ، فانهزم منجوتكين وجميع عسكره وخرج المقيمون في أنطرطوس وأخذوا ما سلم من المراكب وأسروا من رجالهم خلقاً .

الخوارج على الفاطميين واستنجاد أمراء المسلمين بالروم :

ظُن بعد انصراف ملك الروم عن الشام ورجوع الحمدانيين الى حلب أن الدولة الفاطمية يطمئن بالها ، وما كان يجول في الفكر أن ينقلب عليها أحد قوادها الذي كانت اصطفته ليدفع عن القطر ما يتهدده من الشر وأعني به منجوتكين . فقد عصى على خليفته وأراد أن يستنجد الروم فلم يلتفتوا إليه ، فندب الخليفة العساكر من مصر لقتاله وقدموا أبا تميم بن جعفر عليها ، وأمدوه من الأموال ما أسرفوا فيه ، وسار أبو تميم من مصر ، ورحـــل منجوتكين من الرملة بعد أن ملكها . والتقى الجيشان بعسقلان وتواقعا فأجلت الوقعة عن هزيمة منجوتكين وأصحابه ، فأسر وحمل الى

مصر ، وسار أبو تميم فنزل طبرية وأنفذ أخاه علياً الى دمشق ، فامتنع أهلها عليه ومنعوه الدخول ، وكاتب أخاه بعصيانهم ، واستأذنه في قتالهم ، فكتب أبو تميم الى متقدميهم من الأشراف والشيوخ ، وحذرهم عواقب فعل سفهائهم ، فخافوا وخرجوا الى عليّ مذعنين بالطاعة ومنكرين لما فعله أهل الجهالة ، فلم يعبأ بقولهم وزحف الى البلد فملكه ، وأحرق وقتل وعاد الى معسكره .

ووافى أبو تميم في غد فأنكر على أخيه ما فعله ، وتلقاه وجوه الناس فشكوا إليه ما أظلهم ، فأحسن لقاءهم وأمنهم ، فسكنوا وعادوا الى معايشهم . وركب أبو تميم الى المسجد الجامع في يوم الجمعة بزيّ أهل الوقار ، واجتاز في البلد بسكينة ، وبين يديه القراء وقوم يفرقون الدراهم على أهل المسكنة ، وصلى الجمعة وعاد الى القصر الذي نزله بظاهر دمشق ، وقد استمال قلوب العامة بما فعله ، ثم نظر في الظلامات وأطلق من المحبوس جماعة من أهل الجنايات فازدادوا له حباً ، واستقرت قدمه واستقام أمره ، وعدل من بعد الى النظر في أحوال الساحل فهذبها ، وولى أخاه طرابلس وصرف عنها جيش بن الصمصامة .

ذكر كل هذا مسكويه ، وزاد أن أبا تميم كان مع سياسته مستهتراً باللذات ، فلم يشعر إلا بهجوم المشارقة والعامة على قصره فخرج من دمشق هارباً ، ونهبوا خزائنه وأوقعوا بمن كان معه من كتامة ، وعادت الفتنة واستولى الأحداث على دمشق ، وثار أهلها مع ما كان فيها من الأولياء المشارقة على ابن فلاح فخرج عن البلد هارباً الى مصر ، وتغلب الأحداث ورأسهم رجل منهم يعرف بالدهيقين ، فسارت جيوش الحاكم الى دمشق مع محمد بن الصمصامة للقاء الدمشقيين والدهيقين ، فسار الدهيقين الى مصر وطلب الأمان . وقال ابن ميسر في حوادث سنة ٣٨٧ : إنه كانت وقعة بين منجوتكين وبين ابن فلاح في الرملة قتل فيها نحو مئة ألف (كذا) من أصحاب منجوتكين وانهزم ابن الجراح .

وفي سنة (٣٨٨) وقعت النار في أفامية واحترق ما كان فيها من القوت فسار أبو الفضائل بن سعد الدولة صاحب حلب في عسكر الحلبيين ،

وقاتلها مدة ثم رجع عنها لما سار إليها دوقس أنطاكية ، وحاصرها هذا أشد حصار ، فاستنجد الملايطي المقيم بها بجيش بن الصمصامة بدمشق ، فسار إليه في عساكر ضخمة ، وانتشبت الحرب بينهم ، واستظهر عليه الدوقس ، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت البادية سواد عسكر المغاربة، وبلغت الهزيمة الى بعلبك ، وقتل الدوقس فعادت الهزيمة على الروم فقتل منهم زهاء ستة آلاف وأسر أبناء الدوقس وجماعة من رؤساء عسكره ، وحملوا الى مصر وأقاموا بها عشر سنين ثم فودي بهم .

وسار جيش بن الصمصامة الى شيزر فخف ملك الروم بنفسه ففتحها وشحنها بالأرمن ، وسار عنها الى حصن أبي قبيس فأخذه بالأمان وسار الى حصن مصيات . فملكه أيضاً وأخربه وسار الى رفنية فأحرقها وسبى أهلها وتوجه يحرق ويسبي الى أن بلغ حمص فنزلها وتحصن منها نفر في كنيسة مار قسطنطين تحرماً بها ، فلما علم الرؤوس من أهل عسكره أحرقوها ، وكانت كنيسة معجزة وحمل نحاسها ورصاصها ، وسار الملك الى قرب بعلبك واستصرخ جيش من دمشق الى مصر بكتبه ووصف كثرة الجموع التي للروم فجردت إليه العساكر وكوتب كل وال بالشام بالمسير معه ، فساروا حتى اجتمع بدمشق من العساكر كما قال الأنطاكي ما لم يجتمع فيها للإسلام مثله ، ورجع ملك الروم عن طريق الساحل وأحرق عرقة وهدم حصنها ثم نزل على طرابلس (٣٨٩) وحاربها براً وبحراً ، ثم رحل الى أنطاكية ، وافتتح حصن أبي قبيس بالأمان .

وامتدت ولاية منجوتكين في إمرة الجيوش الشامية الى ما بعد سنة ٣٨٦ وكان ظالماً جباراً ساءت سيرته في ولايته دمشق وحمص وكثر ظلمه . وولي إمرة دمشق بشارة الإخشيدي من قبل برجوان الخادم الحاكمي (٣٨٨) وكان ولي طبرية قبل أن يلي دمشق مدة سنين . وكان أهل صور قد عصوا (٣٨٧) وأمّروا عليهم رجلاً ملاحاً يعرف بعلاقة . ضرب السكة باسمه وكتب عليها « عز بعد فاقة الأمير علاقة » فأرسل عليه الفاطميون أسطولاً فاستجار علاقة بملك الروم فأنفذ إليه عدة مراكب مشحونة بالرجال والمقاتلة ، والتقت هذه المراكب بمراكب المسلمين فاقتتلوا فظفر المسلمون

وملكوا مركباً من مراكبهم ، وقتلوا من فيه وانهزمت بقية المراكب . وهكذا استنجد بالروم في هذه الحقبة أميران على بني جنسهما ودينهما ليستمتعا بالملك وهما أبو الفضائل في حلب وعلاّقة بصور .

وكان المفرج بن دغفل قد نزل على الرملة وعاث فساداً في أرضها ، وانضاف الى حادثته وحادثة علاّقة نزول الدوقس صاحب الروم في عسكر كثيف على حصن أفامية ، فاصطنع برجوان جيش بن الصمصامة وقدمه ، وجهز معه عسكراً وسيره الى دمشق ، وبسط يده في الأموال ونفذ أمره في الأعمال،وسار جيش بن الصمصامة ونزل على الرملة وعليها وحيد الهلالي والياً فتلقاه طائعاً وصادف أبا تميم بها فقبض عليه قبضاً جميلاً ، وندب الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان في عسكر الى صور بعد أن كان أنفذ إليها مراكب في البحر مشحونة بالرجال فأحاطت العساكر بها براً وبحراً وضعف أهل صور عن القتال وأُخذ علاقة فحمل الى مصر فسلخ وصلب بها وأقام ابن حمدان والياً عليها .

وسار جيش بن الصمصامة لقصد مفرج بن دغفل فهرب من بين يديه وعاذ بالصفح فكف جيش عنه ، وعاد سائراً الى عساكر الروم النازل على حصن أفامية ، فلما وصل الى دمشق تلقاه أهلها في أشرافها ووجوه أحداثها مذعنين له بالانقياد ، راغبين في استصحابهم للجهاد ، فجزاهم خيراً فأقبل جيش على رؤساء الأحداث وبذل لهم الجميل ، ونادى في البلد برفع المؤن ، وإباحة دم كل مغربي يتعرض لفساد ، فاجتمعت الرعية وشكروه ، وسألوه دخول البلد والنزول بينهم فلم يفعل ، ثم سار ونزل بحمص واجتمعت العساكر وتوجه الى حصن أفامية ، فوجد أهلها وقد اشتد بهم الحصار ، فنزل بإزاء عسكر الروم بينه وبينهم نهر العاصي . ثم التقى الفريقان من بعد ، وكان المسلمون يومئذ في عشرة آلاف من الطوائف وألف فارس من بني كلاب . فحملت الروم على المسلمين فزحزحوهم عن مصافهم ، وانهزمت الميمنة والميسرة ، واستولى الروم على كراعهم وعطفت بنو كلاب على أكثر ذلك فنهبوه،وثبت بشارة الإخشيدي

في خمسمائة فارس ، ورأى من في حصن أفامية من المسلمين مـــا أصاب إخوانهم فأيسوا من نفوسهم .

قالوا: وكان الدوقس عظيم الروم في هذه الوقعة بعد أن تراجع المسلمون على رأسه راية وبين يديه ولداه وعشرة خيالة ، فقصده أحمد بن الضحاك الكردي عـــلى فرس جواد ، فظنه عظيم الروم مستأمناً ، فلما قاربه طعنه الكردي فقتله فانهزمت الروم وتراجع المسلمون فركبوا أقفيتهم قتلاً وأسراً وألجأوهم الى مضيق في الجبل وأسروا ولد الدوقس ، وحمل الى مصر من رؤوسهم عشرون ألف رأس وألف أسير .

وعاد جيش الى دمشق فاستقبله أهلها ، فخلع على وجوه الأحـــداث وحملهم على الخيل والبغال ، ووهب لهم الجواري والغلمان ، وعسكر بظاهر البلد وأخلوا له قرية بيت لهيا ليكون مقامه بها ، وتوفر على استعمال العدل وتخفيف الثقل ، فاستخص رؤساء الأحداث واستحجب جماعة منهم ، ثم أوقع بهم كلهم ، ودخل البلد وثلم السور من كل جانب ، ونزلت المغاربة دور دمشق ، وركب جيش فدخل المدينة وطافها ، واستغاث الناس بـه ولاذوا بعفوه ، فكفّ عنهم واستدعى الأشراف استدعـــاء حسن ظنهم فيه ، فلما حضروا أخرج رؤساء الأحداث وأمر بضرب رقابهم بين أيديهم، ثم صلب كل واحد في محلته . وجرد الى المرج والغوطة قائداً وأمره بوضع السيف فيمن بها من الأحداث فقال : إنه قتل ألف رجل منهم ، حتى إذا فرغ مـن ذلك كله قبض على الأشراف وحملهم الى مصر واستأصل أموالهم ونعمهم ، ووظف على البلد خمسمائة ألف دينار . وكان عدد من قتلهم ثلاثة آلاف رجل ، واحتال للقضاء على هؤلاء الأحداث بأن جعل يبسط الطعام كل يوم لهم ولمن يجيءُ معهم من أصحابهم ، فكان يحضر كل إنسان منهم في جمع من أصحابه وأشياعه ، وأمرهم إذا فرغوا من الطعـــام أن يحضروا الى حجرة يغسلون أيديهم فيها ، وأمر أصحابه إذا دخل رؤساء الأحداث الحجرة أن يغلقوا بابها عليهم ويضعوا السيف في أصحابهـم ، فلما كان الغد حضروا الطعام ، وقام الرؤساء الى الحجرة ، فأغلقت الأبواب عليهم وقتل من أصحابهم نحو ثلاثة آلاف رجل .

تولى جيش نيابة دمشق غير مرة ، وكان ظالماً سفاكاً للدماء ظلم الناس كثيراً . قالوا : وعم الناس في ولايته البلاء من القتل وأخذ المال حتى لم يبق بيت في دمشق ولا بظاهرها إلا امتلأ من جوره؛خلا من كان ظالماً يعينه على ظلمه . وممن ولي دمشق للمصريين وساءت سيرته ختكين القائد ثم القائد طرملة بن بكار البربري ، وكان عبداً أسود ، فجار على أهلها كما جار ختكين وظلمهم وأخذ أموالهم ، وفر الى مصر وحمل بعض ما كان معه الى الحاكم ، فتمكنت حاله عنده وولاه دمشق فأقام والياً عليها الى سنة ٣٩٤ ، ثم صرف عنها بخادم من خدم الحضرة .

تتمة دور الفاطمين

« من سنة ٣٩٤ ـ ٤٦٣ »

خوارج ومذاهب جديدة وفتن :

ظهر في أعمال حلب سنة ٣٩٥ رجـــل اسمه احمد بن الحسين ويعرف بالأصفر تزيّا بزي الفقراء وتبعه خلق من العرب وسكان القرى ، وصحبه رجل من وجوه العرب يعرف بالجملي ، ونازل شَيْزَر وأسرى في جماعة من العرب وغيرهم ممن اجتمع إليه ولقي عسكر الروم وكبس والي أرتاح وسار نحو جسر الحديد يريد أنطاكية، فلقيه في مهروية على فرسخين من أنطاكية بطريق يقال له بيغاس في عسكر كان معه ، فقتل الجملي وانهزم الأصفر الى سروج ، ونزل قرية كفر عزون وكانت حصينة ، ففتحها العامل الرومي وأسر منها اثني عشر ألف أسير وأخذ غنـــائم كثيرة ، وكان قد اجتمع عرب بني نمير وبني كلاب مع وثاب بن جعفر صاحب سروج في زهاء سته آلاف فـــارس على الرومي فلقيهم وهزمهم،وتوسط لؤلؤ صاحب حلب أن يعتقل الأصفر بقلعة حلب فأخذ واعتقل ، وبقي فيها معتقلاً الى أن دخلت حلب في حكم الفاطميين (٤٠٦) .

وأمر الحاكم (٤٠٤) باروح التركي الملقب علم الدولة على جيوشه ولقبه أمير الأمراء وولاه الشام وسيره إليها وحمل باروح معه زوجته وهي ابنة الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس وحملا معهما أموالها في قافلة مع التجار ، فاعترضهم ظاهر غزة المفرج بن دغفل بن الجراح وأولاده فأوقع بهم وحاز جميع ما كان معهم وأخذ باروح أسيراً وقتله . وسار ابن الجراح

الى الرملة ودخلها ، وأباح للعرب نهبها وصادر الأموال وأقـام الدعوة لأبـي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة يومئذ وأسماه أمير المؤمنين ولقبه الراشد لدين الله ، وضرب له السكة واستحوذت العرب على جنوب الشام وملكوه من الفرَما الى طبرية وحاصروا حصون السواحل مدة طويلة ولم يمكنهم أخذ شيء منها .

واستدعى ابن الجراح أبا الفتوح الحسني من مكة فسار الى الشام ووصل الى الرملة ودخلها راكباً فرساً ونزل في دار الإمارة بها ، وأنشأ كتابـاً قرىءَ على الناس بأن لا يقبل له أحد الأرض، وأن هذا شيء ينفرد به الله عز وجل ، وجلب معه أموالاً كثيرة من الحجاز فأكلها العرب وحجزوا عليه وأشرف على ضعف أمره . وقد كان الحاكم بذل فيه أموالاً جسيمة لحسان بن المفرج فأشار عـلى أبي الفتوح بالرجوع الى طاعـة الخليفة العلوي وأوصلوه الى مأمنه، فلما عاد الى مكة أقام الدعوة للحاكم على الرسم السالف بعد أن كان أقامها لنفسه ، وكتب الى الحاكم يعتذر فقبل عذره ووصله وأحسن إليه .

وحصل الشام في أيدي بني الجراح وأقاموا متغلبين عليـه الى المحرم سنة أربع وأربعمائة وعظمت مصادرتهم للنـاس مرة بعد أُخرى وعسفهم إياهم ، فهرب من النصارى خلق كثير توجهوا الى الروم وقصد أكثرهم اللاذقية وأنطاكية وقطنوهمـا . استقل ابن الجراح سنتين وخمسة أشهر في الشام ولم يرسل الحاكم عليه عسكراً، ثم سير القائد علي بن فلاح في جيش كبير جمع فيه معظم رجال مملكته ، وكوتبت الجيوش في دمشق والسواحل بلقائـه ، وسارت العساكر من الجهتين نحوه فاتفق في الحـال أن مات المفرج بن دغفل بن الجراح واتصل بأولاده، قصد العساكر إليهم فذهبوا مع العرب الى البرية وتخلوا عن الرملة وغيرها من الأقاليم التي غلبوا عليها .

ولى الحاكم عهده لأبـي القاسم عبد الرحمن بن الياس وجعله الخليفة بعده (٤٠٤) ودعي له على المنـابر ونقش اسمه على السكة ، وحصل بدمشق وفسح لأهلها في شرب القهوة وسماع الأغاني فأحبوه ومقته الجند

لشحه ، وأذاع بعض الدرزية دعوته في قوم من المسلمين في وادي التيم ، فتجاهر الذين استجابوا لدعوتـه بمذهبهم ، فغزاهم أمير الأكراد ابـن تالشليل فقتل منهم وسبى وأحرق وأهلك خلقاً . واستشعر ولي العهد بعد ما جرى في أمرهم إنكار الحاكم مـا فعل بهم ، وحـذر أن يحنق عليه بسببهم ، فأنفذ صاحباً له يعرف بابن الخرقاني الى حسان بن المفرج بن الجراح ليقرر له معه أن يكون من جهته،فشغب عليه الجند وقتلوا الخرقاني بدمشق ونهبوا دار ولي العهد ، فاستغاث بالدمشقيين والغوطيين ، فأحاطوا بالقصر الذي ينزله بظاهر دمشق فانتشبت الحرب بينهم وبين الجند واندفع الدمشقيون عنه ونهب الجند القصر،وكان عند تواصل الأخبـار الى الحاكم بعصيان ولي العهد ندب صاعد بن عيسى بن نسطورس للخروج الى الشام، وأعطاه من العدد السلطانية والآلات الجليلة مـا لم يعط لغيره ، وتقدمت مكاتبة الحاكم الى ولي العهد يأمره بالحضور الى مصر فبادر بالرحيل وسار العسكر معه الى الرملة ولما أيقن الحاكم امتثاله أمره زالت الشبهة عنـه من نفسه ، وكتب يرسم له بالرجوع الى دمشق وقلد تقليداً ثانياً .

وثار بدمشق بعد مسير ولي العهد عنها رجل من أهلها يعرف بمحمد بن أبي طالب الجزار ، واجتمع إليه جمع كثير من أحداثها ومن رعاع أهل حوران امتعاضاً لولي العهد ، وحاربوا الجند ، وطرح العسكر النـار في المدينة فأحرقت منها قطعة كبيرة ، ولما عرف محمد بن أبي طالب الجزار عودة ولي العهد سار للقائه واجتمعوا في لُدّ وسار محمد بن أبي طالب الى دمشق،وقد اجتمع إليه خلق كثير ودخل دمشق بغتة ، وراجع الحرب واستظهر على الجند وأخرجهم من المدينة ، وأرسل إليـه ولي العهد في تسكين الفتنة فلم يطعه وقتل قاضي دمشق وتسلط هو والأحداث عليها ، وقتل أيضاً جماعة من الناس ونهبهم ، وتوقاه أهل السلامة وخافوا منه ، وغلت الأسعار بقيام الفتنة فاجتمع على النـاس الجوع والحريق والنهب والقتل . وكان محمد بن أبي طالب قـد سدّ الباب الشرقي ، فوجد الدمشقيون فرصة وفتحوه ، وقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب الجابية ، وقتلوا جمعاً ممن كان على رأيه ، واستقام أمر دمشق وصلح حـال ولي

العهد وأطلق يده في مصادرة جماعة من الدمشقيين والمتهمين بقيام الفتنة فتنكروا عليه وأبغضوه واجتمع أهل البلد والجند على كراهيته .

تقسيم الأقاليم بين القبائل ودولة بني مرداس :

كان لؤلؤ غلام ابن حمدان وولده منصور بن لؤلؤ قد استوليا على حلب بعد موت أبي الفضائل بن سعد الدولة ، وضيق منصور بن لؤلؤ على ابني أبي الفضائل فقصدا الحاكم في مصر ، وهرب أبو الهيجاء بن سعد الدولة من حلب أيضاً في زي النساء والتجأ الى بسيل ملك الروم ومات لؤلؤ في المحرم سنة ٣٩٩ وآلت الإمارة لولده الصغير منصور بن لؤلؤ ، وكرهه كثير من الحلبيين ورغبوا في أبي الهيجاء ، وكذلك أمراء بني كلاب المدبرون بلد حلب ، وسار أبو الهيجاء الى ميافارقين فأنفذ معه حموه ابن مروان صاحباً له في دون المائتي فارس وسار الى الجزيرة ، ولقيه جماعة أمراء بني كلاب وضمنوا له أن يعاضدوه ، وخافه منصور بن لؤلؤ فاستصلح بني كلاب وشرط لهم أن يعطيهم الإقطاعات الكثيرة ويجعلهم مساهمين له في الضياع والأعمال ظاهر حلب ، واستنجد بالمغاربة جيش الفاطميين،فأسرع إليه علي بن عبد الواحد بن حيدرة قاضي طرابلس في عسكر منيع ، فاتفقت موافاته حلب مع نزول أبي الهيجاء ، فانهزم هذا وذهب الى القسطنطينية ، ومات فيها عند صاحب الروم ، وعاد ابن حيدرة الى طرابلس ، وأقام منصور بن لؤلؤ يخطب لصاحب مصر ولقبه الحاكم مرتضى الدولة،ثم فسد ما بينه وبين الحاكم وعاد الكلابيون يلتمسون من منصور بن لؤلؤ ما شرط لهم، فحضر منهم زهاء سبعمائة رجل فيهم جميع أمراء بني كلاب وذوي الرئاسة والشجاعة جميعاً وأمر ببذل السيف فيهم ، وحبس منهم جماعة ، وكان في جملة المحبوسين صالح بن مرداس فتوصل في الحبس الى أن صعد من السور وألقى نفسه من أعلى القلعة الى تلها ، فسار الى أهله وجمع ألفي فارس وأسر ابن لؤلؤ وقيده بقيده الذي كان في رجله ولبته الحديد .

وكان لابن لؤلؤ أخ فنجا وحفظ المدينة ، وبذل ابن لؤلؤ لصالح

ابن مرداس مائتي ألف دينار فأطلقه على شرط أن يطلق كل أسير عند ابن لؤلؤ من بني كلاب. وبنو كلاب بطن من عامر بن صعصعة ملكوا حلب ونواحيها ، وأول من ملك منهم صالح بن مرداس هذا،وكان لهم في أيام سيف الدولة بن حمدان شأن،وغزاهم غير مرة بعد أن اصطنعهم واصطفاهم من بين قبائل العرب .

انقرضت دولة بني حمدان سنة ٤٠٦ وآخرهم في حلب المنصور ، وقد دامت حكومتهم في حلب وحماة وحمص والمعرة وأنطاكية زهاء سبعين سنة عزيزة مستقلة في أولها ، ذليلة خاضعة لسلطان غيرها في آخرها . وفي شوال (٤١١) سلم محمد بن خليد النهراني الى الروم حصن الخوابي في جبل نهران ومدينة مرقبة على ساحل البحر وكانت خراباً فأحسن إليه بسيل الملك . وتسلم نواب الفاطميين الشام حتى موت الحاكم بأمر الله (٤١١ هـ ١٠٢١ م) وعندها اجتمع حسان أمير بني طيء ، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب ، وسنان بن عليان أمير بني كلب ، فتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب الى عانة لصالح بن مرداس ، ومن الرملة الى مصر لحسان ، ودمشق لسنان ، فقصد صالح حلب وبها رجل يقال له ابن ثعبان يتولى أمرها للمصريين ، فسلم أهل البلد لصالح لإحسانه إليهم ولسوء سيرة المصريين معهم ، وسلمت القلعة إليه سنة ٤١٤ وملك من بعلبك الى عانة وأقام بحلب ست سنين .

افتتح حسان بن المفرج بن الجراح أمير الطائيين مدينة الرملة (٤١٥) وأتى عليها حريقاً ونهباً وأسراً . وحاصر سنان بن عليان مدينة دمشق (٤١٦) وجرت بينه وبين أهلها حرب شديدة وخرب داريا وأعمالها . وبقيت حال الشام على هذا الى سنة ٤١٩ وقد مات سنان بن عليان أمير الكلبيين ، ودخل ابن أخيه رافع بن أبي الليل بن عليان الى الظاهر الفاطمي فاصطنعه وعقد له الإمارة على الكلبيين وسير معه عسكراً،وانضافت إليه العساكر المقيمة في الشام ، واجتذب إليه جماعة من العرب ، وقصدوا بأجمعهم حرب حسان بن المفرج بن الجراح وورد إليه صالح بن مرداس وبنو كلاب لمعاونته ، واتفقا على لقائهم وتصافوا للحرب في طبرية في

موضع يعرف بالأقحوانة (٤٢٠) وقتل صالح ومع علم حسان والعرب بقتله انهزموا بأسرهم الى الجبال وقتل منهم جماعة ، ولما عرف أصحاب صالح المقيمون في بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن ابن عكار قتله تخلوا عن جميعها واستعادها أصحاب السلطان . واستولى نصر وثمال ابنا صالح على حلب وأعمالها وعلى الرحبة وبالس ومنبج .

وكان بأنطاكية عامل للروم فجمع جيشاً وسار قاصداً حلب بغير أمر ملكه ، فتلطف معه ابنا صالح بعد أن كبست العرب معسكره وقتلت منه جماعة ، ثم سار ملك الروم بنفسه (٤٢١) الى غزو حلب واتصل بحسان ابن الجراح ما عزم عليه ملك الروم من غزو الشام ، فأنفذ إليه جماعة من أهله برسالة يقوي بها عزمه على ما همّ به ويبذل له الخدمة في غزاته والمسير بين يدي جيوشه بعشيرته وأصحابه ، وأنفذ أيضاً نصر وثمال ابنا صالح بن مرداس مع آل جراح ابن عمهما مُقَلد بن كامل بن مرداس يبذلان مثل ذلك عن نفوسهما وعشيرتهما وأصحابهما ، وأن يعطي جميعهم رهائنهم على مناصحتهم إياه ، وصحة وفائهم بما بذلوه ، ووفد جميعهم الى الملك فنزل هذا بجيشه على تُبَّل من بلد أعزاز فطاردهم العرب وانهزم أكثر المقاتلة وثبت بعضهم وقتل من الفريقين جماعة ، وأسرت العرب من الروم المنهزمين عدداً كبيراً وعاد الباقون الى معسكرهم ، ثم اضطر الملك الى العودة الى دياره ، وكان معه جماعة كثيرة من الأرمن فوضعوا أيديهم في النهب وزادت الفتنة ، ثم كتب نصر بن صالح الى ملك الروم يستعطفه ويعتذر إليه ويلتمس منه أن يجريه على ما كان أبوه عليه وغيره ، ممن ملك حلب مع من تقدمه من أسلافه الملكين الماضيين بسيل وقسطنطين .

قال ابن الأثير : لما خرج ملك الروم بنفسه من القسطنطينية الى الشام هذه المرة كان في ثلاثمائة ألف مقاتل ، فلما بلغ قريب حلب نزل على يوم منها ، ولحقه عطش شديد فهلك كثير من جيشه عطشاً ، فعاد وجماعته أدراجهم . وقيل في عوده : إن جمعاً من العرب ليس بالكثير عبر على عسكره وظن الروم أنها كبسة فانهزموا لا يلوون على شيء . وذكر ابن

المهذب المعري أن خروج أرمانوس ملك الروم الى حلب في سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، وكانوا ستمائـــة ألف، ومعه ملك البلغار وملك الروس والألمان والخزر والأرمن والبلجيك والفرنج وغنم المسلمون منهم ما لا يحصى وأسرت جماعة من أولاد ملوكهم . وفي قول ابن المهذب نظر . لأنّ هذا الجيش العظيم وهذه الأمم التي عدها يستحيل أن تسير مع ملك الروم إلا إذا كان دعاهم باسم حماية النصرانية في الأرض المقدسة ، ويستحيل أن تقترب منها أو أن تفتحها وفي الشام أمامها دول وإمارات .

وملك الروم (٤٢٢) قلعة أفامية،وسبب ملكها أن الظاهر الفاطمي سير الى الشام الدزبري وزيره فملكه ، وقصد حسان بن المفرج الطائي ، فألح في طلبه فهرب منه ودخل بلد الروم ، ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ، ومعه عسكر كثير ، فسار الى أفامية فكبسها وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم .

وفي سنة ٤٢٣ اجتمع في جبـــل السماق جماعة من الدرزية وجاهروا بمذهبهم وأخربوا المساجد ، وتحصن دعاتهم وكثير من عوامهم في مغاور شاهقة منيعة ، وقصدهم وانضوى إليهم خلق كثير من أهـــل نحلتهم ، وتوفر عددهم واستضاموا المسلمين المجاورين لهم من أهل بلدان حلب ، ووعدوا أنفسهم وأطمعوا عوامهم بقوة أيديهم وكثرة استيلائهم على الأعمال القريبة والبعيدة . فرأى قطبان أنطاكية مبادرتهم قبل تفاقم أمرهم وتخطيهم الى الفساد والعيث ، ورسم لمن يجاورهم من طراخنته [١] قصدهم برجاله وأصحابهم ، فتلطفوا في أن قبضوا عـــلى دعاتهم وأماثلهم وقتلوهم ، وحاصروا باقيهم في تلك المغـــاور ، فنصبوا عليها القتال اثنين وعشرين يوماً الى أن التمسوا الأمان وخرجوا منها هاربين ، وتتبع الروم المسلمين في أعمالهم وأخذوهم واضمحلوا ودثروا . وهـــذه ثاني وقعة للدروز في الشام والوقعة الأولى في وادي التيم بعد قيام دعوتهم على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي .

---

(١) طرخان : اسم للرئيس الشريف في قومه، والذي لا يؤخذ منه الخراج، ومن يكون تحت يده خمسة آلاف رجل، وهو دون البطريق والجمع طراخنة .

وكان الحاكم هذا في جملة تحكماته الباردة على سكان مملكته أن أمر بهدم الكنائس ، فهدم كنيسة في دمشق وكنيسة القيامة بالقدس وغيرها من الكنائس العظمى ، ونقض بعض الكنائس بيده ، وأمر بأن تعمر مساجد للمسلمين ، وأمر بالنداء: من أراد الإسلام فليسلم . ومن أراد الانتقال الى الروم كان آمناً الى أن يخرج ، ومن أراد المقام على أن يلتزم ما شرط عليه فليقم . وبعد أن مضى الحاكم لسبيله اشترط ملك الروم على الظاهر (٤٢٤) في الهدنة التي عقدها معه أن يعمر الملك كنيسة القيامة ببيت المقدس ويجددها من ماله ويصير بطريركاً على بيت المقدس ، وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التي في مملكة الظاهر .

بقي شبل الدولة مالكاً لحلب الى سنة ٤٢٩ ، فأرسل إليه أنوشتكين الدزبري العساكر المصرية ، فلقيهم عند حماة فقتل في المعركة ، وملك الدزبري حلب ، وصفت له الشام بأجمعها ، وأباد المفسدين ومهد الأمور ، حتى أمنت السبل ، وعظم أمره وكثر ماله ، وأرسل يستدعي الجند الأتراك ، فبلغ المصريين أنه عازم على العصيان فتقدموا الى أهل الشام بالخروج عن طاعته ففعلوا ، فقصد حماة فعصى عليه أهلها ، فكاتب محمد ابن منقذ الكفرطابي فحضر إليه في نحو ألفي رجل فاحتمى به وسار الى حلب (٤٣٣) وتوفي بعد شهر واحد . وكان أنوشتكين نائب الشام للمستنصر ، شجاعاً مقداماً ، عظيم الهيبة ، حسن السياسة ، طرد الأعراب من الشام ، وأباد المفسدين ومهد أحوال القطر وفسد بموته الشام وزال النظام ، وخرجت العرب في الأقاليم ، فخرج أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرحبة وجاء حلب فملكها تسليماً من أهلها ، وسار (٤٤٠) ناصر الدولة بن حمدان أمير دمشق وشجاع الدولة جعفر بن كلشيد والي حمص بجماعة من الجند وقبائل العربان من الكلابيين وغيرهم الى حلب ، لقتال متوليها ثمال بن صالح بن مرداس ، فخرج أهل حلب فهزمهم واختنق بالنهر منهم جماعة فرجع بغير طائل ، ثم قلد قطز الصقلبي دمشق وقبض على ابن حمدان وصادره واعتقله بصور ثم بالرملة ، وقبض على

راشد بن سنان أمير بني كلاب وحمله الى صور فاعتقله بها ، وخرج أمير الأمراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته نحو ثلاثين ألفاً بلغت النفقة عليه أربعمائة ألف دينار يريد الشام ومحاربة بني مرداس، فحاربه الحلبيون فانهزم المصريون وأُسر رفق ومات في حلب . قال ابن ميسر : وتقدم المستنصر الى جميع ولاة الشام بالانقياد لرفق ، فوافى بالرملة رسول ملك القسطنطينية واصلاً بالصلح بين المستنصر وبني مرداس فقتل رفق،وجرت بالرملة ودمشق أمور آلت الى حرب بين العسكر مدة أيام بباب توماء من دمشق .

وجهز ثمال الى معرة النعمان والياً أساء التدبير فانحرف عنه القوم وآل أمره الى الهرب ، فبادر جعفر أمير حمص وتجهز الى المعرة بنفسه ولقيه مقلد بن كامل بن مرداس فأوقع به وقتله وشهر رأسه بحلب . وحصر ثمال امرأة الدزبري وأصحابه بالقلعة أحد عشر شهراً وملكها سنة ٤٣٤ . وكان ثمال جمع للمصريين خمسة آلاف فارس وراجل فقاتلهم ثلاثة أيام، فلما رأى المصريون صبر ثمال وكانوا ظنوا أن أحداً لا يقوم بين أيديهم، رحلوا عن المدينة . والسبب في قتال ثمال أنه كان قرر على نفسه أن يحمل كل سنة عشرين ألف دينار عما في يده ويد عشيرته الى صاحب مصر ، فتأخر الحمل سنتين . ثم أرسل الهدايا الى المصريين وأصلح أمره معهم ، ونزل لهم عن حلب فانفذوا إليها الحسن بن علي ابن ملهم فتسلمها من ثمال سنة ٤٤٩ بعد حروب طويلة .

وفي سنة ٤٤٦ نقض الروم الهدنة مع الخليفة الفاطمي وكانوا تعهدوا بأن يطلقوا له أربعمائة ألف أردب من الغلال بسبب الغلاء في مصر ، ولم يوفوا بالعهد، فجهز المستنصر عسكراً قدّم عليه ابن ملهم لقصد اللاذقية، فخرج في عساكر جمة وحاصرها وأتبعهم بعسكر ثان وعسكر ثالث ، ونودي في الشام بالغزو الى الروم ، وحاصر ابن ملهم قسطون بالقرب من أفامية ، وضيق على أهله ، وجال في أعمال أنطاكية ونهبها وسبى منها .

وفي سنة ٤٤٧ سير المستنصر فقبض على جميع ما في كنيسة القيامة بالقدس ، لأن صاحب الروم أذن لرسول طغرلبك السلجوقي أن يصلي في

جامع القسطنطينية ، فخطب للقائم العباسي ، فغضب الخليفة الفاطمي . قال ابن ميسر : وكان هذا من الأسباب الموجبة لفساد ما بين المصريين والروم . وفي هذه السنة تجمع كثير من التركمان بحلب وغيرها ، فأفسدوا في أعمال الشام .

حدثت فتنة بين بعض السودان وأحداث حلب ، فسمع ابن ملهم أن بعض الأحداث من سكانها قد كاتب محمود بن شبل الدولة ليسلموا إليه البلد ، فقبض على جماعة منهم فاجتمع أهلها ، وراسلوا محموداً وهو منهم على مسيرة يوم يستدعونه ، وحصروا ابن ملهم ، فسيرت مصر ناصر الدولة بن حمدان أمير دمشق لقتال من بها لأجل قطع خطبة المستنصر ، فلما قارب البلدة خرج محمود عن حلب الى البرية ، واختفى الأحداث جميعهم ، ولم يمكن ناصر الدولة أصحابه من دخول حلب ونهبها ، وسار في طلب محمود فالتقيا بالفُنَيْدق ، فانهزم أصحاب ابن حمدان وثبت هو فخرج وحمل الى محمود أسيراً،فأخذه وسار الى حلب فملكها وملك القلعة في سنة ٤٥٢ فجهز المصريون ثمال، بن صالح الى ابن أخيه ، فحصره في حلب،فاستنجد محمود خاله منيع بن شبيب النميري صاحب حران ، فجاء إليه ، فلما بلغ ثمالاً مجيؤه سار عن حلب الى البرية (٤٥٣) وعاد منيع الى حران ، فعاد ثمال الى حلب وخرج إليه محمود ابن أخيه ، فاقتتلوا وقاتل محمود قتالاً شديداً ، ثم انهزم محمود ، فمضى الى أخواله بني نمير بحَران . وتسلم ثمال حلب وخرج الى الروم فغزاهم . وذكر ابن ميسر: أن اليازوري وزير مصر سير أموال الدولة جميعها لفتح بغداد،وكان ذلك سبباً لخروج الغز الى الشام وملكهم إياه . وقال في حوادث سنة ٤٥١ إن حادثة قتل البساسيري وقطع خطبة المستنصر من بغداد وإعادتها للقائم ، كانت آخر سعادة الدولة المصرية ، فإن الشام خرجت من أيديهم بعدها بقليل ولم يبق لهم سوى ملك مصر .

ولما توفي ثمال (٤٥٤) أوصى بحلب لابن أخيه عطية بن صالح فملكها، ونزل به قوم من التركمان فقوي بهم ، فأشار أصحابه بقتلهم فأمر أهل البلد بذلك ، فقتلوا منهم جماعة ونجا الباقون ، فقصدوا محموداً بحَرّان ،

واجتمعوا معه على حصار حلب فحصرها وملكها . وفي سنة ٤٥٥ نُدب بدر الجمالي لولايـــة دمشق على حربها وندب معه على الخراج أبو الحسين الزيدي ، ولم يلبث بدر أن انصرف عن ولاية دمشق هرباً من أهلها ، فولى المستنصر عليها حصن الدولة حيدرة ، ثم ولاه الشام بأسره (٤٥٨).

وفي سنة ٤٥٩ بعث المستنصر الى محمود بن الروقلية المتغلب على حلب يطالبه بحمل المال وغزو الروم وصرف ابن خاقان ومن معه من الغز فلم يجبه وقال : إنه لا مال له وأنه هادن الروم وأعطى ولده رهينة على مال اقترضه منهم فندب المستنصر بدراً الجمالي الى محاربتـــه فدخل ابن عمار صاحب طرابلس بينهما وأصلح الحال . وفي سنة ٤٦٠ كانت حرب بدمشق بين أمير الجيوش وبين عسكريته .

وفي سنة ٤٦١ وقع الخلف بدمشق بين العسكرية وبين أهلها وطرحت النار في جانب منها فاحترقت ، واتصل الحريق بالمسجد الجامع من غربيه ولم يبق منه إلا حيطانه الأربعة . واستولى في هذه السنة على دمشق معلى ابن حيدرة الكتامي من غير أن يؤمر له بذلك عند خلو دمشق من متولٍ بعدما هرب أمير الجيوش بدر الأرمني ، فأساء السيرة في أهلها وصادرهم وبسط العقوبة عليهم ،الى أن خربت أعمال البلد وجلا كثير من أهلها ، ووقعت بينه وبين حامية البلد وحشة خاف منهم على نفسه فهرب الى بانياس فصور فطرابلس فأخذ واعتقل ومات من الضرب .

وفي سنة ٤٦٣ استولى القفي على دمشق وطرد نـــواب أمير الجيوش واستولى على صور ابن أبـي عقيل،وعلى طرابلس قاضيها ابن عمار، وعلى الرملة والساحل ابن حمدان،ولم يبق غير عكا وصور ، ونزل هـذه السنة أمير الجيوش في العسكر المصري على صور محاصراً لابن أبـي عقيل القاضي الغالب عليه،فاستنجد هذا الأمير ترلو مقدم الأتراك بالشام،فـأنجده بستة آلاف فارس ، فرحل عنها أمير الجيوش ثم عاودها وحاصرها من البر والبحر سنة بدون طائل . وفتح الروم منبج وأحرقوها وبقيت معهم سبع سنين .

آخرة الفاطميين :

كان على حلب عند هلاك الحاكم عزيز الدولة فاتك الوحيدي ، وقد استفحل أمره وعظم شأنه وحدث نفسه بالعصيان ، فلاطفتـــه ست الملك عمة الظاهر لإعزاز دين الله وكفيلته ، وهي التي قـــامت بتدبير مملكة الفاطميين بعد مهلك الحاكم ، وساست الناس أحسن سياسة أربع سنين ، أعادت الملك فيها الى غضارته وعمرت الخزائن بالأموال واصطنعت الرجال ـ فلاطفته وبعثت إليه بالخلع والخيل بمراكب الذهب وغيرها ، ولم تزل تعمل عليـــه حتى أفسدت غلاماً له يقال له بدر فقتلـــه وحفظ الخزائن ووهبت له جميع ما خلفه وقلدته حلب . ولو لم يقيض الله للملك الفاطميين مثل هذه السيدة بعد الأحوال التي تمت على عهد الحاكم لكان الانقراض الى دولتهم قريباً جداً . ثم جاء ابنه الظاهر لإعزاز دين الله وكان حسن السيرة فرفع أيدي المتغلبين على الملك ، المتوثبين عـلى سلطان الفواطم ، واستقام له الأمر مدة . أمـــا أيام الخليفة المستنصر بالله خامس خلفائهم الذي بقي في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر فقد كانت على هذا المنوال من التسرع في نصب العمال وصرفهم والشام تشكو وتئن ، والبؤس أكثر من السعادة ، والمتغلبة منـــذ الثلث الأول من القرن الرابع كل يوم في شأن ، تارة يقوم فيها مثل سيف الدولة الذي كان يُلبس على علاته ، وتارة يقوم ابنه ومملوكه يستنجدان بالروم على المسلمين . ويرضيان بإعطـاء الجزية لهم ، ويدلانهم على عورات الجيران ، بعد أن كان مؤسس دولتهم سيف الدولة يقاتلهم ، ويظهر لهم من الشمم حتى يوم هزيمته مـا يبيض وجه العرب والمسلمين .

كان الفاطميون زمن المعز والعزيز على جـانب من القوة ، فتح المعز مصر فدخلها من الغرب في مئة وقيل في مئة وأربعين ألف مقاتل ، واستكثر من العساكر من كتامة وروم وصقالبة وبربر ومغاربة ، حتى قيل لم يطأ الأرض بعد جيوش الإسكندر بن فيلبس الرومي الكبير أكثر من جيوش المعز الفاطمي ، وربمـــا فاقت بعددها الجيوش التي جمعهـــا أبو الجيش

خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر والشام في القرن الثالث .

فبمثل هذه الجيوش استقام أمر الفاطميين لأول عهدهم في مصر والشام، فحكموا الى الفرات ومكة والمدينة والقدس والخليل وصارت مصر والمغرب مملكة واحدة ، والخلفاء من بني العبـــاس يحكمون من الفرات الى بغداد وأعمالها الى سائر المشرق، ويخطب لكل خليفة منهما في الجهـات التي تحت حكمه باسمه فقط ، ولمـــا ضعف أمرهم أصبح يحكم دمشق حمال التراب ، ويحكم صوراً الملاح، وثلاثة من البدو يتقاسمون ملك الشام ، والعباسيون في الشرق والفاطميون في الجنوب لا يبدون ولا يعيدون ، وعندهم القـــواد والأجناد ، وللأحداث أي فتيان العامة في حلب ودمشق القول الفصل ، يرفعون ويضعون ، ويتحكمون ويعبثون بالناس وأموالهم ، ويا بؤس بلاد يكون القول الفصل فيها لفوضى العامة .

كان حكام الشام يأتونهـا من الحجاز والعراق ، فأصبحوا يكتسحونها في هذه الأعصار من مصر والشمال ، وكان العمال والقواد عربـاً من بني أُمية وبني هاشم ومن والاهم، فصاروا مزيجاً من العجم والتركمان ، وكلهم سواء في ارتكاب المظالم والمغارم ، متى قوي سلطان الجار يهاجم جاره ، فتطل دماء الأبرياء على غير طائل . ولم تستقر المملكة على حالـــة معينة بضع سنين فكانت العوامل الجنسية والمذهبية تتنازعها وأهلها ، وبعد أن كانـــت الشام في القـرن الأول وثلث القرن الثـاني مصدر الحيـــاة العربية ، ومنبعث القوة الحربية ، أمست في القرون التاليـة أُلعوبـة أهواء الدخلاء، وطعمة الطامعين من أهل البوادي ومن جرت عليهم أحكام الرقيق من العبيد والبرابرة ، وبعد أن كان للعصبيات فيها شأن في القرنين الأولين أصبحت في القرون الثلاثة التالية ضعيفة ضئيلة ، لا يتعدى تأثيرها المصالح الخاصة ، ولا يفكر القائمون بها في غير السلب والاعتداء .

إن تسامح العباسيين بإدخال أهل غير عصبيتهم فيهم أدى الى انتشار كلمتهم وتمزيق جامعتهم ، وما كل القواد والعمال كإبراهيم بن المهدي وجعفر بن يحيى وطاهر بن الحسين وعبد الله بن طاهر . ولا كل المتوثبين على الملك في عقلهم وسياستهم كأحمد بن طولون وسيف الدولة بن حمدان .

دثرت تلك الطبقة الممتازة المختارة ، وخلف من بعدها خلفٌ من القواد والرجال ليسوا في الأكثر على شيء من حسن السياسة والإدارة . إذا كان لهم جيش عظيم رهبهم الناس،وإلا فالحكم للصعاليك والسلبة ، وهم أول الطامعين في السلطان ، العاملين على نقض بنيان الأوطان ، والناس بين مظلوم وظالم ، ومتخوف ومخيف . والمنافسة بين الأمراء على أشد حالاتها ، والشام مقسم الأجزاء بين كثيرين في سياسته الداخلية والخارجية ، مصر من الجنوب تشده ، وبغداد من الشرق تريد أن تسترده ، والطامعون فيه من الترك والتركمان والروم والقرامطة والعبيد والخدم والمماليك يسطون عليه فيدمرون عمرانه ، ويهلكون أهله وسكانه ، والناس في الواقع لا يعرفون لهم سيداً معيناً لتفرق قلوبهم ، وتباين منازعهم . وصاحب حمص غير صاحب حلب ، وصاحب دمشق غير صاحب صور أو الرملة ، مملكة هذا حالها تموت بحكم الطبيعة ، ولا تستريح من الغوائل نحال . والجسم يعيش بروح واحد وتعدد الأرواح يستلزم تعدد الأجسام .

بعد أن قتل القرامطةُ الباطنيةُ أهلَ مدن برمتها من هذا القطر استنجد أهل أعظم مدينة فيه بهم ، فوافوا يجوسون خلال ديارهم لينقذوها من دولة الفاطميين المسلمين ، وبعد أن ثبت أن الروم هم أعداء الشام بلا مراء ، أصبح أمراؤه يستغيثون بهم على أبناء ملتهم ليصفو لهم ملكهم الذي يريدون أن يعيشوا فيه قيد الأسر لعدوهم الخارجي ، ويستكثروا من القصور والجواري والمماليك والحاشية والغاشية ليكون كل صاحب مقاطعة في أُبهته كخليفة الوقت وزيادة . يسلبون نعمة الرعية لينعموا بما سلبوا ، كمن يحاول نقض أساس بيته ، يُجَمّل خارجه بإطار جميل ، أو يذهّب شرفته وجدرانه . وبينما كان العزيز الفاطمي يبثُّ دعاته لنشر التشيع في الأقطار التي انضوت الى علمه ، ويقتل هو وآله علماء المالكية لتشددهم في التسنن ، كان جمهور المسلمين غاضبين في مصر والشام لأنه وسد الأمر بمصر لرجل من الأقباط اسمه نسطورس ، وقلد أموال الشام لإسرائيلي اسمه منشا يجمعان الأموال ، يوليان أبناء نحلتهما الأعمال ، ويعدلان عن الكتاب والمتصرفين من المسلمين ، فعمد بعضهم في القاهرة الى مبخرة

من حديد وألبسها ثياب النساء وزينها بإزار وشعرية ، وجعل في يدهـا قصة على جريدة ، وكتب فيها رقعة ليراها العزيز عند مروره وهي : « بالذي أعز جميع النصارى بنسطورس وأعز جميع اليهود بمنشا وأذل جميع المسلمين بك إلا ما رحمتهم وأزحت عنهم هذه المظالم » فتوسطت ست الملك ابنة العزيز لنسطورس بالعفو . فحمل الى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار ، وأعاده الى ما كان ناظراً فيه وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه وأعماله . أمـا منشا فقتل اذ لم يستشفع فيـه أحد . تناقض في التسامح غريب في بابه ، وأصول في الإدارة لم يلاحظ فيها نزع العلة التي يشتكى منها ، بل كان ينظر فيها لمنفعة الخزانة ، أما الرعايا فأمرهم لله ، وحسابهم على سواه .

ولقد جـاء في الفاطميين وزراء عقلاء مثل الوزير ابن كلس المتوفى سنة ٣٨٠ الذي نصح للعزيز في مرض موتـه بقوله : « سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانيـة بالدعوة والسكة ، ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة » وكان ذلك غاية الغاية في سياسة الملك لأن الروم أُمة قوية عزيزة لا تخنع لجيرانها خلفاء مصر ولا لخلفاء بغداد ، وهي تراهم مختلفة كلمتهم جد الاختلاف متعبين في داخليتهم ، مشتغلين بالمنتقضين على سلطانهم ، فقد أجـاب العزيز الروم سنة ٣٧٧ الى الصلح واشترط شروطـاً شديدة التزموا فيها كلها . منها أنهم يحلفون أنه لا يبقى في مملكتهم أسير إلا أطلقوه ، وأن يخطب للعزيز في جامع قسطنطينية كل جمعة ، وهادنهم سبع سنين . أمـا الدولة الحمدانية فإنه على مـا يظهر لم يعجل انقراضها إلا اعتصامها في آخر أمرها بالروم، ونفضها يديها من طاعة العباسيين وطاعة الفاطميين معاً ، فاستهان بها عدوها وصديقهـا ، ودب الفساد ودخلت الدسائس وكان في ذلك زوالها ، وأما المفرج بن دغفل أمير بني طيء وسائر العرب بأرض فلسطين، فإنه كان عدواً لدوداً للفاطميين، قريباً من دار ملكهم يهددهم كل يوم ، وربمـا استطاع أن يستنجد بملوك الشرق على نقض عرى الملك الفاطمي . فهو بدوي والأعراب أي البادية ما دخلوا بلداً إلا أسرع إليه

الخراب ، وقيام الملك يحتــاج الى حسن تدبير وتقدير أكثر من البطش والجبرية ، ولذلك لم تتم لأمراء بني طيء في الجنوب، ولا لبني مرداس الكلابيين في الشمال دولة تعاقبت عليها بطون كثيرة في الشام وكيف كان حال هذه الدول فإن قاعدة الحكيم ابن خلدون في أن للدول أعماراً طبيعية كالأشخاص لا تنتقض في الدول التي يحكمها الأفراد حكمـاً استبدادياً ، وسعادة الدولة لا تدوم كالأفراد أكثر من أربعــة بطون : الأول يفتح ويجمع ، والثاني ينظم ويرتب ، والثــالث ينعم ويتمتع ، والرابع يفرق ويخرب ، تعالى الله .

دور السلجوقيين

« من سنة ٤٦٣ ـ ٤٩٠ »

أصل السلجوقيين والتركمان والفتح السلجوقي :

كانت الشام في معظم دور الفاطميين ككرة الصوالجة تتقاذفها القوات المختلفة . وقد قام الفاطميون بعقب انقراض الدولة الإخشيدية في مصر ، وورثوا تراثهم في قسم من هذه الديار ، ثم انقرضت دولة الحمدانيين في الشمال ، وكانت في آخر أمرها تفزع الى دولة الروم البيزنطية لتحميها بأس خلفاء المصريين من بني عُبَيْد . وقامت دولة بني مرداس ودولة بني الجراح ودولة بني سنان أي دول بني كلاب والطائيين وبني كلب الى غيرهم من الدول الجديرات بأن يطلق على القائمين بها خوارج على الفاطميين ، وكلهم أمراء عرب البادية أخضعوا المدن لسلطانهم مدة ، وكان قيامهم دليلاً على ضعف الدولة وسوء سياسة عمالها .

انقضى عهد الفاطميين أو كاد وكانت معظم أيامهم فتوحاً وفتوقاً ، ولم يخفق علمهم على الشام كله مدة طويلة ، بل كان إذا خضع الساحل خاصم الداخل ، وإذا أطاع الجنوب نشز الشمال . وهكذا كان الشقاء في أيامهم أكثر من السعادة ، والأهواء مشتتة ، والآراء ممزقة ، ولئن كان أول خلفائهم ممن ملك الشام المعز ثم العزيز يحبان العدل والإنصاف ، ولهما من الحزم قسط وافر ، إلا أن الولاة الذين تولوا الشام على عهدهما أيضاً كانوا في الأكثر ظلمة يسفكون الدماء ويستحلون أموال الرعية . فخرب القطر

في أيامها وضعف أهله وغلت الأسعار ولا سيما على عهد العزيز ، وكانا يبادران حالاً الى إبدال العمال مخافة أن ينزعوا الى العصيان . أما عهد الحاكم فكان الخلل المطلق ، لخلل في عقله وخرق في سياسته ، وكانت الشام بعده تختلف باختلاف العامل الذي ترسله مصر .

وبينا القطر متقلقل في سياسته أقبلت من الشرق قوة عظيمة لا قبل له بدفعها . قوة الدولة السلجوقية التركمانية الجديدة جاءت لتقضي على الدولة الفاطمية العربية التي نزل بها الهرم أو كاد . والسلجوقيون نسبة لسلجوق من صغار أمراء الترك في أرجاء بخارى ، يقسمون الى ثلاثة فروع ، فرع العجم وهذا الذي استولى على العراق والجزيرة ، ثم على الشام والحجاز واليمن ، وفرع الروم أي آسيا الصغرى ، وفرع كرمان . والتركمان قبائل كانت لأول أمرها تنزل بين بحيرة آرال وبحر الخزر ، وهم من أول الأتراك الذين دانوا بالإسلام وخدموا بني العباس ، هاجروا الى فارس والعراق وآسيا الصغرى . وهم أصل الترك العثمانيين سكان الأناضول ، وأعظم الشعوب التركية . والفرق طفيف بين لسانهم ولسان اويغور أي الجغتاي . وتنقسم الألسنة التركية الى خمسة أقسام وهي الجغتاي أو اويغور والنوغاي أي التتري والقرغيز والياقوت واللسان العثماني . فإذا أطلق اسم الترك فالمقصود منه الجنس الجامع لهذه الشعوب الخمسة ، وإذا قيل التركمان أريد به أعظم شعب في الترك ، وكلا الإطلاقين جائز . والتركمان على جانب عظيم من الشجاعة والفروسية ، أظهروا من الجلادة منذ وطئوا هذا القطر ما خلدوا به أعظم المفاخر ، وأسسوا في الشام حكومات منها المحمود ، ومنها دون ذلك .

لما سار السلطان آلب أرسلان ثاني ملوك السلجوقيين بجيوشه الى الشام، كانت مملكته تمتد الى الصين شرقاً، ومن أقصى ديار الإسلام شمالاً ، الى أقصى اليمن جنوباً ، وجاء الى حلب وأقام الحصار عليها وعظم القتال بين عساكره وحامية حلب لصاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ، ثم استسلم هذا وخلع عليه السلطان آلب أرسلان ، وأعاده الى بلده فبعث إليه مالاً جزيلاً . وفي تلك السنة (٤٦٣) قطع خطبة المستنصر العلوي

وخطب للقائم العباسي ، وبدأ ظل الدولة الفاطمية يتقلص ، وكان الحامل لآلب أرسلان على فتح الشام أن ناصر الدولة بن حمدان الحاكم المتحكم في الدولة المصرية أرسل يسأله أن يسير له عسكراً من قبله ليقيم الدعوة العباسية وتكون مصر له ، فتجهز آلب أرسلان من خراسان في عساكر جمة ، وكان جيشه فيما قيل لا يقل عن أربعمائة ألف .

وخلّف آلب أرسلان في الشام طائفة من عسكره فجمع أتسز بن اوق من أمراء السلجوقيين الأتراك الغز ،وسار الى فلسطين ففتح الرملة ، وسار منها الى بيت المقدس وحصره ، وفيه عسكر المصريين ففتحه ، وملك ما يجاوره ما عدا عسقلان ، وقصد دمشق فحصرها وتابع نهب أعمالها حتى خربها وقطع الميرة عنها ،فضاق الأمر بسكانها فصبروا ولم يمكنوه من ملك البلد فعاد عنه ، وأدام قصد أعماله وتخريبها كل سنة حتى قلّت الأقوات عندهم، فكان يأخذ الغلات عند إدراكها فيقوى بها هو وعسكره ويضعف أهل دمشق وجندها .

ولما ملك السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان (٤٦٥) سير أخاه تاج الدولة تتش الى الشام ، وقرر معه فتح ديار مصر والمغرب واستخلاصهما من العلويين ، وأمر مملوكيه بزان صاحب الرُّها وآق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض . وكان ملكشاه الملقب بالسلطان العادل وأبوه آلب أرسلان من قبل المثل السائر في آل سلجوق بعدهما ، ولم يكن للخليفة العباسي معهما سلطان في الحقيقة،على نحو ما كان العباسيون في الدهر السالف مع سلاطين بني بويه الأعاجم . عرفت الشام ذلك وكان مما يفتح القلوب لحكم السلجوقيين أنهم من أهل السنة يخطبون باسم بني العباس. وجميع هذه المزايا كانت مفقودة في الدولة العلوية المصرية .

فتح دمشق :

وفي سنة ٤٦٧ حاصر السلاجقة ثغر عكا وقتلوا واليها وساروا عنها الى طبرية ، وسار أتسز الى دمشق فحصرها وأميرها المعلى بن حيدرة من قبل الخليفة المستنصر ولم يقدر عليها فانصرف عنها ، وكان المعلى أساء

السيرة مع الجند والرعية وظلمهم ، فكثر الدعاء عليه وثار به العسكر ، وأعانهم العامة فهرب منها ، فخربت دمشق وأعمالها وجلا عنها أهلها ، وهان عليهم مفارقة أملاكهم وسلوهم عن أوطانهم ، بما عانوه من ظلمه، وخلت الأماكن من قاطنيها ، والغوطة من فلاحيها . ولما رحل المعلى عن دمشق اجتمعت المصامدة الفاطميون وولوا عليهم انتصار بن يحيي المصمودي وغلت بها الأسعار حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، ووقع الخلاف بين المصامدة وأحداث البلد ، وعرف أتسز ذلك فعاد الى دمشق فحصرها ، فعدمت الأقوات وبيعت غرارة القمح إذا وجدت بأكثر من عشرين ديناراً ، فسلموها إليه بالأمان وخطب بها للخليفة العباسي ، وكان آخر ما خطب فيها للعلويين المصريين . وتغلب على أكثر الشام ومنع الأذان بحي على خير العمل ، ففرح أهلها فرحاً عظيماً ، وظلم أهلها وأساء السيرة فيهم .

قال ابن عساكر : إن أتسز التركماني لما دخل دمشق وكان حاصرها دفعات ، أنزل جنوده دور الدمشقيين ، واعتقل من وجوههم جماعة ، وشمسهم بمرج راهط حتى افتدوا نفوسهم بمال أدوه له ، ورحل جماعة منهم عن البلد الى طرابلس الى أن أُريحوا منه بعد. وقال ابن الأكفاني: نزل أتسز محاصراً لدمشق ثم انصرف عنها،ثم عاد الى منازلتها ، ثم رحل عنها،ثم رجع إليها فحاصرها،ثم إنه فتح البلد صلحاً ، ودخلها هو وعسكره سنه ٤٦٨ وسكن دار الإمارة وخطب بها للمقتدي العباسي ، وكتب إليه يذكر له تسليمها إليه ، وغلو الأسعار بها ، وموت أهلها ، وأن غرارة القمح بيعت بمائتي دينار مما لم يعهد مثله . وأن أتسز نظر في أمور دمشق بما يعود بصلاح أعمالها ، وأطلق لفلاحي المرج والغوطة الغلات للزراعات فصلحت الأحوال ورخصت الأسعار .

ولما فتح أتسز دمشق وأقام الخطبة العباسية طمعت نفسه في ملك مصر، فسار (٤٦٩) من دمشق فيمن استطاع من الأحداث والجند ورجع خائباً بعد أن قتل من جنده جملة كثيرة جداً ، ثم أقام بدمشق وجاءه التركمان من الروم ولم يستخدم غيرهم ، وعصى عليه الشام وأُعيدت خطبة صاحب

مصر في جميع الشام ، قام بذلك المصامدة والسودان . وكـان أتسز وأصحابه تركوا أموالهم بالقدس ، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم ونسائهم فنهبوها واستعبدوا الأحرار ، فخرج من دمشق فيمن انضوى إليه ، ودخل القدس فقتل ثلاثة آلاف إنسان ، واحتمى قـوم بالصخرة والجامع فقرر عليهم الأموال لأنه لم يقتلهم وأخذ مالاً كثيراً ، وسار الى الرملة فلم ير فيها من أهلها أحداً ، فجاء الى غزة وقتل كل من فيهـا فلم يدع بها عيناً تطرف ، وجاء الى العريش فأقام فيه وبعث سرية فنهبت الريف وعادت،ثم مضى الى يافا فحصرها وهـدم سورها ، ثم عاد الى دمشق ولم يبق من أهلها عشر العشر من الجوع والفاقة،بل لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الوبـاء والغلاء والجلاء . وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان والأسواق خالية،والدار التي كـانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان الذي كان يساوي ألف دينار مـا يشترى بدينار ، وأكلت الكلاب والسنانير والفيران ، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم .

وعـاد الفاطميون يحاولون فتح دمشق وعليهم ناصر الدولة الجيوشي فحاصروها مدة (٤٧١) وترحلوا،ثم حاصروها مرة ثانية واستولوا عـلى أعمالها وأعمال فلسطين، فاضطر صاحبها أتسز الى الاستنصار بتاج الدولة، فلما عرف ناصر الدولة الخبر رحل عن دمشق وقصد الساحل . وكـان ثغرا صور وطرابلس في أيدي قاضييها قد تغلبا عليها ، ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش الفاطمي،ويصانعان الأتراك بالهدايا والألطاف . ووصل تاج الدولة الى عذراء في عسكره لإنجاد دمشق فخرج أتسز إليه وخدمه ثم قبض عليه وقتله وملك تاج الدولة دمشق،واستقام له الأمر وأحسن السيرة في أهلها بالضد من فعـل أتسز وملك أعمال فلسطين،ثم قصد حلب وملك حصن بزاعة (٤٧٠) وقتل جميع من فيـه ، وملك البيرة وأحرق ربض عزاز وغيرها من الحصون مع ما غلب عليه من القلاع المجاورة .

أول جمهورية عربية ومقتل آخر أمير عربي :

وفي سنة ٤٧٢ انقضت دولة بني مرداس بحلب،وكان قصدهـا تتش ابن آلب أرسلان فحاصرها أربعة أشهر ونصفاً،ثم رحل عنها فنازلها مسلم ابن قريش صاحب الموصل ، وتعهد لملكشاه السلجوقي أن يحمل إليه كل سنة ثلاثمائة ألف دينار فكتب له تقليداً،وعادت رياستها شورى في مشيختها وطاعتهم لمسلم بن قريش . ومعنى أن حلب أصبحت رياستها شورى في مشيختها أن الحلبيين لما نفضوا أيديهم من حام يحمي بلدهم ألفوا جمهورية من شيوخهم أدارت شؤونهم زمناً ، وجعلوا ملكهم صاحب الموصل . وذكر المؤرخون أن الحلبيين أحسنوا في هذه الحكومة ولم يختلفوا ونفذت قواعد العدل وستقر الأمر في نصابه . وسبب ميل الحلبيين الى مسلم بن قريش أن تتش بن آلب أرسلان حصر مدينتهم المرة بعد المرة واشتد عليها الحصار ، فكان ابن قريش يواصلهم بالغلات وغيرها ، ولما دخلها حصر القلعة واستنزل منها سابقاً ووثاباً ابني محمود بن مرداس ، وأنفذ الى السلطان يخبره بملك البلد ، وأنفذ مع الرسول شهادة فيها خطوط المعدلين بحلب بضمانها ، وسأل أن يقرر عليه الضمان ، فأجابه السلطان الى ما طلب . وفي سنة ٤٧٣ ملك جلال الملك ابن عمار قاضي طرابلس وصاحبها حصن جبلة . وكان ابن عمار غلب على تلك الأصقاع سنين وعجز والي الفاطميين بدر الجمالي عن مقاومته .

وفي سنة ٤٧٥ جمع تاج الدولة تتش جمعاً كثيراً وسار عن بغداد وقصد بلاد الروم أنطاكية وما جاورها،فلما سمع شرف الدولة صاحب حلب الخبر خافه فجمع أيضاً العرب من عقيل والأكراد وغيرهم،فاجتمع معه خلق كثير،فراسل الخليفة بمصر يطلب منه إرسال نجدة إليه.ليحصر دمشق فوعده بذلك . فلما سمع تاج الدولة الخبر عاد الى دمشق وحصرها وقاتله أهلها ، وفي بعض الأيام خرج إليه عسكر دمشق وقاتلوه ، وحملوا على عسكره حملة صادقة فانكشفوا وتضعضعوا ، وانهزمت العرب وثبت شرف الدولة وأشرف على الأسر وتراجع إليه أصحابه . فلما رأى ذلك

ورأى أن مصر لم يصل إليه منها عسكر وأتـاه من بلاده الخبر أن أهل حران عصوا عليه ، رحل عن دمشق الى بلاده وأظهر أنـه يريد بلاد فلسطين . رحل أولاً الى مرج الصفر فارتـاع أهل دمشق وتاج الدولة واضطربوا ، ثم سار من مرج الصفر مشرّقاً في البرية ، وجد في مسيره فهلك من المواشي الكثير مع عسكره وانقطع خلق .

وكان مسلم بن قريش الذي أحبه أهل حلب وأطاعوه من جملة عمال آلب أرسلان ، وكان سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب قونية وأقصرا وملاطية ومن عمال السلجوقيين وأنسبائهم أشار إليه ملك السلجوقيين الأكبر السلطان ملكشاه أن يستولي على أنطاكية (٤٧٧) ففعل ، ولمـا استقر فيها بعث إليه مسلم بن قريش يطلب منه المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية الرومي إليه فأبى وقال : أنا لا أدفع الجزية لأني مسلم ، فنهب مسلم بن قريش أنطاكية ، ونهب سليمان بن قتلمش حلب ، ثم جمع مسلم ابن قريش الجموع من العرب والتركمان ومعه أمير التركمان جبق في أصحابه وسار الى أنطاكية ليحصرها ، فسار إليه سليمان بن قتلمش فالتقيـا على نهر سبعين في موضع يقال له قُرزاحل واقتتلا ، فمـال تركمان جبق الى سليمان فانهزمت العرب وتبعهم مسلم بن قريش منهزماً ، فقتل بعد أن صبر وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب ، وسار سليمان الى حلب فحصرها (٤٧٨) ولم يبلغ منها غرضاً .

وفي هذه الوقعة التي قتل فيهـا سليمان بن قتلمش التركي مسلم بن قريش العربي انتقل ملك الشام من أيدي العرب الى الترك ولم يحـكم في الشام بعده إلا أمراء وملوك من التركمان والأتراك والشراكسة والأكراد . وكان الأتراك يأتون الشام منذ أوائل القرن الثالث عمالاً للعباسيين ، فلم تكن مقاتلهم بادية للعيان لأنهم كانوا يحكمون باسم الدولـة التي يعملون لها ، وكان أكثرهم على جـانب من حسن الأدب والإدارة نشأوا نشأة عربية ، وها قد جاء دور يعمل الأتراك فيه أحراراً لحساب أنفسهم ، بعد أن ختم الحكم العربي بمقتل مسلم بن قريش العقيلي ..

وعاد سليمان بن قتلمش في السنة التالية وقصد حلب فبلغه أن تاج الدولة

تتش قد تأهب لقصده فرحل عنها ، والتقى عسكره وعسكر تاج الدولة في موضع يعرف بعين سَيْلَم على ثلاثة أميال من حلب ، فكسر جيش تاج الدولة عسكر سليمان وقتل هذا في الهزيمة وملك تاج الدولة عسكره وسواده ونزل على حلب فتسلمها . ثم وصل ملكشاه وانهزم أخوه تاج الدولة من حلب وملكها ملكشاه مع أنطاكية . أي إن سليمان بن قتلمش أحد عمال السلطان ملكشاه السلجوقي ، قتل بأمر مولاه مسلم بن قريش ليأخذ بلاده ، فقام تتش أخو ملكشاه فقتل سليمان ، ثم قام تتش يريد الاستئثار بالملك دون أخيه ، وقد فاته أن ملكشاه تهتز الدنيا من جيوشه، وأخوه في الشام لا يخرج عن كونه والياً من ولاته ، والغالب أن تاج الدولة عرف هذا من نفسه فلم يسعه إلا أن يخدم أخاه .

ولما نزل ملكشاه بحلب دخل ابن منقذ صاحب شيزر في طاعته ، وسلم إليه اللاذقية وكفرطاب وأفامية ،فأقره السلطان على شيزر وسلم حلب الى قسيم الدولة آق سنقر جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل والشام،ووالد عماد الدين زنكي،وجد نور الدين محمود بن زنكي . ولما استقر آق سنقر في حلب وأعمالها بسط العدل في أهلها ، وحمى السابلة وتتبع المفسدين وأبادهم . وكان ملكشاه في سنة ٤٧٩ مَلَكَ حران وقلعة جعبر على الفرات ، ثم ملك منبج وحلب، أما دمشق فكانت بيد تاج الدولة تتش منذ سنة ٤٧١ أقطعه إياها أخوه السلطان ملكشاه مع ما يفتحه من بلاد الخليفة العلوي . وكانت جيوش الفاطميين تغزو بعض المدن الساحلية وتستردها من التركمان أحياناً ، وسلطة الفاطميين تتقلص اللهم إلا من فلسطين ، فإنهم بعد أتسز الخوارزمي أخذوا يستردونها وخرج (٤٧٨) أمير الجيوش بدر الجمالي بجيوش مصر فحصر دمشق وبها تاج الدولة تتش وضيق عليه فلم يظفر بشيء فارتحل عائداً الى مصر .

تنازع السلجوقيين والفاطميين وانقسام السلجوقيين :

لم ينقطع أمل الفاطميين من ملك الشام بعد أن قطعت خطبتهم من أهم

مدنها مرات ثم عادت إليها ، وبعثوا سنة ٤٨٢ جيشاً قصد الساحل وفتح ثغر صور، وكان تغلب عليها ابن أبي عقيل وامتنع عليهم ومات فوليها أولاده ودخلوا تحت راية تاج الدولة تتش ، فلما حصرهم عسكر المصريين سلموها إليهم ، ثم فتح الجيش الفاطمي صيدا وعكا وجبيل .

ونزل تاج الدولة (٤٨٣) على حمص ومعه آق سنقر وبزان وفيها خلف بن ملاعب الكناني ، فضايقوها الى أن ملكوها بالأمان . وخرج ابن ملاعب وسافر الى مصر ، ثم عاد وأعمل الحيلة حتى ملك حصن أفامية، واستخلصه منه قسيم الدولة آق سنقر في السنة التالية . وقيل : إن القتال كان على بعلبك وإن من حاربوا خلف ابن ملاعب قالوا له : أنت خطبت للمستنصر العلوي ، فلما أخافوه طلب الأمان .

وفي سنة ٤٨٤ فتح تاج الدولة عرقة وقلعة أفامية ، ثم سار الى طرابلس فحصرها وبها صاحبها ابن عمار ابن أخي القاضي أبي طالب بن عمار قاضي طرابلس والمتغلب عليها، وكان معه آق سنقر وبزان ونصب عليها المجانيق . فاحتج عليهم ابن عمار بأن معه منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس فلم يقبل منه تتش ذلك وتوقف آق سنقر عن قتاله فقال له تتش : أنت تبع لي فكيف تخالفني ؟ فقال : أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان . فغضب تتش ورجع الى دمشق . وذكر ابن الأثير : أن ابن عمار لما رأى جيشاً لا يدفع إلا بحيلة أرسل الى الأمراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم ليصلحوا حاله ، فلم ير فيهم مطمعاً، وكان مع آق سنقر وزير له اسمه زر بن كمر فراسله ابن عمار فرأى عنده ليناً ، فأتحفه وأعطاه فسعى مع صاحبه آق سنقر في إصلاح حاله ليدفع عنه ، وحمل له ثلاثين ألف دينار وتحفاً بمثلها، وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان .

وفي سنة ٤٨٦ خرج من مصر عسكر كثير الى صور لما عصى واليها منير الدولة ، وكان أهل صور أنكروا عصيانه فحين اشتد القتال نادوا بشعار المستنصر بالله العلوي، فهجم العسكر المصري على البلد وأخذها ، وفرض على أهلها ستين ألف دينار، وفي هذه السنة تحرك تتش من دمشق لطلب السلطنة بعد موت أخيه ملكشاه الذي توفي في السنة الماضية ، واتفق

معـه آق سنقر صاحب حلب ، وباغي سيان صاحب أنطاكية ، وبزان صاحب الرُّها،وسار معه آق سنقر فافتتح نصيبين والموصل وديار بكر ، وسار الى أذْرَبيجان ، وكان بركيارق بن ملكشاه قد استولى على جانب كثير منها ، فلما رأى آق سنقر ذلك تخلف عن معاونة تتش وقال : نحن إنما أطعنا تتش لعدم قيام أحد من أولاد السلطان ملكشاه ، أما إذا كان بركيارق بن السلطان قد تملك فلا نكون مع غيره . وخلى آق سنقر تتش ولحق ببركيارق فضعف تتش لذلك ، وعـاد من أذْرَبيجان الى الشام وأخذ في جمع العساكر وكثرت جموعه (٤٨٧) وجمع آق سنقر العسكر بحلب،وأمده الأمير بركيارق بالأمير كربغا صاحب الموصل، فاجتمع كربغا مع آق سنقر،والتقوا مع تتش عند نهر سبعين على ستة فراسخ من حلب واقتتلوا،فخامر بعض عسكر آق سنقر مع تتش وانهزم الباقون، وثبت آق سنقر فأخذ أسيراً وأحضر الى تتش فقال تتش لآق سنقر: لو ظفرت بي ما كنت صنعت،قال: كنت أقتلك،قال تتش : فأنا أحكم عليك بما تحكم عليّ به . فقتل آق سنقر وسائر أصحابه صبراً،وسار تتش الى حلب فملكها .

ورحل تاج الدولة عن حلب بعد أن ملكها وحصونها الى الفرات ، واستولى على حران وسروج والرُّهـا وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه في من بقي من الأجناد في الشام،فسار الى حلب ومنها الى العراق فالري،واستصحب معه جماعة من أُمراء العرب وأتراك حلب القسيمية ، نسبة لقسيم الدولة آق سنقر ، فجرت وقعـة بين السلطان بركيارق بن ملكشاه وبين عمه تاج الدولة تتش على عانة من عمل الجزيرة، فانفلّ عسكر هذا وتفرق ونهب سواده ، وأسر أكثر جنده وقتـل منه خلق كثير . واغتال بعض أصحاب آق سنقر تاج الدولة تتش فقضى عليه. ولما بلغ الخبر فخر الملوك رضوان في دمشق ما تم على أبيه تاج الدولة أغذّ السير الى حلب ففتحت له أبوابها ، ووصل إليه أخوه شمس الملوك دُقاق من ديار بكر ، وراسله الأمير ساوتكين الخادم المستناب في قلعـة حلب والبلد،وقرر له ملك دمشق سراً ، فخرج في الحال من حلب ، وجلس على سرير أبيه في دمشق ، واستقام له الأمر واستمرت على السداد

الأحوال . وفي سنة ٤٩٠ قدم على الأفضل بمصر رسل فخر الملوك رضوان بن تتش صاحب أنطاكية، يبذل له الطاعة في إقامة خطبة المستعلي بالشام ، فأجيب بالشكر والثناء وخطب للمستعلي .

تطال تتش الى ملك أخيه ملكشاه فصده عنه ابنه بركيارق وقتله . وقتل تتش آق سنقر لأنه لم يوافقه على رغائبه من نزع الملك السلجوقي من ابن ملكشاه ، وحنق تتش على آق سنقر منذ قال له يوم طرابلس وهو يريده على قتال صاحبها : نحن نطيعك إلا في عصيان السلطان . فقتل آق سنقر وجوزي تتش بأن قام من صنائع قتيله من يأخذ بثأره فقتله أيضاً . واستراح آل ملكشاه من تصدي تتش للملك وهو الذي لم يقنع بملك الشام،وكان فيه الملك الأعظم بعد مقتل آق سنقر . وتصرفت الأقدار بأن تتسلم زمام الأمر في هذا القطر ذرية تاج الدولة تتش ، ريثما ينتقل منها الحكم الى مملوك آخر اسمه طغتكين ، وهو يسلمه الى حفيد آق سنقر نور الدين محمود بن زنكي .

الدولة الأتابكية وطغتكين وبنو أرتق :

كان آق سنقر وبُزان صاحبا حلب وأنطاكية من مماليك السلطان ملكشاه ، وكان من أمرهما في الغناء والوفاء ما كان في الشام حتى مضيا لسبيلهما . ثم قام بمملوك آخر طالت مدته أكثر منهما وكان له في الدولة بالشام اليد الطولى والكعب المعلى ، ونعني به أبا منصور ظهير الدين أتابك طغتكين ، من مماليك تاج الدولة تتش بن آلب أرسلان ملك الشام ، ومعنى أتابك مربي أولاد الملك أو قائد الجيوش. قال ابن القلانسي: حظي هذا الأمير وهو في حداثة سنه عند السلطان تاج الدولة فقدمه على أبناء جنسه من خواصه وبطانته ، وسكن الى شهامته وصرامته ، وسداد طريقته ، فجعله مقدم عسكره ، واستنابه في تدبير أمر دمشق ، وحفظها أيام غيبته ، فأحسن السير فيها ، وأنصف الرعية من أهلها ، وبسط المعدلة في كافة من بها ، فكثر الدعاء له والثناء عليه ، فعلت منزلته وامتثلت أوامره ، ولم يلبث أن شاع ذكره بنجابته ، وأشفقت

النفوس من هيبته ، فولاه ميافارقين وديار بكر وهي أول ولايته ؛ وسلم إليه ولده شمس الملوك دقاق واعتمد عليه في تربيته وكفالته ، فساس أمرها بالهيبة والتدبير ، وأصلح فاسدها وقوّم منآدها .

قال : وتنقلت به الأحوال الى أن توجه مع تاج الدولة الى الري وشهد الوقعة التي استشهد فيها تاج الدولة ، وحصل في قبضة الاعتقال مع من أُسر من المقدمين ، وأقام مدة الى أن أُفرج عنه (٤٨٨) فتلقاه شمس الدولة دُقاق (بدمشق) وعسكره وأرباب دولته ، وبولغ في إكرامه واحترامه ، ورد إليه النظر في قيادة الجند ، واعتمد عليه في تدبير المملكة ، وسياسة البيضة ، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك وأمراء الدولة العمل على الأمير ساوتكين والإيقاع به ، وتمم عليه الأمر وقتل ، وعقدت الوصلة بينه وبين ظهير الدين أتابك وبين الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك دقاق ودخل بها ، واستقامت له الحال بدمشق وأحسن السيرة فيها ، وأجمل في تدبير أهليها ، وسكنت نفس شمس الملوك إليه اه .

فانظر الى غرائب التوفيق في الأرض كيف ينشأ مملوك ، ربما كانت يد النخاس مرت على رأسه ، يكفل ابن السلطان ويربيه ويتزوج بأمه ويتصرف في ملكه ويدبر أمره ، ثم يصبح بتجاربه وعقله ملكاً ترغب الملوك في التقرب منه ، ويخاف العدى بأسه وسطوته ، ويظهر في مظهر من طيب الأخلاق لا يضاهيه من تسلسل فيهم الحكم والملك ، وتنقاوا في السلطان كابراً عن كابر ، لكن هي التربية إذا حسنت أتى صاحبها بالعجائب ، والنفوس إذا صفت جبل الخلق على حبها ، والإرادات متى سلمت استمات الناس دونها ، وبهذا كان الناس ولا يزالون يحكم كبارهم صغارهم ، ويصبح المملوك ملكاً مطاعاً والمسود الخامل سيداً نابهاً ، وكم من عصامي أفلح ، ومن عظامي أخفق .

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خَلَق وجيب قميصه مرقوع

ومن المماليك الذين حكموا في الشام فأصبحوا ملوكاً في هذا الدور أيضاً بنو أُرْتُق ، نسبةً لجدهم أُرتق بن أكسك وقيل أكسب التركماني ومن مماليك ملكشاه بن آلب أرسلان . تغلب أُرتق على حلوان والجبل

وكان منصوراً لم يشهد حرباً إلا وكان الظفر لــه،ثم أمره مولاه ملكشاه سنة ٤٧٧ أن يذهب مع فخر الدولة بن جهير لضبط الموصل،وبينما كان مسلم بن قريش محصوراً في آمد ، راسله أرتق وأخذ منــه مالاً وافراً وفتح له طريقاً سار منه ، فأنهى ابن جهير ذلك الى ملكشاه فخاف أرتق وذهب الى دمشق والتحق بصاحبها تاج الدولة تتش، وعاونه على الاستيلاء على حلب ، وساعده في كثير من المواقف ، فأقطعه فلسطين ، أخذهـا من أصحاب أتسز أرتق الخوارزمي (٥٨٤) . فلما توفي صــارت القدس وعملها لولديه ايلغازي وسقمان ابني أرتق،حتى خرج عسكر خليفة مصر فاستولوا على القدس بالأمان في سنة ٤٨٩ بعد أن بقيت في حكم الأرتقية ثلاث عشرة سنة وأياماً . وسار سقمان وأخوه إيلغازي من القدس فاجتاز سقمان بدمشق وكان صاحبها متغيباً عنها فقاتله أهلها ومن فيها من الأجناد .

وفي سنة ٤٩٠ برز الملك رضوان صاحب حلب وياغي سيان صاحب أنطاكية الى ناحية شيزر وعزما على معاودة دمشق لفتحها ، فوقع الخلف بين مقدمي العسكر فرجع ملك حلب ، وورد عليــه كتاب المستعلي بالله الفاطمي يريده على الدخول في طاعته ، وإقامة الدعوة لدولته ، وكذلك كتاب الأفضل يتضمن مثل ذلك ، فأجابهما الى ما التمساه وأمر أن يدعى للمستعلي على المنبر وللأفضل بعده ، ثم يدعى له بعدهما ، ودامت الخطبة على ذلك أربع جمع . وكان الملك رضوان قد بنى الأمر في ذلك عــلى الاجتماع مع العسكر المصري والنزول على دمشق لأخذهــا من أخيه الملك دقاق . فأنكر سقمان بن أرتق وياغي سيان على الملك الدخول في الأمر ، واستبدعاه من فعله،وأشارا عليه بإبطاله واطراح العمل به، فقبل ما أشير عليه وأعاد الخطب الى ما كانت عليه أي للعباسيين . وجرى الاتفــاق على أن يخطب في دمشق لرضوان قبل أخيه دقاق ، وذلك بعد أن يخطب للخليفة ثم للسلطان ، وفي هذه السنة خرج العسكر من مصر ونزل على صور بعصيان واليه المعروف بالكتيلة،ولم يزل منازلها الى أن فتحها بالسيف قهراً وقتل فيها خلق كثير،ونهب منها المال الجزيل،وأخذ الوالي فقتل .

الحروب الصليبية

« من سنة ٤٩٠ ـ ٥٠٠ »

الحملة الصليبية الأولى :

لم يخل الجو لملوك التركمان السلاجقة وأتباعهم في الشام زمناً طويلاً بعد مقتل مسلم بن قريش العربي ، فكانت المدةُ بين مقتله وورود الأخبار بخروج عسكر الصليبيين الى الأرض المقدسة ثلاث عشرة سنة كما مضى مثل هذا العدد من السنين بين استيلاء أول تركي واستيلاء أول أفرنجي . وكان القطر خلال ذلك في هرج ومرج، يتطاحن أمراؤه يمزق بعضهم بعضاً . تتعاوره أيدي ملكشاه وأخيه تتش بن آلب أرسلان ثم أولاده رضوان ودُقاق والمماليك آق سنقر وبزان وطغتكين وأولاد أُرتق ايلغازي وسقمان ، والسلاجقة هنا يميلون الى الخلافة العباسية ، وإذا رأى بعضهم القوة لأصحاب الخلافة المصرية يغمضون الطرف عنهم ، والفاطميون لا يملكون غير بعض الساحل ، وأصبح القطر للتركمان، ويصعب على عرب الجزيرة إنجاده لبعد المسافات ، وبغداد مهد العرب مشتغلة بنفسها .

ربما كان في استيلاء التركمان على الشام خير لم تعرف حكمته إلا بعد حين ، وهو قيام دولة فتية لها جيش جرار اشتهر بالشجاعة حتى قيل : إن آلب أرسلان لما جاء المرة الأولى الى شمالي الشام كان في أربعمائة ألف مقاتل ، ومثل هذا الجيش لا تستطيع العراق والشام والجزيرة أن تجنده لدفع جيوش الفرنج الجرارة ، هذا على فرض أن قواها موحدة، وروحها

في الدفاع واحد ، فالشام إذاً اعتز بالتركمان . ثم إن السلجوقيين كانت بأيديهم الدروب أو المنافذ الى آسيا الصغرى أو طريق الإفرنج من أوروبا الى الشام على طريق البر ، فتولي دولة التركمان القيادة العامة جمع بالطبيعة حولهم العرب من سكان هذه الديار وما إليها . إن حكم التركمان الشديد عجل على ما يظهر في خروج الصليبيين الى الشام . وإليك البيان :

أثخن بنو سلجوق أصحاب آسيا الصغرى في جيش صاحب قسطنطينية بإيعاز السلطان ملكشاه ، وضايق الأمير بُرسق الروم ، حتى قرر على القسطنطينية في كل سنة حمل ثلاثمائة ألف دينار للسلطان ، وثلاثين ألف دينار له ، جزية يؤديها ، فخاف ملك القسطنطينية كثيراً على مملكته من هجوم المسلمين ، فكتب يستنهض ملوك أوروبا أن يأتوا لمساعدته،ورضي بطريرك القسطنطينية بأن يقدم خضوعه لبابا رومية ، إذا كانت ممالك أوروبا تجهز جيشاً لتخليص المملكة اليونانية مما يتهددها من هجوم التركمان والمسلمين ، فكاتب ملوك أوروبا بذلك .

قال صالح بن يحيى في سبب استيلاء الصليبيين على ديار المسلمين : إنه لما قويت دولة بني سلجوق ضعفت حال الخلافة ببغداد ، فلما مات ملكشاه السلجوقي سنة خمس وثمانين وأربعمائة وقع الخلف بين ولديه محمد وبركيارق ، ودام الحرب بينهما نحو اثنتي عشرة سنة فاضطربت ممالك الشرق لذلك ، ووافق هذا خلافة الآمر بأحكام الله بمصر وكان صغيراً، ولما كبر كان مستهتراً بالمملكة فخلا للصليبيين الجو .

وفي التاريخ العام أن حجاج النصارى كانوا يرمون الى أخذ القبر المقدس من أيدي المسلمين ، وإن كان هؤلاء يتركونهم وشأنهم يقومون بعبادتهم بسلام ، ولكن كان يتراءى للنصارى أن سيدهم المسيح يرضى عن عملهم إذا أنقذوا قبره من غير المؤمنين بدينه . وروى بعض المؤرخين أن الفاطميين هم الذين فاوضوا الصليبيين وأرادوهم على غزو الشام لينجوا من السلجوقيين الذين كانت قويت دولتهم . وهذا مما يستبعد ، وإن كان العقل لا يستبعد شيئاً في السياسة ، ولكن ظهر أن الفاطميين حاولوا غير مرة رد الصليبيين عن الساحل وعن فلسطين .

واتفق أن بعض زوار الأوروبيين في الأرض المقدسة شاهدوا شيئاً من العنف في بيت المقدس لم يكن لهم عهد به في أدوار الحكومات العربية القوية ، وانقلبت سماحة العرب بجفاء من خلفوهم من التركمان ، فعاد الزوار الى ممالكهم يقصون ما لقوا من الشدة في الشام ويعظمون الأمر ، وكان التعصب الديني يومئذ على أشد حالاته في الغرب ، ومعظم حكوماته تدين بدين البابا وتخضع لسلطانه القاهر ، ولم يكن ظهر إذ ذاك المذهب الإنجيلي ، وكان مذهب الروم الأرثوذكس آخذاً بالضعف ليس له روابط الكنيسة البابوية ولا سلطتها على الأرواح والأشباح، فأوعز البابا الى أمم النصرانية في الغرب ليهبوا كلهم الي إنقاذ القبر المقدس من أيدي المسلمين. وقد ذكر أهل الأخبار من الأوروبيين في تعليل الحروب الصليبية ، أن المسيحيين والمسلمين كانوا حتى القرن الحادي عشر للميلاد على صلات سلمية إلا قليلاً ، يحمل العرب الى مصر والقسطنطينية حاصلات مختلفة من بلاد الهند والشرق الأقصى ، فتستبضعها من المدن الإيطالية باري وبيزة وجنوة وأمالفي والبندقية فيبيعونها في أوروبا . وكان العرب يسمحون للزوار أن يأتوا زرافات الى فلسطين ، فيشخص إليها جماهير عظيمة من عامة نصارى الغرب يسجدون أمام القبر المقدس . وتضاعفت الحماسة الدينية في ذاك الزمن وتداعى الحكم العربي القائم على التسامح في قارة آسيا ، وقام مقامه المحاربون من الترك المعروفين بتعصبهم وبسالتهم . فاستولى السلجوقيون على أرمينية والشام ونيقية ودانت لهم في سنة (٤٦٩ هـ ١٠٧٦ م) القدس فاختلت العلائق الاقتصادية بين آسيا وأوروبا ، وخافت المدن التجارية في البحر المتوسط أن يغلق الأتراك أمامها أسواق الشرق .

نعم نشأت الحملة الصليبية الأولى من الحماسة الدينية بصنع البابوية التي كانت إذ ذاك الحاكمة المتحكمة في كل شيء . ولقد تأثر البابا أوربانوس الثاني بشكاوي الزوار القادمين من فلسطين. وقلق للارتقاء المخوف الذي بلغه المسلمون في الأندلس، ولا سيما عقبى وقعة الزلاقة سنة (٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م) وقد أثبت العرب فيها كفاءتهم الحربية، كما أثبتوا من قبل ومن بعد كفاءتهم المدنية ، واغتنم فرصة اجتماع المجمع الديني العظيم الذي التأم في مدينة

كلرمون وحضره ألوف من الفرسان ، ليحرض المؤمنين من النصارى على حمل الصليب لفتح القبر المقدس . فوعد جمهور كبير من جميع طبقات الشعوب أن يرحلوا الى فلسطين . واتخذوا شعار الحملة الصليبية صليباً من القماش الأحمر يجعل على الكتف الأيمن . وكثر المشتركون بهذه الحملة في ايطاليا وانكلترا ولا سيما في فرنسا . ومنحهم البابا غفراناً عن جميع خطاياهم ، وشجب كل من يمس أموالهم مدة سفرهم . ولم ينتظر العامة ريثما تجمع الجيوش المتحدة التي أبطأ تنظيمها ، بل سافروا بدون سلاح ، غير آخذين بالحزم في التأهب للرحلة . وكان هذا شأن عصابات البائسين الذين جمعهم بطرس الراهب وغوتيه المعدم (سانزافور) ومن لم يهلك من هذه العصابات في الطريق أهلكه الترك .

وفي أواخر سنة (٤٩٠ هـ ١٠٩٦ م) اجتمع في القسطنطينية أربعة جيوش متحالفة من اللورين والألمان بقيادة بودوين دي هينو ، وفرنسيين من الشمال بقيادة القومس فرماندوا ودوق نورمنديا ، وبرفنسيون بقيادة قومس طولوز، ونورميون من إيطاليا بزعامة بوهيموند دي ترانت وتنكري[1] ولم يكن مع هذه الأمم ملك من ملوكهم ، ولم يتفق رأي الغزاة على نصب ملك يرتضونه ويرجعون إليه . وكان الأمير الكسيس كومنين (ملك الروم) يرجو استخدام الجيوش الصليبية لفتح آسيا الصغرى، واسترجاعها من أيدي المسلمين ، فصانعوه ولكن ما لبث البيزنطيون واللاتين أن تباغضوا واحتقر بعضهم بعضاً . وبعد سنتين ونصف مضت في المصائب الهائلة والجدال العنيف ، استولى الصليبيون في طريقهم على نيقية لحساب الإمبراطور ، وكسروا جيش سليمان في دوريليوم (أسكيشهر) واستولوا على الرُّها (١٠٩٧) وعلى أنطاكية (١٠٩٨) وبلغوا القدس واستولوا عليها (٤٩٢ هـ ١٠٩٩ م) . وربما هلك في هذه الحملة نصف مليون من

---

(١) أخذنا بمصطلح مؤرخي العرب في أعلام الصليبيين فنقول : بغدوين بدلا من بودوين (Baudouin) وتنكري عوضاً عن تنكريد (Tancrède) وكدفري بدلا من كودفروا (Godefroy) .

الرجال حتى تهيأ للصليبيين أن ينشئوا أربع إمارات : إمارة القدس وإمارة أنطاكية وإمارة الرها وإمارة طرابلس ، قسمت أقطاعاً على الفرسان الغربيين . أما المدن الكبرى في الساحل الشامي فقسمت مستعمرات أوروبية أنشأت فيها مارسيليا والمدن الإيطالية أحياء برمتها .

وبذا رأينا أنه دعا الى الحملات الصليبية تعصب أوروبا الديني ، وحب الغارة والتجارة ، والأسباب التي دعت إليها واهية لا محالة . قال أحد كتاب روسيا : كان في الإمكان اجتناب وقوع الحروب الصليبية ، وساعد على حدوثها الجهل والأوهام الدينية والسياسية ومصلحة البابوية . وكم من أحزان وآلام وجرائم جديدة كان يمكن أن تتوفر على الإنسانية لو لم يوقف شارل مارتل العرب سنة ١١٠ للهجرة فإن المدنية الزاهرة التي كان يحملها أولئك الذين دعاهم الصليبيون في حال سخطهم وبغضهم بأبناء إسماعيل (Sarrasins) عبدة الأصنام والكفار والوثنيين ، كانت هذه المدنية تؤثر في أوروبا الغربية وتعمل عملها في المدنية الفرنجية والرومانية .

الصليبيون في شمالي الشام :

هذا ما كان من جهة الغرب وسر الحملة الصليبية الأولى على هذا الجزء الصغير من الشرق ، ولو كانت كلمة القابضين إذ ذاك على زمام الأمر في آسيا الصغرى وأرض الشام متحدة ، وحكوماتهم قوية منظمة ، لتعذر كل التعذر على الصليبيين أن يزحفوا على أنطاكية، ثم يسير جيشهم حتى يأخذ الساحل ويبلغ البيت المقدس على كثرة عدده ، فقد قيل: إن الحملة الأولى كانت مليون محارب ومحاربة ، لأن بعض الصليبيين كانوا يصحبون معهم أزواجهم وأولادهم . وفي رواية ميشو أن الحملة الأولى كانت ستمائة ألف محارب على حين كان جيش الإسكندر الذي فتح به آسيا ثلاثين ألفاً فقط . ومع هذا فإن الشام كان في ذاك العهد بحالة من تجزؤ الحكم بحيث لا تستطيع أن تجهز نصف جيش الفرنج ، وهي تحتاج الى حاميات عظيمة في الثغور والحصون والمدن الكثيرة . وكان المسلمون إذ ذاك كنصارى الأوروبيين مشتتة أهواؤهم غير منظمة قواهم . ومع

هذا فقد روى مؤرخونا أن الأخبار لما وصلت سنة ٤٩٠ ه الى الشام بظهور عسكر الفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة ، شرع الملك داود بن سليمان بن قتلمش ، وكان أقرب إليهم داراً في الجمع والاحتشاد ، واستدعى التركمان فوافاه منهم مع عسكر أخيه العدد الكثير وعادوا إليه ، واستظهروا عليه ، وكسروا عسكره فقتلوا منهم وأسروا ، ونهبوا وسبوا ، وانهزم التركمان واشترى ملك الروم من السبي خلقاً كثيراً وحملهم الى القسطنطينية .

ولما اتصلت هذه الأنباء بأمراء الشام ، قرّ رأي أصحاب أنطاكية وحلب ودمشق وغيرهم من صغار الأمراء على الاستصراخ والاستنجاد ، وتحصين أنطاكية وإخراج النصارى منها ، ولم تلبث عساكر الفرنج ان نزلت على حصن بغراس وأعادوا الكرة على أعمال أنطاكية فعصى من كان في الحصون والمعاقل المجاورة لها ، وقتلوا من كان فيها وهرب من هرب منها ، وفعل أهل حصن ارتاح مثل ذلك واستدعوا المدد من الفرنج. وكان نهض من عسكر الفرنج فريق يناهز الثلاثين ألفاً فعاثوا في الأطراف ووصلوا الى حصن البارة وفتكوا بأهله ، وكان عسكر دمشق وصل الى ناحية شيزر لإنجاد ياغي سيان ، فقتل الفرنج منهم جماعة،وعاد الفرنج الى الرُوج بين حلب والمعرة ، وتوجهوا الى أنطاكية وجعلوا بينهم وبينها خندقاً لكثرة الغارات عليهم من عسكرها .

وكان الفرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم ووعدوه بأن يسلموا اليه أول بلد يفتحونه،ففتحوا نيقية فلم يسلموها اليه على الشروط المقررة، وافتتحوا في طريقهم بعض الثغور والدروب وفتحوا الرُّها وما إليها وجاءوا أنطاكية فحاصروها تسعة أشهر حتى واطأهم قوم من الزرادين ومنهم أرمن على تسليم أنطاكية اليهم،وذلك لإساءة صدرت من صاحبها ياغي سيان الى الأرمن فصادرهم وأرهقهم ، ووجدوا الفرصة في برج من أبراج البلد مما يلي الجبل فباعوه من الفرنج وأطلعوهم الى البلد منه . فانهزم ياغي سيان بعد أن ظهر من شجاعته وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره،وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص ، ولما حصل بالقرب

من أرمناز قرب معرة مصرين سقط عن فرسه فمات . وقد قتل في أنطاكية وأسر وسبي من الرجال والنسوان والأطفال خلق كثير .

ولما سقطت أنطاكية عادت عساكر الشام فتجمعت،وحاصر المسلمون أنطاكية حتى عدم القوت منها،وأكل الفرنج الميتة،فزحفوا وهم على غاية من الضعف الى عساكر الإسلام ، وهم في الغاية من القوة والكثرة ، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم . والسبب في هذه الهزيمة أن كربوغا صاحب الموصل كان في عسكره على حصار أنطاكية مع أمراء دمشق وحلب وحمص وغيرهم،فأساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء وتكبر عليهم ، فخبثت نياتهم على كربوغا فهزمهم عدوهم وهو في ضعف وهم في قوة . قال صاحب التاريخ العام : وكان الجيش الإسلامي الذي دافع عن أنطاكية وأنجد صاحبها مؤلفاً من مائتي ألف محارب ، ولو استطاع هذا الجيش أن يصل كله الى أنطاكية لقضى على الصليبيين جملة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الصليبيين فاختلف البرفنسيون والنورميون ، حتى إن الفرسان هددوا المتحاربين من الفرنج أن يخربوا المدينة التي كانوا يتنازعون ملكها . وظلت الحرب على أنطاكية أربعة أشهر ففتحت بعد مذبحة هائلة قتل فيها من الفريقين ألوف .

ولما انهزم المسلمون أمام الفرنج على أنطاكية،سار هؤلاء بجملتهم الى المعرة وضموا إليهم الأرمن الذين كانوا في طاعتهم وبعض النصارى الشاميين،فاستولوا عليها ووضعوا السيف في أهلها،وقتلوا منها ما يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات،وسبوا مثلهم وأقاموا بالمعرة أربعين يوماً،ثم زحفوا عنها بعد أن قتلوا أهلها وقطعوا أشجارها . قال ميشو : إن الفرنج قتلوا جميع من كان في المعرة من المسلمين الذين اعتصموا بالجوامع واختبأوا في السراديب ، فأصبحت خاوية على عروشها ، وفقد الفاتحون كل زاد وساءت حالهم ، ثم وقع الخلاف بينهم وصاروا في رواية يأكلون جثث الموتى ، وهدموا أسوارها وأبراجها،وأحرقوا المساجد وكسروا المنابر وهدموا الدور ، ثم ساروا الى عرقة وحصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب، فلم يقدروا عليها،ثم ساروا الى حمص فصالحهم

أهلها وراسلهم صاحب شيزر على الصلح وعصت طرابلس عليهم لما بدا من شمم صاحبها ابن عمار واستنجاده بالملوك ، فصالحه صاحب أنطاكية وهاداه على أن يكون للفرنج ظاهر طرابلس ولا يقطع الميرة والمسافرين عنها ، وبهذا تيسر للفرنج أن يحفظوا خط رجعتهم في طريقهم براً الى القدس . وخرجوا على طريق النواقير الى عكا فلم يقدروا عليها .

فتح الصليبين القدس والساحل :

وبعد فتح الفرنج المعرة وغدرهم بأهلها ومن احتمى فيها ، وقطعهم على أهل البلد القطائع التي لم يفوا بشيء مما قرروه فيها ، ومطالبتهم للناس بما لا طاقة لهم به ، رحلوا الى بيت المقدس على طريق الساحل فأجفل الناس ، وكانت حلب على قيد غلوة من خطر استيلاء الفرنج ، ولكنهم أعلنوا يوم وصولهم أنهم لا يقصدون إلا الاستيلاء على ما كان للروم من المدن ، ليصرفوا فكر حكام الشام عن نجدة أهل أنطاكية ، ولكن أمراء الأقاليم لم يصغوا لهذه الدعوة ، ونزل الفرنج بعد أن اجتازوا معظم الثغور على الرملة فملكوها ، وانتقلوا الى بيت المقدس فضيقوا عليه ، فجاءهم الأفضل في العسكر الدثر من مصر للإيقاع بهم وإنجاد البلد ، فشدوا في قتاله ولازموا حربه ، فانهزم الناس وملك الفرنج البلد « ولبث الفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس أسبوعاً ، وقتل من المسلمين في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في ذلك الموضع الشريف،وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء » . وجمع الفرنج اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم ، وهدموا المساجد وقبر الخليل ، وأحرقوا المصاحف .

قال ميشو : « وقد ارتكب الصليبيون في فتح القدس أنواع التعصب الأعمى الذي لم يسبق له نظير ، حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يُكرِهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ويجعلونهم طعاماً للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ويجرونهم في الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين . ودام الذبح في المسلمين أسبوعاً حتى قتلوا منهم كما اتفق على ذلك مؤرخو الشرق والغرب سبعين

الف نسمة،واليهود كالعرب لم ينجوا من الذبح أيضاً، فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجأ إليه أبناء إسرائيل وأهلكوهم كلهم بالنار » .

ذكر ابن خلكان أن الأفضل كان تسلم القدس من سقمان بن أرتق وولى فيه من قبله فلم يكن لمن فيه طاقة بالفرنج فتسلموه منه ، ولو كان في يد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين . وكان الأفضل راسل الأمير سقمان وإيلغازي ابني أرتق ليسلماه بيت المقدس بدون حرب فلم يجيباه،فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانباً فلم يجدا بداً من الإذعان له فسلماه إليه ، وكان الأمير أتسز بن أوق الخوارزمي انتزع القدس من يد المصريين سنة نيف وستين وأربعمائة قبل ملكه دمشق ، ثم لما كسر بمصر سنة ٤٦٩ قام على أصحابه فئة فأخرجوهم ثم أعاد الدعوة العباسية ، ولم يزل القدس بيده الى أن قتله تاج الدولة تتش بن أرسلان سنة ٤٧٢ ثم انتزعه تاج الدولة سنة ٤٧٤ ثم سلمه الى الأمير ظهير الدين أرتق أواخر سنة ٤٧٨ فعمره وأسكن به ولده،ولم يزالوا به الى سنة ٤٩١ حتى تسلمه المصريون . وجاء الأفضل وقد فات الأمر فانضاف إليه عساكر الساحل، ونزل بظاهر عسقلان منتظراً وصول الأسطول في البحر ، فنهض عسكر الفرنج إليه وهجموا عليه في خلق عظيم ، فانهزم العسكر المصري الى ناحية عسقلان ودخل الفرنج إليها ، وتمكنت سيوفهم من المسلمين ، فأتى القتل على الرجالة والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ونُهب العسكر الإسلامي ، وتوجه الأفضل في خواصه الى مصر ، وضايقوا عسقلان فقتل من أهلها وغيرهم سوى أجنادها ألفان وخمسمائة نفس .

ولما توغل الصليبيون في الشام ، وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون أهله ، ويخربون عمرانه ، ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره ، هام الناس على وجوههم في البراري ومنهم من قصد الى داخلية الشام،ومنهم من فرّ الى مصر على حالة رثة . وفي سنة ٤٨٥ ملك الفرنج ما حول بيت المقدس مثل صور وعكا والرملة ويافا ، أما بقية الساحل كطرابلس وبيروت واللاذقية فبقيت تقاوم الى حدود سنة ٥٠٠ معتصمة وراء أسوارها محصورة في بقعة ضيقه من أرباضها ، معتمدة على معاونة الفاطميين لها من البحر .

وكان الفرنج أول ما ملكوا من هذه الأرجاء الرُّها وما حولها من الحصون الفراتية قبل ملكهم أنطاكية والمعرة . وظلت بيروت في أيدي المسلمين الى سنة ٥٠٣ حتى فتحها بغدوين بعد أن حاصرها حصاراً شديداً وقتل من أهلها عالماً كثيراً . ودام ملوك الفاطميين ينجدون الساحل والداخل بجنودهم ، ولولاهم لتيسر للفرنج اكتساح هذه الأرجاء بمجرد سير جيوشهم الجرارة ، وحالت أسوار المدن بينهم وبين ما كانوا يؤملون ، وصحت نيات القائمين بالأمر فيها ، ولا سيما في المدن الداخلية ، على الدفاع ، فكانت هجمات العدو يُبددها في الغالب دفاع السكان على ضعف قواهم وتشتت أهوائهم ، وموقف المدافع أسهل من موقف المهاجم .

ومن أهم الأحداث بعد دخول الفرنج أنطاكية خروج صاحبها بيمند سنة ٤٩٣ الى حصن أفامية، فوصل الخبر الى الدانشمند التركماني صاحب ملاطية وسيواس وعسكر قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش صاحب قونية وأقصرا ، فقتل من عسكر الفرنج عدداً عظيماً ، وحصل بيمند في قبضة الأسر مع نفر من أصحابه،ونفذت الرسل الى نوابه في أنطاكية يلتمسون تسليمها . قال صاحب الكامل : لم يفلت أحد من الفرنج في هذه الوقعة وكانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين . ووصل كدفري صاحب بيت المقدس الى عكا ، وأغار عليها فأصابه سهم فقتله ، وكان قد عمر يافا وسلمها الى طنكري،فلما قتل كدفري سار أخوه بغدوين القمص صاحب الرُّها الى بيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل، فجمع صاحبا دمشق وحمص الجموع ولقياه بالقرب من بيروت ، فسارع نحوه صاحب حمص في عسكره فظفر بـه وقتل بعض أصحابه . وفيها افتتح الفرنج حيفا على ساحل البحر وأرسوف بالأمان وأخرجوا أهلها منها، وفتحوا قيسارية وقتلوا أهلها ونهبوا مـا فيها وأعانهم الجنويون عليها . وكان الجنويون والبيزيون يبعثون كل سنة بمراكب الى ثغور الشام .

وأرسل عبد الله بن صليحة المتغلب على ثغر جبلة الى صاحب دمشق ، يلتمس منه إنفاذ من يراه من ثقاته ليسلم إليه جبلة ، فانتدب ولده تاج الملوك فتسلمها ، وأساء هو وأصحابه الى أهلها وظلموهم ، فشكوا حالهم

الى ابن عمار صاحب طرابلس فأنهض إليهم عـدة وافرة من عسكره ، فدخلت الثغر واجتمعت مع أهله على التركمان فقهروهم وأخرجوهم منـه وملكوه ، وحملوا تاج الملوك الى طرابلس فدمشق معززاً . وفي رواية أن الفرنج استولوا على جبلة هذه السنة . وفيها خرج من مصر عسكر كثيف مع سعد الدولة المعروف بالقوامسي ووصل الى عسقلان لجهاد الفرنج ورحل عنها ، فنهض من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل والتقى الفريقان فكسرت ميمنة المسلمين واستشهد سعد الدولة وعاد المسلمون على الفرنج وتذامروا عليهم وتحاضوا على قتـالهم ، وبذلوا النفوس في الكرة عليهم فهزموهم الى يافا وقتلوا منهم وأسروا . وفيها نزل صنجيل على طرابلس،وكان جاءه أربعون مركباً مشحونة بالرجال والمـال ، فعطب بالرياح أكثرها ، فكتب صاحبها الى دمشق يستصرخ،فسار عسكرها مع صاحب حمص الى أنطرطوس والتقوا بالفرنج،فانهزم صاحب حمص وعاد الفرنج الى قتال طرابلس وعاد ابن عمار الى الاستصراخ بصاحبي حمص ودمشق،فدفعوا الفرنج عنه بعد أن قتل من أهل طرابلس سبعـة آلاف رجل،ونازل صنجيل طرابلس وحصرهـا وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها،وكذلك أهل السواد وأكثرهم نصارى ، ثم هادنهم على مـال حمله أهل طرابلس الى صنجيل ، فسار الى أنطرطوس ففتحها وقتل من بها من المسلمين ، ثم رحل الى حصن الطوبان وهو يقارب رفنية،ومقدمه يقال له ابن العريض فقاتلهم فنصر عليه أهل الحصن وأسر ابن العريض منه فارساً من أكابر فرسانه ، فبذل صنجيل في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبه ابن العريض الى ذلك . ثم سار صنجيل وحـاصر حصن الأكراد فجمع تاج الدولة صاحب حمص العسكر ليسير إليه فوثب به باطني واغتاله ، ولما بلغ صنجيل ذلك رحل عن حصن الأكراد الى حمص ونازلها وملك أعمالهـا . وفي هذه السنة أطلق الدانشمند صاحب سيواس بيمند الفرنجي صاحب أنطاكية من الأسر وأخذ منه مائـة ألف دينار ، ولما خلص من الأسر عاد الى أنطاكية فقويت نفوس أهلها به ،

ولم يستقر حتى أرسل الى أهل العواصم وقنسرين ومـــا جاورها يطالبهم بالأتاوة،فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التي بناها الدانشمند.

تخاذل أمراء المسلمين وبلاء طغتكين وابن عمار :

جهز ملك مصر في سنة ٤٩٦ عسكراً بقيادة ابنه شرف المعالي ، وسير الأسطول في البحر فاجتمع بالعسكر الذي خرج سنة ٤٩٥ وعليه سعد الدولة القوامسي بيازور على ساحل الرملة ، والتقيا مع عسكر الفرنج فهزموهم، وحاصر شرف المعالي قصراً كان الأفشين قد بناه قريباً من الرملة وملكه قهراً ، وقتل من كان به من الفرنج فحضر في البحر عدة مراكب نجدة لهم وحاصروا عسقلان ، فرحل شرف المعالي من الرملة الى عسقلان ، فارتحل الفرنج عنها ، وكتب الأفضل الى شمس الملوك دُقـــاق صاحب دمشق يستنجده على الفرنج فاعتذر عن ذلك .

وفي سنة ٤٩٧ وصلت مراكب الفرنج في البحر الى ظاهر اللاذقيـــة مشحونة بالتجار والأجناد والحجاج وغير ذلك ، فاستنجد بهم صنجيل المنازل لطرابلس في مضايقتها والمعونة على ملكها ، فاجتمعوا معه عـــلى منازلتها،فقاتلوها أياماً ورحلوا عنها،ونزلوا على ثغر جبيل ،فقاتلوه وضايقوه وملكوه بالأمان ثم غدروا بأهله وصادروهم ، واستنفدوا أموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب . وفيها التقى عسكر الأميرين سقمان بن أرتق صاحب آمد وجكرمش صاحب الموصل بعسكر بيمند وطنكري في عسكريهما من ناحية أنطاكية فانتصر المسلمون .

ونزل بغدوين صاحب بيت المقدس على ثغر عكا — وواليها من قبل المصريين زهر الدولة الجيوشي — ومعه الجنويون والمراكب في البحر والبر، وهـم الذين كانوا ملكوا ثغر جبيل في نيف وتسعين مركباً فحصروه من جهاته ، ولازموه بالقتال الى أن عجز واليه ورجاله عن حربهم ، وضعف أهله عن المقاتله وملكوه بالسيف قهراً . ونزل الفرنج على حصن بَسَرفوت ورموه بالمناجيق ففتحوه بالأمان وأطلقوا من كان فيه ، وكـان من أمنع حصون جبل بني عليم من حيز حلب . وظهر ابن عمار صاحب طرابلس

في عسكره وأهل البلد وقصد الحصن الذي بناه صنجيل عليهم ، وهجم على غرة ممن فيه ، فقتل من به ونهب ما فيه وأحرق وأخرب ، وأخذ منه السلاح والمال والديباج والفضة ، هذا وملوك الإسلام إذ ذاك مشتغلون بقتال بعضهم بعضاً وقد تفرقت الآراء وتمزقت الأموال . وقصد الفرنج حران فاتفق صاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وماردين ومعهم العرب والتركمان واجتمعوا بالفرنج على الخابور على نهر البليخ فهزم الفرنج وأسر ملكهم القومص .

وفي سنة ٤٩٨ خرج صاحب حلب عازماً على قصد طرابلس لمعاونة صاحبها ابن عمار على الفرنج النازلين عليه ، وكان الأرمن في حصن أرتاح قد سلموا إليه الحصن لما شملهم من جور الفرنج ونزل عليها فوقع المصاف بين المسلمين والفرنج عند شيزر ، فثبت راجل المسلمين وانهزمت الخيل ، ووقع القتل في الرجالة ولم يسلم منهم إلا القليل ووصل الفلُّ الى حلب ، وحين عرف ذلك من كان في أرتاح من المسلمين هربوا بأسرهم منها فملكها الفرنج، ثم قصدوا حلب فأجفل أهلها منهم واضطربت أحوال من بالشام .

وفي هذه السنة خرج من مصر عسكر كثيف يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل مع شرف المعالي ولد الأفضل ، وكوتب صاحب دمشق بالاستدعاء للمعونة فنزل هذا على بُصرى ثم قصد ظاهر عسقلان، فتجمع الفرنج وقصدوا عسقلان فالتقى الفريقان بين يافا وعسقلان ، واستظهر الفرنج على المسلمين وقتلوا والي عسقلان ، وانهزم عسكر مصر الى عسقلان ، وعسكر دمشق الى بصرى ، وكان صاحبها أيتكين الحلبي راسل بغدوين ملك الفرنج للاستنجاد به ، وتوجه أيتكين وأرتاش بن تاج الدولة نحو بغدوين ، وأقاما عنده مدة يحرضانه وقومه على المسير الى دمشق ، ويبعثانه على الإفساد في أعمالها فلم يجبها ، فلما يئسا توجها الى ناحيه الرحبة.

وتوجه صاحب دمشق الى بعلبك ، وقرر أمورها وكف الأذى عن واليها كمشتكين الخادم التاجي ، وتوجه الى حمص وقصد رفنية ونزل عليها ، ووفد عليه خلق كثير من جبل بهراء في عمل حمص ، فهاجموا رفنية على حين غفلة من أهلها ، وغرة من مستحفظيها ، وقتلوا من بها

وبأعمالهـــا وأحرق ما أمكن إحراقه من الحصن المحدث عليها من الفرنج وغيره ، وملكت أبراج رفنية وهدم الحصن وقدم من كان فيه .

وفي سنة ٤٩٩ سار الفرنج الى أفامية وحاصروها وملكوا البلد والقلعة وقتلوا القاضي المتغلب عليها ، وكان هذا كتب الى صاحب حلب لإنقاذ البلاد من المستبد بها خلف بن ملاعب الكلابـي الذي كان دأبه إخافـــة السبل ، فقتله والتجـــأ ابنه مصبح الى طنكري صاحب أنطاكية وحرضه على العود الى أفامية وأطمعه في أخذها لقلة القوت بها،فنهض إليها ونزل عليها وضايقها الى أن تسلمها بالأمان . والغالب أن الإسماعيلية هم الذين ملكوا حصن أفامية باسم الملك رضوان صاحب حلب ، وكان بنى لهـــم بحلب دار دعوة وهو أول من عملها . وكان بأفامية رجل من دعاتهم ، يقال له أبو الفتح السرميني فقرر ذلك لمنع أهلها ، فنقبوا السور وهجموا على ابن ملاعب وقتلوه ونادوا بشعار الملك رضوان. وبقي الحصن في أيديهم حتى أخذه الفرنج منهم في سنة ٥٠٠ .

وفي سنة ٤٩٩ ملك صنجيل مدينة جبلة ، ثم سار وأقام على طرابلس فحصرها وبنى بالقرب منها حصناً ، وبنى تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل،فخرج صاحب طرابلس فأحرق الربض وهلك صنجيل عـلى أثر حرق بجسمه « ودام الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم ، وقلّـت الأقوات بها وجـــلا الفقراء وافتقرت الأغنياء » . قال ابن الأثير : وكانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام تجملاً وثروة ، فباع أهلها من الحلي والأواني الغريبة ما لا حد عليه حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدينار .

حرب طغتكين للصليبيين :

خرج الفرنج الى سواد طبرية (٤٩٩) وشرعوا في عمارة حصن علعال بين السواد والبثنية،أو بين الغور وجبل الشراة،وكان من الحصون الموصوفة بالمنعة ، فلما عرف صاحب دمشق هذا العزم منهم نهض ، فملك الحصن وقتلهم وأسرهم . قال ابن الأثير : وقد قال طغتكين للمقاتلة يومئذٍ :

من أحسن قتال الفرنج وطلب مني أمراً فعلته معه ، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير ، فبذل الرجالة نفوسهم وصعدوا الى الحصن وخربوه وحملوا حجارته الى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم ، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي وأسروا من بالحصن فأمر بهم فقتلوا كلهم واستبقى الفرسان ، ثم سار الى حصن رفنية فحصره وملكه ، وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج .

وفي السنة التالية (٥٠٠) زاد عيث الفرنج في أعمال السواد وحوران وجبل عوف (عجلون) ، فنهض صاحب دمشق بالعسكر وخيم في السواد. وهجم عز الملك والي صور على ربض حصن تبنين في جبل عامل من عمل الفرنج وقتل من كان فيه ، فنهض بغدوين من طبرية ، وسار صاحب دمشق الي حصن بالقرب من طبرية فيه جماعة من فرسان الفرنج فقاتله وملكه وقتل من كان فيه. وأقطع صاحب دمشق الأمير الأصفهبد التركماني وادي موسى ومآب والشّراة والجبال والبلقاء ، وكان الفرنج قد نهضوا الى هذه الأعمال وقتلوا من فيها وسبوا ونهبوا ، فلما وصل إليها وجد أهلها على غاية الخوف من الفرنج ، ونهض هؤلاء لما عرفوا خبره من ناحية البرية وكبسوه على غرة ، فانهزم واستولى الفرنج على سواده .

وتتابعت المكاتبات من صاحبي دمشق وطرابلس الى محمد بن ملكشاه السلجوقي بعظيم ما ارتكبه الفرنج، وتملك الحصون والمعاقل، والفتك بالمسلمين ومضايقة ثغر طرابلس ، والحض على تدارك الناس بالمعونة ، فوقع خلاف بين الأمراء الذين انتدبهم صاحب حلب ودمشق وغيرهما في جهات الرحبة، والتقوا مع عسكر قلج أرسلان في أراضي الموصل ، ونسوا الغرض الذي نُدبوا إليه . وقلج أرسلان التركماني هو الذي أعان ملك الروم في القسطنطينية على بيمند ملك الفرنج، فاستظهر الروم والتركمان على الفرنج وكسروهم كسرة شنيعة أتت على أكثرهم بالقتل والأسر وتفرق الباقي منهم عائدين الى ديارهم .

حروب الصليبين
ودولة طغتكين وبقايا السلجوقين
« من سنة ٥٠٠ الى ٥٢٢ »

هدنة طغتكين للصليبيين وشدته عليهم :

انسلخ القرن الخامس ، وأهم ما دهم القطر فأوقع الاضطراب فيه ، انهيال جيوش الصليبيين عليه ، وتبلج القرن السادس والصليبيون في الشام، منذ عشر سنين ، استصفوا الساحل وبعض الداخل ، والحرب بين أمراء الشام وبين الفرنج على أشد حالاتها ، وشعر أمراء المسلمين بالخطر المداهم لكن القوى لم توحد ، وكيف يخضع صاحب آمد لصاحب دمشق أو صاحب حلب لصاحب الموصل ؛ وكل منهم يدعي التفوق ويود لو ينال من جاره ليكون له الأمر كله ، وكان طغتكين صاحب دمشق يحمل العبء الثقيل لأن مملكته تتاخم أرض فلسطين ، وملوك الأطراف أبعد دياراً ، وكان همه قتال الأعداء من الجنوب والغرب ، وحفظ الموازنة مع صاحب حلب حتى لا يستخذي فتسقط دمشق بل الشام بأسره .

وأهم الأحداث في العقد الأول من هذا القرن إقامة صاحب القدس على تل المعشوقة في صور (٥٠١) بناء ، ومصانعة واليها على سبعة آلاف دينار ،واشتداد الأمر بابن عمار في طرابلس لحصار الفرنج ومضيه الى بغداد مستنجداً ، وقد استناب ابن عمه أبا المناقب ، فنادى بشعار الأفضل صاحب مصر ، فقبض عليه وحمل الى حصن الخوابي . وطال مقام ابن عمار في مدينة السلام على غير طائل، وأنفذ الأفضل من مصر الى طرابلس

في البحر الغلة والميرة ووالياً من قبله فتسلم البلد . وأسرى صاحب دمشق الى طبرية وفرق عسكره فرقتين ، نفذت إحداهما الى فلسطين ، وأغـــار بالثانية على طبرية ، وأحاطت الخيل بصاحب طبرية وبأصحابه فقتــل أكثرهم . ونهض صاحب القدس الى صيدا براً وبحراً ونصب برج الخشب عليه ، ووصل الأسطول المصري فظهر على مراكب الفرنج وعسكر البر واتصل بهم نهوض العسكر الدمشقي لحماية صيدا فرحلوا عنها .

وتسلم الفرنج عرقة بالأمان (٥٠٢) ، وكان أنجدها صاحب دمشق فعاقته الثلوج والأمطار عن الوصول إليهـــا ، فرجع الى حصن الأكمة مقاتلاً ، ثم رحل عنه شبه المنهزم الى حمص . ونزل الفرنج على طرابلس وشرعوا في قتالها ومضايقة أهلها زهاء أربعة أشهر ، فشمل اليأس أهلهـا لتأخر وصول الأسطول المصري في البحر ، فملكها الفرنج بالسيف « ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها ، وما كان منها في خزائن أربابها ، ما لا يحد عدده ولا يحصر ، ونزل بأهلها أشد البلاء ، وتقرر بين الفرنج والجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من البلد وما نهب منه ، والثلثان لريمند بن صنجيل وأفردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به » . وذكر النويري أن السبب الذي دعا أهل طرابلس الى التسليم ، أنهم بينا كانوا ينتظرون وصول النجدة بحراً من مصر ، جاءهم رسول منها على مركب يطلب منهم لاسم الخليفة الفاطمي جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لعمل عود وغيره من آلات الطرب .

وبعد فتح طرابلس سار الفرنج الى جبلة ، وسار جاولي الى بالس ، فهرب من بها من أصحاب الملك رضوان صاحب حلب ، فحصرها خمسة أيام وملكها بعد أن نقب برجاً من أبراجها . وافتتح السرداني المتغلب على عرقة حصن بانياس ، ونزل على ثغر جبيل وفيه ابن عمـار فخرج منه بالأمان ، ووصل الأسطول المصري بعد أخذ طرابلس فأقام بالساحل مدة وفرقت الغلة في جهاتها ، وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت ، وشكوا ضعفهم عن مقاومة الفرنج . وفيها كان المصاف بين جاولي وبين

طنكري صاحب أنطاكية ، وسبب ذلك على ما رواه ابن الأثير أن الملك رضوان كتب الى طنكري يعرفه ما عليه جاولي من الغدر والمكر والخداع ويحذره منه ويعلمه أنه على قصد حلب ، وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام ، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه ، فأجابه طنكري الى منعه ، وبرز من أنطاكية ، فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس . ولما وقعت الحرب لم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية ، ثم انهزم جاولي وبقية عسكره ، وقتل من المسلمين خلق كثير ، ونهب صاحب أنطاكية أموالهم وأثقالهم وعظم البلاء عليهم من الفرنج، وهرب القمص وجوسلين الى تل باشر ، والتجأ إليهما خلق كثير من المسلمين ففعلا معهم الجميل وداويا الجرحى وكسوا العراة وسيراهم الى بلادهم .

وفيها كانت حرب شديدة بين طغتكين والفرنج على طبرية ، واشتد القتال فانهزم المسلمون ، ثم نادى طغتكين بالمحاربين وشجعهم ، فعاودوا الحرب وكسروا الفرنج وأسروا ابن أخت ملك القدس ، وحمل الى طغتكين فعرض طغتكين عليه الإسلام فامتنع ، وبذل في فداء نفسه ثلاثين الف دينار وإطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الإسلام وقتله بيده . ثم اتفق طغتكين وبغدوين ملك الفرنج على وضع الحرب أربع سنين . ولما انهزم طغتكين على طرابلس ووصل الى حمص بعسكره على أقبح حال أرسل إليه ملك القدس يقول له : لا تظنن أنني أنقض الهدنة للذي تم عليك من الهزيمة . فالملوك ينالهم أكثر مما نالك ثم تعود أمورهم الى الانتظام والاستقامة ، وكان طغتكين خائفاً أن يقصده بعد هذه الكسرة فينال من بلده كل ما أراد .

وهادن صاحب دمشق ملك بيت المقدس على أن يكون السواد وجبل عوف أثلاثاً ، للتركمان الثلث وللفرنج والفلاحين الثلثان . وجاء ابن عمار الى دمشق فأقطعه صاحبها الزبداني وأعمالها (٥٠٣) وكان لابن عمار البلاء الحسن بل الأحسن في دفع عادية الصليبيين عن بلده ، لم يترك باباً من أبواب الخلاص ليصدهم عن طرابلس إلا طرقه ، حتى دفعهم بعقله وحسن إدارته عن تملكها عشر سنين . وكان في طريق رجعتهم كالحسكة

في الحلق ، وفي معاملة ملوك الأطراف نموذج الدهاء السياسي ، وهو على صغر جرم مملكته يطاول ويحاول وينازل ويصاول ويلين ويقسو .

ونهض الفرنج (٥٠٣) الى رفنية وترددت بينهم وبين أمراء الشام مراسلات أفضت الى تقرير الموادعة على أن يكون للفرنج ثلث مغل البقاع ، ويسلم إليهم حصن المنيطرة وحصن عكار ، وأن لا يتعرض لحصن مصياف والخوابي وحصن الأكراد وحصن الطوبان ، وأن يحمل إليهم مال عنها وعن حصن الطوبان ، وأقاموا على ذلك مدة ثم عادوا الى الفساد ، وخرج صاحب أنطاكية واستولى على طرطوس وقرر على شيزر عشرة آلاف دينار وتسلم حصن الأكراد وعاد الى أنطاكية ، ونزل بغدوين صاحب القدس وابن صنجيل صاحب طرابلس الى بيروت، وسار إليهم جوسلين صاحب تل باشر لمعاونتهم واستنجادهم على الأمير مودود ابن التونتكين صاحب الموصل . وجاء الأسطول المصري مؤلفاً من ١٩ مركباً وفيه الرجال والميرة فدخلوا ثغر بيروت فقويت نفوس أهلها ، فبعث بغدوين الى الجنوية في ثغر السويدية فجاءوا في أربعين مركباً ، وزحفوا براً وبحراً وفعلوا ما فعلوه في طرابلس من القتل والحرق والنهب وملكوا بيروت ، ثم نزل بغدوين على صيدا فسلمها أهلها واستمهلوه مدة عينوها فأجابهم وأخذ منهم إتاوة . وراسل والي بعلبك كمشتكين الفرنج بالتماس المصافاة ، وبعثهم على شن الغارات على الأطراف ، فزحف صاحب دمشق عليه فجنح المقاتلة الى الدخول في الطاعة ، واستولى على البلد وعوض واليها عن بعلبك بحصن صرخد .

اجتماع كلمة أمراء المسلمين وإنجاد بغداد للشام :

اجتمع صاحب إرمينية وميافارقين وصاحب الموصل وغيرهم على جهاد الفرنج ، وقصدوا الرها وضايقوها فأشرف من بها على الهلاك لقلة القوت ، فشرع أصحاب أنطاكية وطرابلس والقدس بالذود عنها ، ونهض صاحب دمشق في عسكره وخيم على سَلمية ، وظهر الفرنج في رَفَنية فقاتلهم واليها شمس الخوّاص ، ورحل الفرنج الى قصد الرُّها فخف صاحب

دمشق الى الرقة وقلعة جعبر وقطع الفرات ، وتلوّم هناك الى أن عرف خبر الفرنج وأنهم قد أحجموا عن العبور لتفرق سرايا العساكر الإسلامية وطلائعهم في عامة المسالك الى الفرات . ولما أدرك المسلمون قرب الفرنج منهم اتفقت الآراء على الإفراج لهم ليتمكنوا من لقائهم في الفضاء من شرقي الفرات ، ورحلوا عن الرُّها ونزلوا أرض حران مكراً وخديعة ، ففطن الفرنج لهذا التدبير فأجفلوا ناكصين على الأعقاب الى شاطىء الفرات ، فنهض المسلمون في أثرهم وغنموا سواد الفرنج وأثقالهم ، وأتوا على العدد الدثر من أتباعهم قتلاً وتغريقاً في الفرات . وفي هذه الأيام تأكدت أسباب الألفة بين صاحب دمشق وملوك الشمال .

لما تفرقت العساكر الإسلامية أغار بغدوين على الرها ، وكانوا رتبوا فيها جماعة من الأرمن لحفظها ، وبلغ ذلك صاحب حلب وما أصاب الفرنج من الهزيمة فاستعاد ما كان غلب الفرنج عليه وأغار على أنطاكية . ثم جاء الفرنج عقيب ذلك فأفسدوا في أعمال حلب وقتلوا واسروا خلقاً كثيراً . وعاد طنكري على الأثارب وملكها بعد طول حصارها كما ملك زردنا ، واستقرت الموادعة بعد ذلك بين صاحب حلب وطنكري على أن يحمل إليه الأول من مال حلب كل سنة عشرين ألف دينار وأن يفك الأسرى .

ووصل بعض ملوك الفرنج في البحر في نيف وستين مركباً مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو في ديار الإسلام ، فاجتمع مع صاحب بيت المقدس ونزلا على صيدا وضايقاها براً وبحراً ، فلما عاين من بصيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم ما أصاب بيروت ، وقد قتل الفرنج يوم أخذوها واليها وأعيانها ، فخرج إليهم قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا الأمان ، فأمنهم فاستحلفوه على ذلك ، وخرجت الحامية وخلق من أهلها الى دمشق ، وقرر بغدوين على من أقام بها نيفاً وعشرين ألف دينار فأفقرهم واستغرق أموالهم .

وأغار بغدوين على عسقلان (٥٠٤) ، وكان صاحبها شمس الخلافة يراسله ، فاستقرت الحال بينهما على مال يحمله إليه ويرحل عنه ، وانتهى

الخبر الى الأفضل بمصر فأنكر ذلك ، وجهز عسكراً كثيفاً الى عسقلان ، فلما قرب منها أظهر شمس الخلافة الخلاف على الأفضل فغالطه الأفضل ، وخاف شمس الخلافة من أهل البلد فاستدعى جماعة من الأرمن فأثبتهم في عسقلان ، ثم وثب به قوم من كتامة وقتلوه . وسار الى بغداد رجل من أشراف الهاشميين في حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء ، وانزلوا الخطيب في جامع السلطان عن المنبر وكسروه ، وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الفرنج ، ومنعوا الناس من الصلاة ، وعملوا في الجمعة التالية مثل ذلك في جامع الخليفة ، فأوعز السلطان الى الأمراء المقدمين بالتأهب للمسير الى الجهاد .

ووصل رسول ملك الروم بمراسلات للبعث على قصد الفرنج والاجتماع على طردهم قبل إعضال خطبهم ، ويقول إنه منعهم من العبور الى أرض المسلمين وحاربهم ، وإذا ضعفت عزائم قومه عن المقاومة ، اضطر الى مداراتهم وإطلاق عبورهم الديار الإسلامية ، وبالغ في الحث على حربهم ، ونقض بغدوين الهدنة المستقرة بينه وبين صاحب دمشق ، فخرج هذا الى اللجاة ونهض الفرنج في أثره الى الصنَمين ، ففرق صاحب دمشق العسكر من عدة جهات ، وبث في المعابر والمسالك خيلاً يمنعهم من حمل الميرة إليهم حتى ألجأهم الى المسالمة ، على أن يكون لبغدوين النصف من ارتفاع جبل عوف والسواد والحيَّانية مضافاً الى ما في يده من هذه الأعمال التي تليها في أيدي العرب من آل جراح .

لما قرر ملك بغداد إنهاض العسكر عقيب استغاثة الشاميين بالخليفة والسلطان تقدم من الأمراء لإنجادهم على قتال الصليبيين صاحب الموصل ، فافتتح تل مراد وعدة حصون هناك بالسيف والأمان . ووصل إليه الأمير أحمديل الكردي في عسكر كثيف ، والأمير قطب الدين سقمان من بلاد إرمينية وديار بكر وصاحب همذان فنزلوا على تل باشر ونقبوه فأنفذ جوسلين صاحب تل باشر الى الأمير أحمديل يلاطفه ويهاديه ويبذل له الكون معه والميل إليه ، وكان أكثر العسكر مع أحمديل وسأله الرحيل عن الحصن فأجابه الى ذلك على كراهية من باقي الأمراء ، وعادوا عن

تل باشر الى حلب وعاثوا في أعمالهـا وفعلوا أقبح من فعل الفرنج ، ووصل إليهم في حلب صاحب دمشق ومعه رجـال حمص وحماة ورفنية وسائر المعـاقل الشامية ، فلم ير منهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد ، واستجرهم الى المعرة فظهر له من سوء نية المتقدمين فيه ما أوحشه منهم ، وجعل يحرضهم على قصد طرابلس فلم يفعلوا وتفرقوا أيدي سبا ، فلما علم الفرنج برحيل العساكر نزلوا أفامية وفي رأسهم أصحاب القدس وطرابلس وأنطاكية ، وقد صاروا بعد التباين والمنافرة والخلف يداً واحدة على المسلمين ، وكانت خيل هؤلاء مثل الفرنج إلا أن راجلهم أكثر ، وناوشوا الفرنج على غير طائل .

غارات المسلمين وغارات الصليبيين :

وملك فرنج أنطاكية حصن الأثارب وقتلوا منه ألفي رجل وأسروا الباقين ، ثم ملكوا زردنا ففعلوا كذلك وقصدوا منبج وبالس فوجدوهما خاليتين فعادوا أدراجهم . ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الفرنج ، فبذل لهم المسلمون أموالاً وصالحوهم ، صالحهم صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار ، وأهل صور عـلى سبعة آلاف دينار ، وصاحب شيزر على أربعة آلاف دينار ، وصاحب حماة على ألفي دينار . وذلك لأن الفرنج امتنعوا من مهادنة ملوك الشام إلا على قطيعة يأخذونها الى مدة يسيرة . ولو كان ملوك الشام إذ ذاك على شيء من الوحدة في الرأي ، لما أقطعوا الفرنج القطائع ، ولما هادنوهم ، خصوصاً وقد خرق الفرنج مرات قانون المهادنات والموادعات ، وبعض المنكرين يعذرونهم على عملهم الفظيع في تلك العصور لأنهم كانوا دون المسلمين في كل أمر من أمورهم العلمية والحربية والاجتماعية .

وفي هـذا العقد (٥٠٥) جهز السلطان محمد عسكراً : فيه صاحب الموصل وغيره من أصحاب الأطراف الى قتال الفرنج بالشام ، فساروا ونزلوا عـلى الرها فلم يملكوها ، ووصلوا الى حلب فخافهم صاحبها ولم يفتح لهم أبوابها ، ثم ساروا الى المعرة وتفرقوا . وفيهـا أنجد صاحب

دمشق أهل صور ، وكان أغار عليهم بغدوين ، وسار وخيم ببانياس وبث سراياه ورجاله في أعمال الفرنج ،ونهض الى حصن الحبيس في السواد، فملكه بالسيف وأغار على صيدا وأحرق عشرين مركباً من مراكب الفرنج ، وبعد أن عمل الفرنج كباشاً كبيرة لتعلق على السور رماها أهل صور بالنفط والزيت مرات ، وأقاموا على محاصرة صور أربعة أشهر ونصف، ثم قصدوا عكا وتفرقوا في أعمالهم .

نزل أهل صور (٥٠٦) عن بلدهم لصاحب دمشق لما أعيتهم الحيل في الدفاع فتسلمها ، وأقام الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر ولم يغير لهم رسماً ، مع أن سائر الشام كانت طاعتها للعباسيين ودعوتها لهم ، وذلك حباً بدوام الصلات مع صاحب مصر حتى لا ينقطع مدده عن الساحل . وضبط صاحب القدس القافلة الدمشقية بينا كانت سائرة الى مصر ، بدلالة أناس من العرب البدو ، واشتمل الفرنج على ما فيها من الأمتعة والبضائع ، وحصل لبغدوين منها خمسون ألف دينار وثلاثمائة أسير ، ولم يبق بلد في الشام إلا أصيب بعض تجاره وأهله بأموالهم .

وتواترت غارات بغدوين على عمل البثنية ، وجمع صاحب الموصل عسكره من الأتراك والأكراد وقطع الفرات الى الشام ، وكذلك صاحب سنجار وصاحب ديار بكر ، وكان الصليبيون يكاتبون صاحب دمشق على أن يتركوا له حصن تبنين وجبل عامل ويعوضوا عن ذلك بحصن الحبيس حبيس جلدك الذي في السواد ونصف السواد من البلقاء ويتركوا التعرض لشيء من أعمال دمشق ، ولا يعرض هو لشيء من أعمال الفرنج ، فلم يجب الى ذلك ، ونهض في جيشه للقاء صاحب الموصل والاجتماع به على الجهاد ، فاجتمعا بمرج سلمية واتفق رأيهما على قصد بغدوين ، وسارا وقد استصحب صاحب دمشق جميع العسكر ومن كان بحمص وحماة ورفنية ، ونزلا بقدس فعين الجر بالبقاع فوادي التيم ثم نزلا على بانياس، ونهضت فرقة من العسكر فقصدت ناحية تبنين ، فلم يظفروا منها بمراد ، ووصل إليها بغدوين ، وقد كان لما يئس من إجابة صاحب دمشق الى

الموادعة واصل الغارات والفساد ، ثم نهض صاحب دمشق ونزل على الأقحوانة على بحيرة طبرية ، فنشب الحرب بين المسلمين والفرنج غربي جسر الصنّبرة مقابل عقبة أفيق ، فانتصر المسلمون بعد ثلاث كرات وغرق من الفرنج خلق كثير في البحيرة ، وقتل نحو ألفي رجل من أعيانهم وأبطالهم ، وأقام المسلمون على الجبل وطلع الفرنج إليه وتحصنوا به وهو من غربي طبرية ، واستنفر أمير دمشق العرب الطائيين والكلابيين والخفاجيين فوصلوا بخلق كثير بالمزادات والروايا والإبل لحمل الماء ، وصعدت الطلائع الى الجبل من شماله ، وعلم المسلمون أن الظفر قد لاحت دلائله ، والعدو قد ذلّ ، وأغارت بعض سرايا المسلمين على أرجاء القدس ويافا ونهبت بَيْسان ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة . ثم تفرق المسلمون وعادوا الى كُوَرهم .

وأرسل ملك القدس الى والي صور (٥٠٧) يريده على المهادنة والموادعة لتحسم أسباب الأذية عن الجانبين فأجابه الى ذلك ، وأمنت السابلة والتجار والسفار ، واستقرت الحال بينهما على المهادنة فأمنت المسالك وصلحت الأحوال ، بعد أن ذاق الفرنج بأس ملوك الشام والجزيرة على الأقحوانة. وكان صاحب القدس من أعظم ملوك الفرنج بالشام جيشاً ومكانةً. وكان من جملة من حضر في هذه الوقعة عند طبرية الأمير مودود بن التون تكش صاحب الموصل . وفي سنة ٥٠٨ قُتل آلب أرسلان بن رضوان صاحب قلعة حلب ، قتله غلمانه بقلعتها وأقاموا بعده أخاه سلطانشاه بن رضوان، وكان لما ملك حلب جرى على قاعدة أبيه في أمر الإسماعيلية ، وكان بنى لهم بحلب دار دعوة ، فطلبوا منه أن يعطيهم القلعة فأجابهم الى ذلك ، فقبح عليه القاضي ابن الخشاب فعله ، فأخرجهم بعد أن قتل منهم ثلاثمائة نفس وأسر مائتين وطيف برؤوسهم في البلد .

وأمر السلطان محمد بن ملكشاه (٥٠٨) الأمراء وأصحاب الأطراف بالمسير صحبة آق سنقر البرسقي لقتال الفرنج بالشام ، وجرى بين البرسقي وإيلغازي بن أرتق صاحب ماردين قتال انتصر فيه إيلغازي وهرب البرسقي . ثم خاف إيلغازي من السلطان ، فسار الى صاحب دمشق فاتفق

معه وكاتبا الفرنج واعتضدا بهم . قال ابن الأثير : وكان طغتكين قد استوحش من السلطان لأنه نسب إليه قتل مودود ، فاتفقا على الامتناع والالتجاء الى الفرنج والاحتماء بهم فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه ، فحضر عندهما على بحيرة قدس في حمص وجددوا العهود،وعاد الى أنطاكية وعاد طغتكين الى دمشق .

وأرسل السلطان محمد ملكشاه (٥٠٩) عسكراً ضخماً لقتال صاحب دمشق وصاحب ماردين فعبروا الفرات من الرقة وقصدوا حلب ، فعصت عليهم ، ثم فتحوا حماة عنوة ونهبوها ثلاثة أيام ثم سلموها الى قيرخان ابن قراجة صاحب حمص ، واجتمع بأفامية طغتكين وإيلغازي وملوك الفرنج صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم،وأقاموا بأفامية ينتظرون تفرق المسلمين ، ثم تفرق الفرنج وسار طغتكين الى دمشق وإيلغازي الى ماردين .

وفتح المسلمون كفرطاب وقتلوا من بها من الفرنج وساروا الى المعرة ثم الى حلب فكبسهم صاحب أنطاكية في الطريق فانهزموا، ووضع الفرنج السيف في المسلمين فهرب من سلم منهم . واستولى الفرنج على رفنية فاسترجعها منهم صاحب دمشق وقتل من بها منهم ، وهادن الأفضل مدبر مملكة الآمر الفاطمي بغدوين صاحب القدس،وكان قد أخذ قافلة عظيمة من المسلمين بالسبخة فرأى الأفضل مهادنته لعجزه عنه . وجمع صاحب طرابلس (٥١٠) جموعه ونهض الى البقاع لإخرابه،فخف إليه صاحب الموصل وصاحب دمشق في بعض عسكرهما ، وسارا الى البقاع، والفرنج غارّون في مخيمهم ، فأطلق السيف فيهم قتلاً وأسراً ففقد منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف وعاد صاحب الموصل الى بلده بعد استحكام المودة بينه وبين صاحب دمشق ، والموافقة على الاعتضاد في الجهاد ، متى حدث أمر أو حزَب خطب .

بقية الغارات :

وفي العقد الثاني من القرن السادس هادن (٥١١) المتولي أعمال حلب

الفرنج ووادعهم وسلم إليهم حصن القبة ، وهجم الفرنج على ربض حماة وقتلوا من أهلها ، وخاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد الى نجم الدين إيلغازي، فلما تسلمه لم يجد فيه مالاً ولا ذخيرة لأن الخادم لولؤاً الذي كان مستولياً على صاحبها سلطانشاه بن رضوان كان فرق كل ما فيها . وسار طغتكين (٥١٢) عن دمشق لقتال الفرنج ، فنزل بين دير أيوب وكفربصل فخفيت عنه وفاة بغدوين ملك القدس ، حتى سمع الخبر بعد ثمانية عشر يوماً وبينهم نحو يومين ، فأتته رسل ملك الفرنج بطلب المهادنة فاقترح عليه طغتكين ترك المناصفة التي بينهم من جبل عوف والحيانية والصلت والغور فلم يجب الى ذلك وأظهر القوة ، فسار طغتكين الى طبرية فنهبها وما حولها ، وسار منها نحو عسقلان وسلم بنو أخي القاضي شرف الملك بن الصليعة حصن بلاطُنُس لروجار صاحب أنطاكية فأقطعهم في أعمال اللاذقية عوضاً منه وسكنوا تحت يده .

وبرز (٥١٣) صاحب أنطاكية فيمن حشده من طوائف الفرنج ورجالة الأرمن في ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل سوى الأتباع الى سرمد وقيل دانيث البقل بين أنطاكية وحلب وقيل تل عِفْرين ، فطار إليهم المسلمون بقيادة صاحبي حلب والموصل في عساكر التركمان والأكراد والعرب في عشرين ألفاً ، فقتلوا الفرنج بحيث لم يفلت منهم غير من يخبر خبرهم ، وقتل ملكهم روجر وبقيت أنطاكية شاغرة من حماتها ، ثم فتح المسلمون الأثارب وزردنا .

وعاد إيلغازي الى حلب وقرر أمرها وأصلح حالها بعد أن أخربها الفرنج ونازلوها ، وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم حملوا الى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم . قال ابن الأثير في وقعة الفرنج في تل عِفْرين وكانوا يظنون أن أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق فأخلدوا الى المطاولة ، وكانت عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين .

وسار جوسلين صاحب تل باشر ليكبس بني ربيعة ، فوقع بينهم قتال انتصر فيه أمير بني ربيعة ، وأسر من الفرنج عدة كثيرة . وجمع صاحب

ماردين التركمان وغيرهم والتقى مع الفرنج عند دانيث البقل وجرى بينهم قتال شديد انتصر فيه صاحب ماردين وانهزم الفرنج . ووصل كندهري ملك الفرنج في المراكب ، وملك أكثر المعاقل ، ووقعت الهدنـــة بين صاحب حلب وبين الفرنج وتقررت المسالمة ، وقيل: إن جوسلين أغـــار على العرب والتركمان النازلين بصفين قرب قريـة جعبر على الفرات وغنم منهم وفي عوده خرب حصن بزاعة .

وأغار كندهري على أذرعـات وأطراف دمشق وكان صاحبهـا بالبثنية فبعث بولده بوري مع الجيش وأقام هو موضعه ردءاً لـــه فالتقوا فظهر الفرنج على بوري ، فعـاد الى أبيـه ودخلا دمشق ، ومضى طغتكين الى حلب مستصرخاً بنجم الدين إيلغازي وكان أول ما ملكها فأقـــام عنده وشرع بجمع العساكر ، واغتنمت الفرنج غيبته فقصدوا دمشق ، ووصلوا الى حوران فالتجأ أهله الى اللجاة ، فتأثرهم الفرنج الى وعرة اللجاة فقتلو وأسروا ، ولمـا بلغ أهل أنطاكية هذا جمعوا وحشدوا وقصدوا حلب في خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل فخرج إيلغازي وعمل كمينـــاً ، فلما التقى الفريقان ظهر الكمين وضربوا البوقـات والطبول فظنوه صاحب دمشق قادماً من ورائهم ، وكان نجم الدين إيلغـــازي أشاع أن طغتكين واصل من دمشق ومـــا كان إلا جريدة عنده فانهزم الفرنج وعمل فيهم السيف قتلاً وأسراً .

وفي سنة ٥١٤ نهض الأمير معن من البقاع بعشيرته ورهطه ونزل في جبل الشوف ، وكان قفراً خالياً من السكان ، وجعل له مودة مع آل تنوخ أمراء عرب جبل لبنان ، وكان أميرهم إذ ذاك الأمير بحتر التنوخي فبنى له ولخاصته دوراً ليستعيض بهـــا الأمير معن عن المضارب، وأخذ يقصد دياره أهل كل ديار استولت عليها الفرنج وبقي أميراً فيه نحو ثلاثين سنة وهو أصل الأمراء آل معن وإليه ينتسبون . وصـــار الجبل ينسب إليهم فيقال جبل بيت معن كما يقال جبل بني عوف وجبل بني هلال .

وكان بين نور الدين بلك بن أرتق (٥١٥) وبين جوسلين عـــلى

الرُّها حرب انتصر فيهـا بلك وقتل من الفرنج ، وأُسر جوسلين وأُسر معه ابن خـالته وأُسر جماعة من فرسانه المشهورين عند سروج وبـذل جوسلين في نفسه أموالاً كثيرة فلم يقبلها بلك وسجنه وأصحابه في قلعة خرتبرت ، وفي سنة ٥١٥ عصى سليمان بن إيلغازي بن أُرتق على أبيـه بحلب ، حسن لـه ذلك إنسان من حماة من بني قرناص ، وكان قدمه إيلغازي على أهل حلب ، وبلغ إيلغازي ذلك فسار مجداً من ماردين وهجم حلب وقطع يدي ابن قرناص ورجليه وسمل عينيه ، وهرب ابنـه الى طغتكين بدمشق واستناب ابن أخيه عبد الجبـار ، وخرج صاحب حلب (٥١٦) في عسكره وقطع الفرات وصادف الفرنج فأتلف مـا ظفر به في أعمالهم . وتوفي إيلغازي بن أُرتق وكان بحلب ابن أخيـه سليمان بن عبد الجبار فبقي فيها الى أن أخذها ابن عمه ، فسلم سليمان قلعة الأثارب الى الفرنج ، فعظم ذلك على بلك بن بهرام وعلم عجزه عن حفظ بلاده فقوي طمعه في ملكها ، فسار إليها ونازلهـا وضايقها ومنع الميرة عنها وأحرق زروعها ، فسلم إليه ابن عمه البلد والقلعة بالأمان سنة ٥١٧ .

ووصل الأسطول المصري الى صور ، وحُمل والي صور سيف الدين مسعود الى مصر ، وكانت عاقبة خروجه منها خروجها بالأمان من أيدي المسلمين الى الفرنج بعـد سنتين . ونهض بغدوين (٥١٧) في عسكره الى ناحية حلب ، وصاحبها منـازل حصن كركر ، فالتقيـا بالقرب من منظرة فكسره وأسره مع جماعة من وجوه عسكره واعتقله في جب قلعة خرتبرت مع جوسلين ومقدمي الفرنج الذين كان أسرهم قبل عامين ، واستنجد صاحبا دمشق وحلب بالخليفة الآمر في مصر فجهز أسطولاً مؤلفاً من أربعين شينياً فيها عشرون أميراً وهدايا فسار العسكر الى يافـا وأقام عليها ستة أيام ورحل عنها ، وقد تخاذل عنـه ملوك الشرق ورجع الى مصر ، فوافاه الفرنج على يبنى ، فانكسر العسكر المصري من غير مصاف . وملك الأمير بلك حصن البارة وأسر أُسقفها . وهرب بغدوين وجوسلين وغيرهما من مقدمي الفرنج من أسر الأمير بلك في خرتبرت وملكوا القلعة فاستعادها الأمير من الفرنج الواثبين عليهـا . وهزم جيش الفرنج جيش

المسلمين ، وفيهم جيش دمشق على قلعة عزاز ، وتفرق المسلمون بعد قتل من قتل وأسر من أسر .

قلنا: إن الفرنج ملكوا مدينة صور (٥١٨) بالأمان بعد حصار طويل ، وكانت للخلفاء العلويين أصحاب مصر ، وقد ثبت أهل صور نحو خمس وعشرين سنة على قتال الفرنج مع قلة المنجد لهم من مصر ، يقول ابن تغري بردي : إن سبب سقوط صور خروج سيف الدين مسعود منها ، وكان قد حُمل الى مصر وأقام الوالي الذي بها في البلد ، وهذه زيادة في النكاية للمسلمين من صاحب مصر فإن سيف الدين المذكور كان قائماً بمصالح المسلمين ، وفعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة ، فأخذوه منها غصباً ودخلوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج ، فكان حال المصريين في أول الأمر أنهم تقاعدوا عن نصرة المسلمين والآن بأخذهم سيف الدين من صور صاروا نجدة للفرنج . وكانت صور آخر ما ملكه الفرنج من الساحل .

وفي سنة ٥١٨ ملك آق سنقر البرسقي حلب وقلعتها وسبب ذلك أن الفرنج لما ملكوا مدينة صور ، طمعوا وقويت نفوسهم ، وتيقنوا الاستيلاء على الشام كله ، ثم وصل إليهم دبيس بن صدقة صاحب الحلة فأطمعهم طمعاً ثانياً لا سيما في حلب وقال لهم : إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب ، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ ، وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة ، وقال : إنني أكون ههنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم ، فساروا معه إليها وحصروها وقاتلوا قتالاً شديداً ، ووطنوا نفوسهم على المقام الطويل .

وأخذ الفرنج في بناء بيوت لهم ظاهر حلب فعظم الأمر على أهلها ، ولم ينجدهم صاحبها تمرتاش بن إيلغازي بن أُرتق لإيثاره الدعة والرفاهة ، فكاتب أهل حلب آق سنقر البرسقي صاحب الموصل فسار إليها ، فأجفل الفرنج منهزمين ، ثم صلحت أحوال حلب وعمرت أعمالها بعد أن حاصرت مدة ولقي أهلها شدة حتى أكلوا الميتة ، ولم يكن عندهم أمير ، وإنما تولوا حفظ الأمن بأنفسهم وأبلوا بلاءً حسناً حسنت به العاقبة . وأخذ البرسقي

(٥١٩) كفرطاب من الفرنج وسار الى عــزاز ، فاجتمعت الفرنج لقتالــه فاقتتلوا ، فانهزم البرسقي وقتل من المسلمين خلق كثير وانهزموا راجعين أدراجهم . وقصد صاحب بيت المقدس حوران للعيث فيها فخرج إليه صاحب دمشق في التركمان وأحداث دمشق والغوطة والمرج وأحداث الباطنيــة فانهزم المسلمون وتتبع الفرنج المنهزمين حتى وصلوا الى عقبــة سحورا وقربوا من شرحوب مع بعــد المدى . وقصدت الفرنج رفنية واستعادوها من المسلمين . واجتمع المسلمون والفرنج في مرج الصفر عند قرية شقحب من عمل دمشق واشتد القتال فانهزم صاحب دمشق والخيالة وتبعهم الفزنج ،ونهب بعض الجند مخيم الفرنج وأثقالهم ،ورجع الفرنج في أثر المنهزمين ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة وظلوا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه ، وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها .

مزايا حكم طغتكين :

كان الفرنج منذ وطئوا تراب الشام أوائــل العقد الأخير من القرن الخامس الى أواخر العقد الثاني من القرن السادس يتساندون وقل أن يقع شغب بينهم ، وربما تقاتلوا ثم اجتمعوا عــلى سلام ، وتواكلوا وتآنسوا لأن موقفهم يدعوهم الى جمع الكلمة ، ولئن ألفوا أربع إمــارات متحدة فهي إمــارة واحدة في الواقع ، والنجدات تأتيهم بحراً على مراكب أهل بيزة وجنوة مرة ومرتين في السنة ، لتعذر قطع البحار إلا في فصل الصيف . فرجال الحملة الصليبية الأولى هي التي كانت افتتحت مــا افتتحت من الأصقاع ومادتها القليلة من الزوار والتجار من البحر . وملوك الشام يأتيهم المدد من مصر والعراق والجزيرة وديار بكر وديــار مضر . ولو كتب للشمال أن يكون في عاصمته حلب رجل عاقل كما كتب لدمشق أن يكون فيها مثل طغتكين ، لتيسر إنقــاذ البلاد والإجهاز على أعدائها ، ولمــا استطاع الفرنج أن يجبوا إتاوة من حلب وحماة وحمص ولنجت كما نجت دمشق من إرضاء الفرنج بالمال على عهد طغتكين .

حكم طغتكين دمشق منذ سنة ٤٩٧ ،وحكمه كان في الحقيقة قبل عشر

سنين من تاريخ حكومته ، حكمها بصورة شرعية بعد وفاة الملك دقاق ابن تتش بن آلب أرسلان وكان خطب أولاً لابن دقاق ، وكان دقاق خلف طفلاً له سنة واحدة ، فقطع طغتكين خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل ، ثم قطع خطبة بكتاش وأعاد خطبة الطفل ، وهو آخر من خطب لـــه بدمشق من بني سلجوق ، واستوحش بكتاش من طغتكين خوّفته والدته منه وقالت : إنه زوج والدة دقاق وهي لا تتركه حتى يقتلك ويستقيم الملك لولدها ، فخاف وحسن لـــه من كان يحسد طغتكين مفارقة دمشق وقصد بعلبك وجمع الرجال والاستنجاد بالفرنج ، وكان بكتاش في الثانية عشرة من عمره ومعه ايتكين الحلبي صاحب بصرى .

استمر طغتكين في ملك دمشق خمساً وعشرين سنة حتى مضى لسبيله سنة ٥٢٢ وكان على غاية العدل والبعد عن الظلم ، أعاد الى الرعية كثيراً من أملاكهم التي اغتصبها منهم ولاة الجور ، وجرت عليها أحكام المقاسمة ، وأرجعها الى خراجها القديم ، وأحيا الأراضي المعطله ، وباع مـــا كان منها شاغراً للناس ليعمروه ، وصرف مـــا حصل من ثمنها في الأجناد المرتبين للجهاد ، فعمرت عدة ضياع وأُجريت عيون ، وحسنت بإيالة طغتكين دمشق وأعمالها ، وعمرت الأقاليم بجميل سياسته وحسن تدبيره ، وكثرة إحسانـــه ، وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في بـــاطن دمشق وظاهرها ، ولذلك اشتد حزن الدمشقيين عليه ، ولم تبق محلة ولا سوق إلا والمآتم قائمة فيه عليه . قال ابن عساكر : كان طغتكين شهماً مهيباً مؤثراً لعمارة ولايته ، شديداً على أهل العيث والفساد . وقـــال آخر في وصفه : إنه لا يشبه غيره من ملوك الطوائف ، وكان عـــلى شيء من التدين حتى إنه لما عاون أهل صور على دفع الصليبيين سنة ٥٠٥ ولم يفوا له بما كانوا بذلوه له من تسليم البلد قال : إنما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين لا لرغبة في مال ولا مملكة .

وكأن طغتكين كان مبشراً بظهور آل زنكي وآل أيوب في هذه الديار يردون حملة الغرب عن الشرق ، ويكفونهـــا معرّة التفرق ، ويجمعون كلمتها على الحق والمطالبة به فتصبح مملكة برأسها ، تأتمر الأقطار المجاورة

بأمرها ، وتسير معها الى الغاية التي هي تنشدها من رد عادية الصليبيين . وكان في حذقه بسياسته كما قيل يستخدم الفضائل والرذائل في الناس كما تستخدم الطبيعة فضول الأغذية فتجعلها في أشياء تنتفع بها . ولقد أوقف طغتكين سير الصليبيين عن التوغل في أحشاء المملكة ، وقصر حكمهم على الساحل وعلى أنطاكية والقدس وطبرية ، ولولا قيامه ذاك القيام المحمود لفتح الصليبيون دمشق وحلب ، وكثيراً ما كانوا يغزون ربضها وضاحيتها، واكتفى المسلمون والفرنج بإضعاف قوى بعضهم بعضاً تارة ، وعقد المهادنات طوراً ، ولم تسفّ دمشق الى دفع الغرامات للصليبيين على عهد طغتكين معتبرة نفسها الأم والعاصمة أكثر من غيرها من حواضر الشام ، ولو أُخذت دمشق لاستصفي الشام كله ولانقطع ما بين مصر وهذا القطر من الاتصال ، وصعب بعد ذلك إخراج الفرنج منه ، فبقاء الرابطة مع مصر من البر ومن البحر الى أن سقطت صور ، حصر الفرنج في بقعة معينة لا تتعدى الطريق الى بيت المقدس عن طريق الساحل .

ولو كان جميع أمراء الشام على مثل سيرة طغتكين ، لخفت وطأة الفرنج كثيراً في هذه الثلاثين سنة ، وماذا يرجى من خير الأمراء إذا كان صاحب بعلبك يطلعهم على عورات المسلمين ، وصاحب أفامية يقطع السابلة وابنه يحث الفرنج على قصد بلد أبيه ، وصاحب حمص يشارك قطاع الطريق وكذلك ابنه خير خان ، وبأمثال هذه الطبقة لا تخلص الرعية ويتعذر سوق القوم الى طريق الخير ، وهم لا يزالون مختلفين لأنهم يرون من عملهم أن يستعبدوا من صاروا إليهم وينعموا ولو بإهلاكهم ، لا أن يحافظوا على ملك ويدافعوا عن ذمار . ولذلك كان ظهير الدين بسياسته الحسنة مع ملوك الأطراف المرجع في الشام ، أطلق الخليفة العباسي يده فيه منذ سنة ٥٠٩ حرباً وخراجاً ، وجعل ارتفاعه على إيثاره واختياره ، لما بان من حسن بلائه وجميل سيرته في رعيته . على حين بدلت حلب عدة ملوك خلال دوره ، وكان بعضهم يتنازعون ويتفاشلون ويتقاتلون .

كانت أخبار المسلمين تصل الى الفرنج بسرعة ، والغالب أن هؤلاء برعوا في التقاط الأخبار أكثر من الذين نزلوا عليهم ، فكان الفرنج عندما

يبلغهم حادث في المسلمين يغيرون خططهم الحربية ، وبالطبع كانــوا يستخدمون لذلك أُناساً من أبناء نحلتهم من الأرمن وغيرهم ، وربما كان للمسلمين أيضاً شأن في ذلك طمعاً في مال أو انتقاماً من سلطان ، ولعل الصليبيين وفقوا الى إمساك بعض ما كان ملوك الطوائف ، يطيرونه من حمام الزاجل ، ويحلون البطائق الصادرة عن بعض الأمراء والقواد، فتنكشف لهم أسرار خصومهم . فقد ذكر المؤرخون أن صاحب أنطاكية الصليبي أرسل الى عز الدين مسعود صاحب حلب يخبره بقتل والده قسيم الدولة آق سنقر البرسقي صاحب الموصل بيد الباطنية قبل أن يصل إليه الخبر ، وكان قد سمعه الفرنج قبل لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية .

مؤاخذة الفاطميين وتوقيف سير الفرنج :

ولقد آخذ المؤرخون الدولة الفاطمية على تهاونها في الغزو والجهاد حتى روى ابن تغري بردي ، أن الآمر كان يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد ، حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه ، ولئن كان وقع لأبيه المستعلي أيضاً فأخذ القدس في أيامه ، فإنــه اهتم لقتال الفرنج وأرسل بدراً الجمالي بالعساكر فوصلوا بعــد فوات الوقت أما الآمر فإنه لم ينهض لقتال الفرنج البتة ، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكراً فهو كلا شيء . قال : ولم ينهض أحد من المصريين لقتال الفرنج لما دخلوا الشام ، فعلمت الفرنج ضعف من بمصر ، وظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه . الأول من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة ، والثاني لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج عن البحر ، والثالث عــدم خروج الوزير الأفضل بالعساكر المصرية كما كان فعل والده بدر الجمالي في أوائل الأمر ، هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة .

ويغلب على الظن أن الفاطميين دهشوا لغزو الفرنج الشام ولم يريدوا أن يثيروا حفائظهم لئلا يحصروا وكدهم بفتح دار ملكهم ، وفتح مصر أسهل من الشام ، لأنها سهول ليس فيها حصون طبيعية ، وأفضل للبيت

العلوي أن تبقى له الديار المصرية ولو ذهب الشام بما فيه ، ولذلك كان الفاطميون ينجدون الشام في الأحايين لأول عهد دخول الفرنج إليه إنجاداً ضعيفاً ، وأكثر نجداتهم وحملاتهم لم تثمر الثمرة المطلوبة بل خففت جزءاً صغيراً من الشر مدة ، وقوّى ذلك قلوب بعض أهل الأرجاء المحصورة، ونفّس خناقهم ، وأوهمهم أن وراءهم قوة الفاطميين عند مسيس الحاجة يستصرخون بها فتنجدهم . والحقيقة أن الفاطميين على قوتهم من العَدَد والعُدد لم يستطيعوا أن يذبوا حقيقة عن عسقلان ، ولا عن صور وصيدا وبيروت وطرابلس دع الأصقاع الأخرى ، وإذا عرفنا أن الدولة الفاطمية كانت في أواخر أيام ضعفها هان علينا أن لا نطلب منها أن تعمل عمل الشباب .

وقد أنجدت الدول المجاورة الشام نجدات مهمة على بعد المدى وقلة المواصلات . وأبلى جند التركمان والأكراد مع عرب الشام والموصل البلاء الحسن في هذه السبيل ، ولكن كانت القوى الصليبية عظيمة جداً لا قبل لهم بدفعها ، فكان موقف المسلمين على الأغلب موقف المدافع لا المهاجم، وكان لأمراء التركمان في هذا الدور غيرة شديدة في الجهاد ، ولم يكن داخلهم الفساد الذي يدخل على البيوت والدول ، ولو كانت الآراء متجهة الى مقصد واحد لاستطاع المسلمون أن يدفعوا الفرنج عن هذا القطر على كثرة جيوشهم الجرارة قبل أن يتأصلوا فيه ، ويطلعوا على مبلغ قوات أمرائه ، ويتعلموا بحكم المجاورة ما كان ينقصهم من أصول الحرب ، وبعض الصناعات وأعمال المدنية التي وجدوها في الشام يومئذ على حصة موفورة ، فاقتبسوها ونقلوها بعد الى أممهم غنيمة نافعة من الشرق .

وقد حرص الفرنج أن يستولوا على قرى حلب والبقاع وحوران والسواد والبلقاء في الأكثر ليتقووا بغلاتها لأن معظم القرى في فلسطين كانت ساحات حرب لا تقوم بإطعام جيوشهم . وكان الفرسان في حصون الفرنج يملكون القرى ويجبون الأموال من أهلها الأصليين، ويسلبون قوافل المسلمين . وفي التاريخ العام: « كانت الحرب في الشرق كما هي في الغرب تجارة رابحة ، يقوم فرسان الفرنج ويغزون أرض المسلمين ، وينهبون

القرى ويخطفون السكان ويأخذونهم أسرى ويضطرونهم الى أن يفتدوا أنفسهم » .

وعلى الجملة فإن أمراء المسلمين في هذا الدور لم يتلكأوا في الحقيقة عن تخفيف بلاء المهاجمين عن الشام ، وقاتلوا فانهزموا وهزموا ، وطاولو وراوغوا ، وهادنوا وعاهدوا ، وقاربوا وساددوا . ولكن الشام والجزيرة ، ومعها العراق ومصر على قلة ، لا تستطيعان دفع جيش مؤلف من أكثر أمم أوروبا ، ومتى كانت قوة قطر صغير ، توازي قوى برّ كبير ، ومن أين لأمراء صغار لا تربطهم رابطة محكمة ، أن يقفوا في وجوه ملوك من ورائهم قوة البابوية ، وناهيك بها من قوة في ذاك العصر .

انتهى الجزء الاول من خطط الشام
ويليه الجزء الثاني وأوله الدولة النورية

فهرست

الجزء الأول من خطط الشام

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تصحيحات

ص	س	خطأ	صواب
٣٢	٥	والمحدثون	المحدثون
١٠٠	٢	الى ١٧٧	الى ١٣٢
١٢٨	٤	وكان خبيثة	خبيثة وكان
١٥١	١٧	أنْ لا	ألاّ
١٧٨	١٢	الطولونية	وانقراض الطولونية
٢١٨	١	الفاطمين	الفاطميين



تأليف

محمد كرد علي

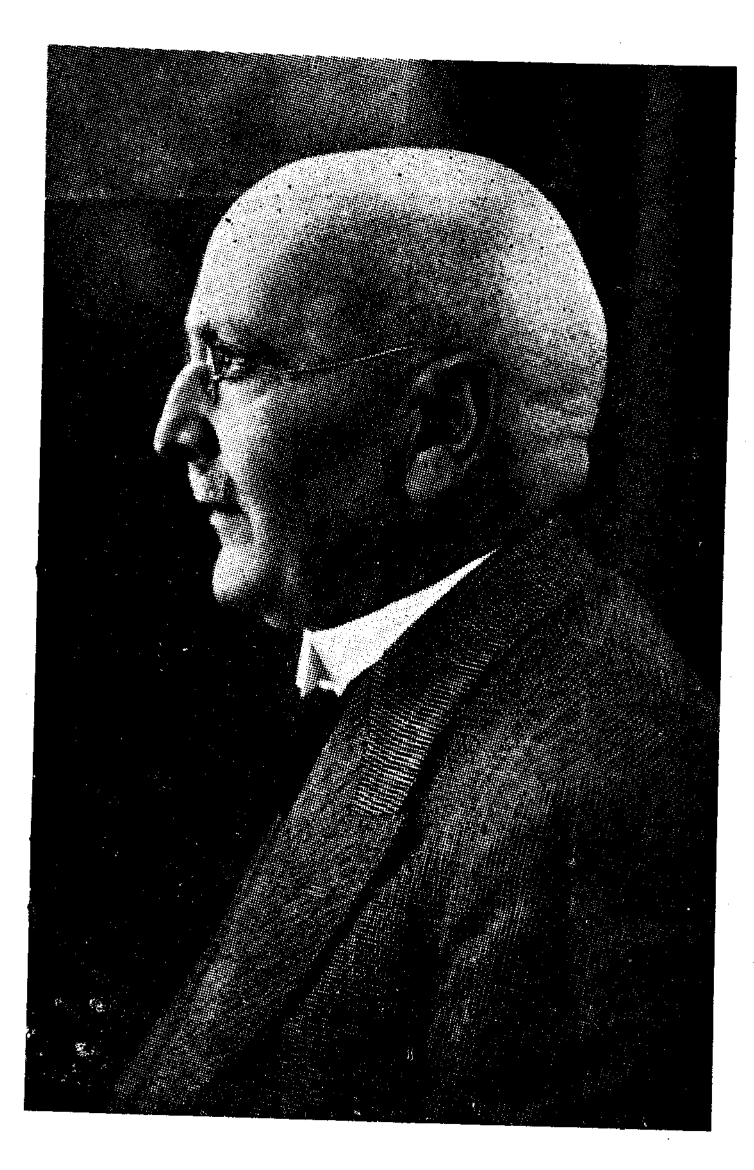
الجزء الاول

الناشر
مكتبة النوري
دمشق

الطبعة الثانية
مصحّحة بقلم المؤلف

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

طبع على مطابع :
مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيروت ص.ب. : ٧١٢٠



محمد كرد علي

١٨٧٦ - ١٩٥٣ م





أحمد تيمور

١٨٧١ - ١٩٣٠ م



الإهداء

صديقي الأبرّ العلامة العامل أحمد تيمور باشا حفظه الله :

رأيتك بعد عالمي مصر والشام ، ومفخر العرب وحجة الإسلام ، أستاذينا المعظمين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري رحمهما الله ، فرداً في المعاصرين من بني قومي ، بأخلاقك الطهر ، وعلومك الغر ، وحرصك على نشر آثار السلف ، وتفانيك في تثقيف عقول الخلف .

ولقد أوليت كتاب « خطط الشام » من معارفك وعوارفك قسطاً عظيماً وهو لم يبرح ، علم الله ، غرساً ضئيلاً ، فلما أن أورق عوده ، وأطعمت شجرته ، كانت خزانة علَم الأعلام في عاصمة النيل ، أحق أن تهدى إليها ثمرةٌ طال التوفر على تعهدها في جنات دمشق .

لم تفتأ تبعث همتي على العمل ، وتأخذ بيد عجزي لأقوى على إخراج هذا السفر للناس ، فالآن وقد تحققت الأماني تفضل وزد في الإحسان ، واقتطع من وقتك الثمين ساعات ترشدني بها الى مواطن الضعف منه ، فتقلدني من مننك اللاحقة ، قلادة فوق قلائدك السابقة .

وإني لمعترف بقصوري عن وفاء حق مروءتك ووفائك ، في زمن قلّ فيه أهل المروءات الأوفياء ، ممن لا تبطرهم المظاهر الغرارة ، ولا تسكرهم النعم الدارّة ، ولا تغيرهم البيئات والأجواء .

أعزّ الله بحياتك دولة العلم والأدب ، وعلّم العاملين من إخلاصك ما يستعيدون به عزّة العرب ، وأقال هذه الأمة المحبوبة عثرات الليالي ونزوات الأيام ، وقيض لها من ينعشها بالعلم من تشتت الكلمة والتواء الأعلام ، ليعلو في المجتمع الإنساني سعدها ، ويرتفع في أمم الحضارة الحديثة مجدها ، بحوله وطوله .

محمد كردعلي

